موضي و بناتها

رواية

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر

موضي وبناتها / محمد ناصر العبودي - الرياض ، ١٤٣٥هـ

٢٨٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٠-٠٥٣٨٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٥/٥٤٤٧

رقم الايداع: ١٤٣٥/٥٤٤٧

ردمك: ٠-٠٥٣٨٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الزمان والمكان:

نشأ (صالح) في قرية من قرى نجد اسمها (العامرة) في الوقت الذي يكاد يكون فاصلاً بين الحالة التي كان عليها أهل نجد منذ قرون متطاولة لـم يطرأ عليها تغيير أو تحوير وبين أعتاب هذا العصر الذي شهد تحولاً اقتصـادياً شاملاً تبعه تحول اجتماعي إلى حد محدود في البلدان الصغيرة وإلـى حد أكبر في المدن الكبيرة. وكانت ولادته في الخمسين من القرن الرابع عشر للهجرة.

كـان البيـت الذي شهد ولادة (صالح) وأطل عليه صالح أول ما أطل، وعقل ما رأته عيناه أول ما عقل، بيتاً طينياً من البيوت النجدية المعتادة.

فهو بيت متوسط السعة بل هو أميل إلى أن يكون واسعاً بالنسبة إلى البـيوت الأخـرى المجاورة، يبلغ طوله نحو ٣٥ متراً وعرضه نحواً من العشـرة أمـتار، وفيه بابان أحدهما مخصص لدخول النساء والرجال من أهـل البيت، والآخر لدخول الضيوف من الرجال الأجانب الذين لا يجوز لهم أن يدخلوا من باب النساء بأي حال من الأحوال.

وإذا دخل الداخل من هذا الباب فإنه يجد دهليزاً مسقوفاً بما سقف به البيت كله، وهو خشب الأثل فوقه بشكل عرضي جريد النخل المجرد من سـعفه، ثـم الطين ولكن الرائي لا يشاهد من الطين شيئاً من السقف لأن الجريد قد ستره.

أمـا أرض الدهليز فإنها طين مربوب يابس، فهي ليست ذات تراب منهال، ولكنها لا تخلو من الغبار الذي يسببه سحق الأرجل لبعض الطين

حتى أصبح ذا أجزاء ناعمة تعلق بالرِّجل عند المشي.

ويفضي الدهليز بسالكه إلى فناء بعضه مكشوف وبعضه ذو رواق قائم على عمد من الحجارة المثبتة بالجص ويسمونه (الليوان).

ومـــن (اللـــيوان) هذا يصل الداخل إلى (القهوة) أو غرفة الاستقبال الرئيسية المخصصة للرجال، وسموها القهوة ولم يسموها غرفة الاستقبال لأنها تقدم فيها القهوة، والقهوة أمر ضروري ولازم للضيوف، وبدونها لا يعـــد صـــاحب البيت قد أضاف ضيوفه حتى ولو قدم ذبيحة كاملة، وهم يـــتغالون فـــي القهـــوة باختيار صنفها وبإجادة صنعها وبإضافة البهارات الغالية النفيسة إليها كالهيل والقرنفل وأحياناً الزعفران.

وقـــد وضـــعوا الأشعار، وقصدوا القصائد فيها لأنها هي مشروب الكيف الســـائد الذي يشربه الرجال ذووا المقامات العالية، فهي بمثابة النبيذ في القرون الوســـطى، أو قـــل بمثابة المدام في عصور العباسيين، إلاّ أن القهوة يشترك في شربها الناس جميعاً من متدينين وغير متدينين، لأنها حلال طيب.

وقد أبعدوا غرفة القهوة أو غرفة الاستقبال عن الباب الرئيسي حتى لا يكون هناك مجال لاسترَاق السمع لما يدور فيها من حديث، لاسيما في عصور مضت عندما كان حبل الأمن مضطرباً، والأحوال السياسية غير مســـتقرة، والحـــاكم كان يأخذ بالظنة، ويحاسب على الكلمة، وذلك خلال عهود الإمارات في نجد، تلك العهود التي كانت قبل الحكم السعودي أو في فترات ضعفه.

فكـــان الـــبعد عـــن المشكلات وسد الذرائع الموصلة إليها هو خير طريق إلى السلامة.

أمـــا غرفة (القهوة) نفسها فإنها متميزة عن سائر غرفِ البيت في شكل البناء، كما امتازت عنها بالمعنى، فهي مرتفعة السقف إلى ضعف ما عليه بقية الغرف، وهي ذات نوافذ في الأعلى، والأسفل ولكن تلك النوافذ ليست مفتوحة على الشارع، بل على داخل البيت، فالسفلى منها تفتح على (الليوان) والعليا على سطح الليوان أو غيره من سطوح البيت.

وارتفاعهـــا هذا له أسباب وفيه مزايا، فمن أسبابه أن دخان الحطب الذي يوقد لصنع القهوة أو للتدفئة في الشتاء، أو ابتغاء جمره لبخور العود يتصـــاعد إلى أعلى الغرفة ويخرج من النوافذ العليا، فلا يؤذي الجالسين، والارتفـــاع الكبير نفسه مريح للنظر ويشعر بالرحب والسعة، وهو أيضاً دلـــيل على ثراء صاحب البيت وسعة رزقه، كما قالوا في أمثالهم العامية: (سعة الدار من سعة الرزق).

وفي ركن من غرفة القهوة هو أبعد الأركان عن مدخلها يوجد موقد الـــنار يســـمونه (وجار) والحطب كان وقودهم الوحيد، وفي هذا الوجار تصف أباريق القهوة (الدلال) وكل (دلة) لها مقام معين، ومكان مخصوص من الوجار، ولكل دلة من الدلال اسم خاص فهناك المصفاة التي يغلى فيها البن المطحون لأول مرة، ويترك فيها البن حتى يسقط ما يكون قد بقي فيه مـــن حثالة أي يصفى ثم تكون هناك دلة أخرى، وهي اللقمة التي يصلها شـــراب البن صافياً زلالاً صالحاً لكي يوضع فيه البهار، ثم المبهارة التي تصـــب مـــنها القهوة للرجال، ولذلك يجب أن تكون صقيلة الطلاء، جيدة المظهر، ولابد من تعاهدها مع باقي الدلال عند الصَّقَّار الذي يكشف على بواطـــنها ليرى ما إذا كانت بحاجة إلى طلائها من الداخل بالقصدير منعاً مـــن تأثير النحاس إذا كانت عارية من الطلاء على القهوة بســـوء الطعم، أو جلب الضرر على صحة الشاربين.

والدلـــة الأولى الكبيرة يبقى فيه البن بعد الزلة الأولى فيضيفون إليه ماءً ويغلونه ثانية، ثم يصبونه وهذه هي (الزلة) الثانية وتقدم عادة للرجال.

أمـــا النساء وبخاصة الصغيرات في السن فإنه لا يجوز لهن عرفاً شرب القهوة.

وفـــي غرفة القهوة خلف الذي يصنع القهوة مستودع للحطب يشبه المحراب العميق يسمونه (الدكة) وكلما كثر فيها الحطب وجاد نوعه كان ذلك دليلاً على علو المكانة في المجتمع.

وبغـــرفة القهـــوة غرفة أخرى داخلية يسمونها المخزن لأنها يخزن فيها الأشياء الثمينة، وبخاصة القهوة وبهاراتها، وكذلك النقود غير الكثيرة وإن كان بعض الناس يحفظ نقوده بدفنها في مكان مجهول لغيره، وبعضهم استعمل وسائل أخرى لدفن النقود غير دفنها في الأرض، مثل أن ينقر لها نقرة في الجدار، وجدرانهم من الطين كما هو معروف ثم يضع عليها شيئاً من الطين من جنس طين الجدار فلا يُهتدى إليها.

أمـــا الإضـــاءة في الليل فإنها كانت من المنارة، وهي حوض من الحديد مرفوع عن الأرض بقضيب من الحديد بمقدار المتر كانوا يضعون فيه الودك أو السمن ويضعون في كل ركن من أركانه الأربعة فتيلة حتى تصـــبح هـــذه المنارة وكأنها أربعة سرج، وإذا كانت الحاجة لا تدعو إلى أيقاد الفتايل الأربع فإنهم يكتفون بواحدة.

وأشـــرف مكـــان في غرفة القهوة هو ما كان على يمين من يصنع القهـــوة يســـمونه المحكمة، وهي تسمية مأخوذة في أول الأمر من كونه مجلس الحاكم أو القاضي في الأصل.

وغرفة القهوة وما يبعها من (الليوان) والدهليز الذي يسمونه (دهريق) هو في الحقيقة قسم الرجال من البيت.

أما قسم النساء في ذلك البيت الذي نشأ فيه (صالح) فإنه يشمل عدداً من الغرف الأرضية تفتح على فناء مسقوفٍ التماساً للدفء في الشتاء.

وللبيت فناء خارجي مكشوف يسمونه (الحوش) في ركن منه مربط للدواب من البقر والغنم، وفي جانب منه أيضاً أماكن قضاء الحاجة، وموضع لجمع الزبالة، وهناك حفرة بجانب الزبالة مخصصة للبول استكراهاً لدخول الخلاء لأمر خفيف مثل البول، ولم يكن أهل البيت يعرفون الاستنجاء بالماء، وإنما كانوا يستعملون الأحجار أو كسر المدر أي الطين اليابس، وإذا زادت رائحة النتن في بيت الخلاء وضعوا عليه بعض الرماد فيمتص رطوبته، ويذهب بعض رائحته، إضافة إلى أن الرماد نفسه يعد من السماد الذي يستعمل له ما يتجمع في بيوت الخلاء حيث يأتي الفلاحون فيأخذونه يخلطون به السماد الآخر الضعيف.

وفي فناء البيت الخارجي بئر لاحتياج المنزل من الماء للغسيل والوضوء يذهب ماؤه إلى نخلة يستفيد أهل البيت من تمرها، ويجعلون في جانب البئر حوضاً للماء من الحجارة في أسفله صنبور يخرج منه ماؤه يتخذ من عظام الضأن، أو من الصفر في بعض الأحيان.

وإذا كان ماء البئر غير عذب فإنهم يستعذبون الماء للشرب مجلوباً من أماكن أخرى، إما على ظهور الدواب أو على ظهور سقاءين محترفين، أو في أوانٍ على رؤوس سقاءات من النساء يعملن في هذا الأمر.

وأبواب البيت أحدها من خشب الأثل والآخر من جذوع النخل حتى مغاليق الأبواب، ومفاتيحها، هي من الخشب ويفعل الزمن فعله في تلك

الأبـــواب التـــي هي معرضة للانكماش والتمدد في كل عام بسبب تعاقب الجفـــاف الشـــديد في الصيف مع الرطوبة في الشتاء فيحدث فيها تشققات وأحـــياناً فـــتحات جرت عادتهم أن يسدوها برقعة من الخشب قد تكون من غير جنس الخشب الذي صنع منه الباب، فتبدو فيه كالرقعة الغريبة في الثوب.

هـــذا بالنسبة إلى البيت الذي نشأ فيه بطل قصتنا (صالح) وهو بيت يصـــح أن يكـــون مـــثلاً لبيوت القرية التي يقع فيها، فجميع بيوتها مبنية بالطيـــن، وأهـــم مـــا في تلك البلدة المسجد الجامع الذي تقع بجانبه ساحة صـــغيرة أقيمت حولها حوانيت تفتح أبوابها إليها بمثابة السوق الحافل في يـــوم الجمعـــة، وأما غير ذلك من الأيام فإن الحوانيت تكون حركة البيع والشراء فيها قليلة جداً.

أما البضائع التي تباع في تلك الحوانيت فإنها بضائع بسيطة تتناسب مـــع متطلـــبات الحـــياة البســـيطة التي كان يعيشها السكان، ولذلك يعدم التخصـــص في البيع في تلك الحوانيت، إذ تجد في الدكان الواحد الملابس والقهـــوة وبعـــض الأواني المعدنية إلى جانب بعض العقارات المستعملة عندهم كالمر والحلتيت والصبر.

وأعلى بناء في تلك البلدة هو منارة المسجد الجامع، وإن كانت مبنية من الطين.

الفصل الثاني

الوالد:

والـد (صالح) يدعى (زيد بن مقرّب المطية) اختار له والده محمد مقـرب المطـية في أول شبابه فتاة كان عمره يوم ذلك أربعة عشر عاماً وكان عمرها عشر سنوات، وذلك بناء على مجرد كلام بين والدي الاثنين وقد قررا أن يكون كل واحد منهما زوجاً لصاحبه عندما يصبحان في سن الـزواج، أي عندما تبلغ هي الرابعة عشرة ويكون هو في الثامنة عشرة غير أن والد زيد مقرب المطية مرض بعد سنتين من هذا الكلام وبقي نحو السـنة مريضـاً، ثـم توفي ولم يكن لابنه زيد إخوان من الذكور، لذلك صـارهو رب البيت وصاحب الحانوت بعد والده، ولذلك تأجل زواجه بها حتى الحادية والعشرين.

تزوج بها دون أن يراها من قبل وإنما رأتها بالنيابة عنه أمه ولكن أمـه امرأة أمية كسائر بنات جنسها في تلك البلدة، فأخذت تقص عليه ما رأتـه فـي تلك المرأة وتصفها بأوصاف خيل إليه في بعض الأحيان أنها متباينة إلا أن أمه قالت له:

(يا ولدي قلبي حب هالمرأة، إن شاء الله إنها تبي توقرني وتحشمني يا وليدي لا تأخذ إلاّ هي).

ورغـم كونـه بـراً بوالدته لا يخالف لها رأياً، ولا يعصي لها أمراً فإنه فـي هذه الحالة: حالة اختيار شريكة حياته خيل إليه أن الأمر مختلف وأنه لابد أن يحصـل علـى مصـادر أخـرى تؤكد له احتمال أن يكون اختياره اختياراً موفقاً، ويكون زواجه زواجاً ناجحاً ولكن أنى له ذلك.

وكيف يستطيع إليه سبيلا.

وكـــان له قريب كهل مجرب يثق في رأيه ويركن إلى سداد نظرته فذهب إليه يشاوره ويخبره أن أمه رأت الفتاة وأنها مدحتها له ورأت فيها خير زوجة يمكنها أن تتعاون معها على شؤون البيت، إلا أنه غير مكتفٍ برأي والدته، ويريد أن يضم إلى رأيها رأياً آخر سديداً من رجل عاقل.

فقال له: يا ابني إنها من أسرة محترمة، وأهلها أناس طيبون وأبوها مشهور بالكرم وعمها متوسط في الكرم ولكنه (دون عانيه) واخوتها رجال يأخذون حقهم ممن يريد أن يغتصبه منهم.

فقال الفتى زيد: يا عم، أنا لا أسأل عن هذا فأنا أعرفه، وإنما أسأل عن المرأة نفسها.

فقـــال الشـــيخ: يا وليدي، (أخبار الحريم عند الحريم، وش يعرفنا حنا يا الرجال بهن؟). مالك إلا ما قالت أمك، توكل على الله وخل عنك الهواجيس.

وتوكـــل على الله، وعقد قرانه عليها بعد أن ذهب عمه بالنيابة عنه إلى اخوتها يطلب يدها.

الفصل الثالث

الزواج:

جـــاء اليوم الموعود وزف إليها، وكان حفل الزفاف بسيطاً اقتصر على اجتماع عدد من أقارب الرجل وجيرانه، ذهبوا بعد صلاة العشاء إلى بيت أهل الزوجة فوجدوا أنه قد اجتمع عندهم عدد من أقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم، و أديرت القهوة ثم الشاي، ثم مباخر العود، ثم تقدم الأخ الكبير للفـــتاة من زيد وفي يده سراج، وقال له: تفضل فتبعه زيد إلى غرفة في الطـــابق العلـــوي من البيت الطيني، وعندما اقتربا من باب الغرفة نادى الأخ: يا فلانة يا أم فلان فبرزت إليه امرأة كهلة مترهلة الجسم، وقالت له سم، سم، أي: سمعاً سمعاً.

فقـــال: هذا فلان ثم عاد أدراجه مسرعاً وقد ترك تلك المرأة تتولى بقية المهمة.

وقالـــت المرأة وهي تهلي وترحب: (أهلاً وسهلاً يا ربي حيه، الله يجعلها عليك من النواصي المباركة، يا هلا والله ثم هلا، يا مرحبا.

تقول ذلك ويدها ترتعش تريد أن تمدها إليه ليضع فيها بعض النقود ولكنه كاد ينسى ذلك لو لا أن المرأة لم تنصرف بل وقفت كأنها قد سمرت عند الباب، ولم يستحسن أن يدخل ويتركها ثم فطن إلى أنها تريد ما كانت تحصـــل عليه في العادة وهو مبلغ وطن نفسه على دفعه، وأعد له النقود اللازمـــة، فأسرع ينتزع النقود من جيبه ويقول لها: تفضلي وسامحينا عن التقصير فأسرعت تأخذ النقود وهي تنصرف كأنما أفلتت من رباط.

وكـــان الذي أنساه أن يعطي المرأة النقود وأنساه كذلك أشياء أخرى

هو التفكير في تلك الزوجة التي سيدخل عليها وهو لا يعرف عنها شيئاً إلا ما ذكرته له أمه التي امتحنها بأن جعلها تصف له شيئاً في البيت فوصفته وصفاً أحسن ما يقال فيه إنه كالرسم الهزلي (الكاريكاتوري) فخاف أن تكون تلك المرأة كذلك الشيء صورة كاريكاتورية للحقيقة، أو لما رسم عليه زوجته المنتظرة في نفسه.

وأسرعت دقات قلبه وهو يلج باب الغرفة لأنه مقدم على المجهول، ووجد عند الباب من الداخل حصيراً ممدوداً قد أخبره قاضي البلدة الذي عقد قرانهما أنه ينبغي له إذا دخل إلى عروسه أن يصلي ركعتين عليه يدعو فيهما بإخلاص أن يجعلها الله من النواصي المباركة، ومن النساء الصالحات، وأن يجعل قدومها عليه قدوم خير وبركة، و أن يرزقه منها الذرية الصالحة.

ولمح المرأة في ضوء المصباح الخافت وهي ملفعة بعباءة سوداء وقد زادها الحياء والخجل والرهبة والخوف من المجهول المتمثل في ذلك الرجل الذي تزوجها وهي لم تره قط زادها ذلك انكماشاً وتقوقعاً داخل العباءة.

فهي إذاً في حالة نفسية مثل حالته، إلاّ أنهما معاً كما يشتركان في الخوف والرهبة من المجهول فإنهما يشتركان أيضاً في الفرحة والنشوة في أن كل واحد منهما يصل الآن إلى الهدف الذي كان يتمنى الوصول إليه، ألا وهو الحصول على شريك له من الجنس الآخر.

وكان يصلي الركعتين فاغتنمت الفرصة لتنظر إلى حركاته وسكناته في الصلاة لأنها آمنة من أن يلتفت إليها ويلاحظ أنها تراقبه.

وخفق قلبها واعتراها شعور بالاغتباط فقد رأت في حركاته وسكناته حركات الرجل الذي تتمنى الأنثى لقاءه، أي أنها أحست لها بمثل ما تحس

أنثى الطائر عندما يبدأ الذكر حولها، يحجل ويدور وأحياناً يهدر، وعندما سرحت بأفكارها بعيداً قالت لها نفسها: لماذا الاغتباط وقد سبق أن رأيت على البعد خيال رجال أجانب، فما أعجبك ذلك، ولكنها ردت على هذا الخاطر بحزم: لا، إن الأمر مختلف، إن هذا الرجل في هذه المرة هو لي، لي وحدي دون غيري من النساء.

أما هو فإنه كان يصلي ولكنه كان مضطرب المشاعر، مشتت الخواطر، يحاول أن يركز اهتمامه في الصلاة والدعاء لأن ذلك أدعى للإجابة، ولكن تفكيره في هذه الزوجة المجهولة المتكومة خلفه يمنعه من ذلك.

وانتهى من صلاته وكاد يغلط في ركعاتها، أو هو قد غلط بالفعل، وتقدم يعلق عباءته (مشلحه) ثم يقبل على المرأة التي أمسكت بأطراف عباءتها بإحكام وبشدة.

وأراد أن ينزع عنها العباءة، ولكنه لم يستطع، فقال لها: (يا بنت الحلال الله يهدينا وإياك ليش هذا كله، وهو ماله حاجة؟ أنا أبي أصير أبو عيالك وأنت تبين تصيرين أم عيالي، ليش تستحين مني؟).

وأخذ يردد مثل هذه العبارات، ولكنها لم تفد شيئاً في جعلها تخفف من إمساكها بالعباءة، فلما رأى ذلك انتزع العباءة منها انتزاعاً حتى كادت تتمزق، أو هي قد تمزق منها شيء، ولكن المرأة وقد انتزعت منها العباءة التي كانت تتستر بها بعض الشيء قد ازدادت تمسكاً بثيابها وانكماشاً على نفسها.

وقد احتاج إلى أن يستعمل كل ما لديه من قوة نفسية لاطف بها زوجته حتى هدأت قليلاً.

الفصل الرابع

الزوجان الحبيبان:

مضـــت أيام تعرف خلالها كل من الزوجين على الآخر فعرفه حق المعـــرفة، وبدا أن كل واحد منهما كأنما خلق للآخر، وإذا بهما لو كانا قد أعطـــيا حرية الاختيار، ولو كان زواجهما عن سابق معرفة وصحبة لما كـــان يكـــون أكثر توافقاً وأفضل انسجاماً مما هو عليه بينهما، ووجد كل واحد منهما في صاحبه إلى جانب الحب المتبادل شريكاً في الحياة يخفف من أعبائها، ويحمل عنه بعض همومها.

حـــتى الأم قالـــت لابنها: إن نظرتها إلى تلك الزوجة وظنها بأنها ســـتتفاهم معها وتتجاوب مع رغباتها قد كانت صادقة، وليس ذلك فحسب، وإنما وجدت فيها الأم إلى جانب ذلك بنتاً لم تلدها.

وقد جعل هذا الأمر الزوج يزاد تقديره لزوجته، وترتفع منزلتها من نفســـه، وقد تأخر إنجاب الأولاد نحو السنتين، ثم حملت المرأة فكان ذلك مثار سرور الأسرة كلها واستبشارها.

وأســـفر الحمـــل عـــن بنت جميلة فاستبشروا خيراً. وبعد سنتين ونصف أســـفر حمل آخر عن بنت أخرى، وبعد ثلاث سنوات أخرى كان الحمل الثالث، وفـــي أثـــناء الحمـــل ماتت البنت الثانية بسبب مرض الأطفال المزمن ألا وهو الحصبة، فبقى لهم بنت هي الأولى، وجاءت المرأة ببنت أخرى.

فحمـــدوا الله تعالى على ما أعطاهم، ولكنهم كانوا يرجون أن يكون ولداً ذكراً.

وفـــي الحمـــل الـــرابع جـــاء الولد الذكر، وكان فرح الأسرة، بل

والأقـــارب بقدومه لا يكاد يوصف، وجاء إمام المسجد يهنئ ويدعو، وقال للوالد: هل أذنت في أذنه؟

فسأله الأب لماذا؟

قال الإمام: لئلا تضره أم الصبيان، فنفى الأب ذلك وقال: هل ينفع الأذان الآن؟ فقال الإمام: المطلوب أن يكون ذلك في أول الولادة.

أمـــا قريبات الزوجة والزوج من النساء فإنهن رأين المولود الذكر أبيض البشرة موفور الصحة ثقيل الوزن، فكن يدعين له بأن يكفيه الله شر العين.

وســماه (محمــداً) واستمر نمو الطفل جيداً حتى بلغ خمسة أشهر من عمره فأصيب ببرد والتهاب في الشعب الهوائية، حتى كان يتنفس بصعوبة بالغة.

فاحتاروا في أمره، ولم يكن في البلدة في ذلك الوقت طبيب للأطفال ولا لغـــيرهم، فـــأخذوا يلتمسون النصيحة من الشيوخ والعجائز في كيفية علاجـــه، فقـــال قائل من الرجال، وقالت مثله قائلة من النساء: إن سبب مرضـــه هـــو إصـــابته بالعيـــن، ولذلك يحتاج إلى أن يذهب به إلى شيخ معروف بطيب المأكل أي لا يأكل إلا الحلال، فينفث عليه ويقرأ ويكتب له ورقـــة تعلـــق في رقبته يسمونها (الخط) لأنها في الأصل كتاب يخط في ورقـــة ثم يدخلونه في وعاء من الجلد ويخيطون عليه بالسيور حتى يعمر طويلاً، إذ الطفل في اعتقادهم لا ينفك معرضاً للإصابة بالعين وبالتالي لا ينفك محتاجاً إلى تعليق تلك التميمة.

وسارع الأب إلى ذلك، فذهب به إلى الرجل المعروف بأنه لا يأكل إلا الحلال، وكان مظهره يوحي بالثقة، إذ هو قد تقيد بالمظهر الكامل الذي ينبغي أن يكون عليه رجل الدين في اعتقادهم في ذلك الوقت، فثوبه أبيض

قصـــير حـــتى لا ينزل عن الركبة إلا قليلاً مبالغة منه في تشمير الثوب، ومشـــلحه أبـــيض ليس فيه (زرى) وأزارير الثوب مصنوعة من الخيوط البـــيض، ولثوبه في صدره جيب واسع بحيث يتسع إلى أن يحمل فيه ما يعطـــى مـــن يبيس التمر بمثابة زاد يأكله إذا زار أحداً، ولم يكن عنده ما يعطيه غير التمر وهذا هو حال الكثيرين.

أما مظهره الجسماني فإنه قد أعفى لحيته كلها، فلا يأخذ منها حتى الشعيرات النافرة التي يسبب تركها أن تبدو اللحية مهملة غير معتنى بها، وهـــو لا يـــنفك يمشط لحيته بأصابعه وهو يتحدث كأنه يعتز بها، لا عند الـــناس وإنمـــا بطريقة غير شعورية عند نفسه لما يعلم لها من الأثر في نفـــوس الـــناس، فهو يمشط لحيته إذا أراد أن يتحدث بأصابعه منفردة ثم يجمـــع كفه ويمسحها نزولاً وصعوداً يوهم جليسه أنه يضم إليها ما تنافر من شعرها.

وأما يده اليسرى فإنها مشغولة بمسواك طويل لا يفتأ يدخله إلى فمه ويخـــرجه، ويقضمه أحياناً ويستاك أي: يمسح أسنانه وأضراسه، ولا يتفل ما قد يخرجه السواك منها.

وكـــان إذا مشـــى يطأطئ رأسه كأنما يبحث عن شيء في الأرض له قد ضاع ويزعم أن ذلك من غض البصر لأنه لا ينظر إلا إلى مواضع خطواته.

أما حديثه فإنه يحتاج إلى صبر طويل وتحمل لو لا أن الذين يأتون ايـــه يـــأتون إليه وهم في حالة نفسية سيئة لأنهم أما أن يأتوا وقد مرضوا أنفسهم أو يأتوا إليه ومعهم عزيز لديهم قد مرض، واعتقدوا أن شفاءه فيما ينفث هذا الرجل عليه من رقية، وما يعطيه من تميمة.

وإذا تحـــدث حتى الأحاديث المعتادة التي لا تتعلق بالدين أو بالحياة

الآخـــرة فإنه لابد أن يدخل في حديثه أمراً من أمور الدين، ولو كان يفعل ذلـــك وقتاً دون وقت، أو حيناً دون حين، لكان يتخولهم بالموعظة، ولكنه كـــان يفعل ذلك بصفة مستمرة، بل ربما كان ديدناً له، فكان يقول بعض العبارات وهو لا يفهم معناها فهماً دقيقاً.

فمـــن ذلك أن زيداً عندما أحضر طفله إليه أخذ يلقي عليه محاضرة في ذكر الموت وأنه قريب من الإنسان، وأنه ليس بين المرء وبينه إلاّ أن يـــتوقف نَفَسُه دقيقة، وإنه من السهل جداً أن يتوقف نَفَسُ الإنسان وبالتالي يمـــوت ولـــم ينس أن يقول: إن الموت حتم على العباد كلهم يشترك فيه الصغير والكبير والطفل.

كـــل هذا وزيد يحمل ابنه وهو يريد أن يجعله يتعلق بحياته، ويبث الأمل فيه بشفائه.

ومازال يعظه، ويعظ ويذكر ما بعد الموت من عذاب القبر وضيق الصـــدر، ثم ما يعقب ذلك من البعث والنشور والحساب يوم القيامة، إلى عيل صبر زيد فقاطعه قائلاً:

(الله يســـلمك ودي إنك تقرأ عليه، لأن نفسه مثل ما تسمع ما يطلع من صدره إلا غصب).

فانتهره قائلاً:

(لا تســـتعجل، الأمور بيد الله، لو أراد الله غير ذلك لكان، حرصك هذا ماهوب زايده عافية)

وسكت زيد مرغماً.

الفصل الخامس

مرض الطفل:

بعـــد أن انـــتهى الرجل من محاضرته حتى لكأن ما في جعبته من كلام سبق له أن ردده على مسامع عدد من الناس قد انتهى.

أقبل على الطفل، وأخذ يتأمل وجهه وينظر في بقية جسمه، ولم يقل (لا إله إلا الله) أو (ما شاء الله) أو غيرها من العبارات التي كانوا يلفظون بهـــا إذا رأوا شيئاً حسناً لئلا يصيبوه بالعين، وقد اغضب هذا زيداً ولكن مـــاذا يفعل غير أنه قال بصوت مرتفع: لا إله إلا الله ، ما شاء الله، يريد بذلك أن يجعل الرجل يفطن لهذه العبارة الطيبة المباركة فيقولها.

ولكن صاحبه كان فطن لها إلا أنه لم يشأ أن يجعله يشعر وكان ذلك الرجل العامي (زيد) يعلمه ما ينبغي أن يقوله، ولكنه لا يريد أن يفهم منه أنـــه يمتـــنع من ذكر الله تعالى أومن التلفظ بكلمة دينية ينبغي التلفظ بها، لذلك ابتدأ بالقراءة على الطفل، وكان أول ما تلفظ به أن قال:

بســـم الله الرحمـــن الرحـــيم مرة ثم مرتين ثم ثلاثاً، وكان يخرج البسملة في كل مرة بصوت يختلف عن المرة التي قبلها، وهو ينفث بفمه على الصبي على صدره وعلى رأسه وعلى بقية جسمه.

ثـــم أخذ يقول كلمات لا يتبينها زيد بحيث لم يدر (زيد) ما هي وهو ينفث وينفث ويتحفز لذلك في كل مرة، ويظهر الجد والعزيمة.

وكأنمـــا تأثر الطفل من هذا العمل الغريب عليه، أو أن نفث الرجل زاد مـــن صعوبة تنفسه فعبس وجهه وجعل يبكي، فاستنكر هذا زيد الذي كـــان يظن أنه لمجرد ابتداء النفث عليه سيبدأ باله بالسكون ويبدأ مرضه

بالرحـــيل، وقـــد فطـــن الرجل لذلك فقال: يريد نفس الذي أصاب الصبيَّ بالعيـــن، (شـــفت، شفت، ها النفس العاصية، ما تصبر على القِرَاية أبداً، شـــفت كيف أنه ضاق صدره يوم بديت أقرأ عليه! هذي علامة أن القراية موافقـــة) وبعـــد أن فرغ من عمله وقد ضاق صدر الوالد لأنه لم ير أية علامة للتحسن على طفله، بل ربما كان العكس هو الصحيح طمأنه الرجل على أن النتيجة ستأتي في المستقبل.

وهكذا خرج من عنده على أمل أن يعود إليه مرة ثانية غداً.

وفي الغد ذهب به إليه، ومازال يذهب به إليه كل يوم حتى استكمل سبعة أيام، ولم يطرأ عليه إلا تحسن قليل لا يكاد يعد تحسناً ولم يكن سببه نفـــث ذلـــك الرجل، وإنما كان بسبب الدورة الطبيعية للمرض إلا أنه لم يزايله المرض كلية.

فقال زيد للرجل النقَّاث: ما رأيك في الأمر؟

فأجـــاب: إنه يحتاج إلى (خَطّ) أي: تميمة نكتب فيها بعض الكلمات المبروكة، وتعلقونها عليه حتى ما تفارقه.

وهكذا كان.

وأراد زيـــد أن يعطـــي الرجل ما يستحق من أجر، وإن لم تكن النتيجة علـــى ما يريده فأعطاه ريالين فضيين، وذلك مبلغ كبير، وتوقع أن يشكره، وأن يدعـــو له والدعـــاء هنا بمثابة الشكر وإن لم يعتقد الداعي ولا المدعو له بمعنى كلماتـــه، إلاّ أن الـــرجل بـــدلاً من ذلك ابتسم ابتسامة صفراء تحمل معنى من معاني الاستجداء، ومعنى آخر من معاني الاستخذاء ولم يدع ولم يشكر.

فقال له زيد: (هي شوية؟).

قال: بعض الناس يعطوني أربعة وخمسة.

فأعطاه ريالاً ثالثاً وانصرف.

تحسنت حالة الطفل قليلاً بعد تعليق التميمة وأخذ تحسنه يزيد حتى أخذ الذين أشاروا على أهله بأن يذهبوا به إلى الرجل النفاث يتبجحون بصواب رأيهم، ولم يكتفوا بذلك بل صاروا يرددون القصص الكثيرة لحالات مرضية مستعصية كان شفاؤها بسبب الرقي والتعاويذ، ولكن فرحتهم لم تعمر طويلاً فقد كان الوقت خريفاً حيث تكثر نزلات الزكام، وهجمات الأنفلونزا.

وكان من سوء حظ الطفل وأهله أن أصيب بعدوى أنفلونزا شديدة وهو لا يزال يعاني من بقايا مرضه القديم، وكأنما كان له استعداد طبيعي للتأثر بهذه الأشياء أكثر من الناس العاديين، فانتكست صحته، وعادت حالته المرضية إلى أسوأ مما كانت عليه، وأخذ تنفسه يزداد صعوبة، وصدره يحشرج من شدة ضيق النَّفَس.

ففزع أهله وأخذت أمه تبكي كلما رأته كذلك، كما أخذت الجدة تظهر الجزع والفزع، بل وتتأثر في بعض الأحيان تأثراً حقيقياً لحالته، إلاّ أنها في حقيقة نفسها كان يتنازعها شعوران يكادان يكونان متعارضين أحدهما يريد له الشفاء العاجل والصحة الكاملة والعمر المديد لأنه حفيدها، ولأنه قرة عين والديه، والثاني: بعكس ذلك لأنه قد صرف كل اهتمام أهل البيت عنها، فلا أحد يسأل إلا عن الطفل ولا أحد يتحدث إلا عن الطفل، حتى والده (زيد) البر الرؤوف بأمه قد أخذ ذلك الطفل كل ما في قلبه لأمه كما تزعم.

أخذت الأم تبكي في وجه الأب تطلب منه أن يفعل لابنها شيئاً، ولكن ماذا يصنع؟

إنه لا يريد أن يذهب به إلى ذلك الرجل النقّاث الذي جربه فلم يحمد تجربته، وأشارت عليهما بعض العجائز أن تحضر إليه (أم مناحي) لتراه، وهي عجوز بدوية في أول شيخوختها، إلاّ أنها (حيزبون) ذكية تعرف من أيــن تؤكــل الكــتف، وأكلها الكتف يتلخص في أن تنجح في جعل أهل المــريض يعتقدون بصحة ما سوف تقدمه له من دواء، ومرضاها هم من النساء والأطفال.

أمــا الــدواء الــذي تقدمه علاجاً للأمراض المختلفة، فهو بالدرجة الأولــى الكــي إلى جانب بعض العقاقير المشهورة وهي كثيراً ما تعالج المــرض وضــده بدواء واحد لأنها تداوي بدافع الارتزاق والارتفاق بما تكسبه من أجر.

وجــاءت (أم مناحي) إلى الطفل ونظرت إليه ثم فحصته وهي تهلل وتحوقــل وتقــول: (ما شاءالله) حتى تنفي عن نفسها تهمة إصابة الطفل بالعيــن فيما لو ساءت حالته أكثر، مع أنه في حالة لا يغبط عليها وقد اثر المــرض على منظره حتى أصبح منظر البائس الذي يستدعي الشفقة ولا يستدعي الإعجاب.

كــان فحصــها يــتلخص في أنها وضعت يدها على جبهته، ثم وضعت يديهــا الاثنتين على جنبيه، ثم إحدى يديها على حلقه، ثم أخذت تلمس بأطراف أصــابع يدها بعض عروق الرقبة، ثم قالت لامه وجدته وخالة له كانت حاضرة وإحــدى الجــارات التي أحضرتها من بيتها وقد تصنعت الاهتمام وبدت كالذي وجد ضالة له: (شوفوا، شوفوا، وش لون عروقه تختبط)

وتعجبــت النســوة من قولها فهن لم يكن يلقين بالاً لعروق الطفل، وإنما كانــت ملاحظتهن منصرفة إلى صدره، حيث يتردد نفسه في صدره بصعوبة،

وكانت أذهانهن منصرفة إلى جبهته حيث كانت تتوقد من الحمى.

فقالت العجوز: (شوفن، إلمسن).

ثم أخذت بيد كل واحدة منهن تجعلها تلمس بأصابعها عروق الطفل النابضة بشدة، وكان شعورهن بين العجب والجزع، فلم يكن يتصورن أن عـروقه تنـبض بهذا الشكل، وهو أمر يكاد يكون طبيعياً إلاّ أنهن لم يكن يلقين له بالاً من قبل.

وقالت العجوز: هل تعرفن ما معنى هذا؟

فأجبن: لا

قالـت: معـناه أنه يحتاج إلى كوي، يحتاج له كم مكيوي- تصغير مكوى بمعنى كيه- مع ها العرق ومع غيره.

وارتاعـت أم الطفل فقد كانت تظن من قبل أن طب العجوز (أم مناحي) سـيكون بضعة من أدوية توضع على صدر الطفل أو سيكون شربة دواء يسقى اياهـا، ولـم يكـن جزعها من عدم اعتقادها بفائدة الكي أو عدم إيمانها بجـدواه، فهـي كانـت مثل جميع أبناء جيلها من الرجال والنساء الذين يؤمنون بأن الكي يكون دواء ناجعاً لعلاج بعض الأمراض، ولكن جزعها كـان مـن تصـور ابنها وحبيبها وفلذة كبدها وهو يكوى بالنار، فيتلوى ويصرخ من الألم زيادة على ما فيه من ألم المرض.

ولذلك توقفت عن إجابة (أم مناحي)، وكانت تفكر في ذلك.

ولمـا سـألتها (أم مناحـي) عما تفكر فيه لم تستطع أن تقول لها بالضـبط ذلـك، وإنمـا قالت: إنها لا تستطيع أن تبت في هذا الأمر لأنه مـتروك لزوجها، ثم نهضت وأحضرت قليلاً من القمح وأعطته العجوز

التـــي كانت قد احتاطت للأمر بناء على خبرتها السابقة، وأحضرت كيساً وضـــعت فيه القمح، فقد كانت النساء لا يملكن نقوداً وأجز العجوز لا يرقى إلى درجـــة أن يكـــون نقـــوداً، وإنما كانت الزوجات يعطين من يردن صلتهن من النســـاء أو مكافأتهن على عمل من الأعمال شيئاً من التمر أو القمح، وأحياناً من الشـــعير حسبما هو متوفر في البيت للتموين، إذ كان غذاءهم الرئيسي هو الـــتمر والقمـــح، وكانوا يخزنون ذلك في أماكن معدة لخزنه في بيوتهم، وكـــانوا يشترون التمر إبان صرام النخل لأنه يكون في ذلك الوقت أوفر بطبـــيعة الحـــال ويكـــون أرخـــص لأن الفلاحين يبيعون التمر الذي هو المحصول الرئيسي لهم لكي يسددوا بعض ما عليهم من ديون، ولأن التمر قـــد يشـــح في غير أوان الصرام، حتى يصل ذلك إلى درجة أن يعدم من الأســـواق، وحـــتى إذا لم يعدم من الأسواق بالكلية فإنه يكون غالياً غلاء فاحشاً بالنسبة إلى مقياس القدرة الشرائية في ذلك الزمان.

ومـــثل ذلك يقال في الحبوب التي هي بصفة رئيسية القمح والشعير وقليل من الدخن، لذلك تستطيع المرأة أن تعطي شيئاً قليلاً من هذا الذي قد أعـــد لـــيكون مؤونـــة للبيت طوال السنة أو أكثرها إذا كان حظها حسناً، وكانت موضع ثقة من زوجها، فكان يسمح لها بأن تصل إلى أماكن خزن المؤونـــة لأن كثيراً من الأزواج يغلق عليها بمغاليق قوية حتى لا تستطيع المرأة أن تصل منها إلى شيء، إلا إذا كان زوجها حاضراً يعرف مقدار مـــا أخـــذت فـــلا يزيد عن الحاجة اليومية للبيت، وغالباً ما كان في تلك العصور أميل إلى التقليل منه إلى التكثير.

انصـــرفت العجـــوز ولكنها تركت في نفس الأم، بل في البيت كله بلبالاً من الهم وسحباً سوداء من الغم ذلك بأنها أوحت إليهم بأنه لا دواء له

إلا الكي، وأنهم إذا لم يكووه فإنهم يكونون قد جنوا عليه لأنهم أهملوه ولم يأخذوا بسبب شفائه.

وعاد الزوج إلى البيت من عمله في حانوته وهو عمل لا يصح أن يطلق عليه ذلك الاسم إلا من باب المجاز.

ذلك بأن حانوته لا يتطلب منه الحضور في أوقات معينة فطالما تركه مغلقاً عدة أيام وطالما واظب على فتحه ضحى وعصراً في أيام أخرى، لأن وقت البيع والشراء عندهم ينحصر في وقتين اثنين لا ثالث لهما أحدهما من بعد الشروق بقليل حتى قبل زوال الشمس بقليل، والثاني بعد صلاة العصر إلى قرب آذان المغرب، ماعدا يوماً واحداً في الأسبوع هو يوم الجمعة، فيكون هناك بيع وشراء إضافي بعد خروج الناس من صلاة الجمعة مباشرة انتهازاً لفرصة الاجتماع للصلاة.

عاد الرجل من حانوته إلى بيته قرب صلاة الظهر فاستقبلته زوجته باكية حزينة، وحاول أن يستفسر عما حدث فقال لها: مالك؟ أحصل على محمد مرض جديد؟

فأجهشت بالبكاء، ووقفت الكلمات في حنجرتها فلم تستطع إخراجها، بل غصت بها فلا هي تستطيع أن تتكلم ولا هي تستطيع أن تكف عن البكاء، فلم تجد أسهل من أن تقول كلمة واحدة: لا.

فهدأت هواجسه قليلاً ولكن بكاءها المتواصل والانفعالات الحزينة التي ظللت محياها أثارتها مرة ثانية. فقال لها بقوة: أخبريني، فزاد انفعالها وزاد بكاؤها حتى تحول إلى نحيب هو الحزن نفسه، ورأى أنه قد قسا عليها وأنه ما كان ينبغي أن يفعل بها ذلك وهي زوجته الوفية، بل صديقته الحنون.

فاســترجع وحوقل، وقال: اللهم لطفك، ثم حول وجهه عن وجهها، وتــركها تفعل ما تشاء حتى ظن أنها قد هدأت ثائرتها قليلاً، فأعاد عليها الســؤال فقصت عليه قصة العجوز، وما أخبرتهم به من كونه لا أمل في شفائه إلاّ بالكي.

فقــال لها (نكوي هالطفل المسكين اللي عاجز عن روحه بلا كوي، كيف نعذبه بالنار وهو متعذب بالمرض؟ عساه يقدر على اللي به).

فقالت له: قلت لها كذا ولكنها تقول: إذا ما كويناه فهو ما يطيب.

فسكت قليلا وظل ساهماً يفكر في الأمر، وقد رانت عل عقله سحابة مــن الحزن والحيرة، وعندما استبد به ذلك وضاق ذرعاً بما يعانيه فزع إلــى الكلام لينفس عما في نفسه، ولكن ماذا يصنع؟ أيبكي وهو الذي كان يأمــر زوجته بالكف عن البكاء أو يشكو إليها وهي التي تشكو إليه لأنها أضعف احتمالاً، وأكثر عاطفة، لاسيما تجاه وحيدها الذكر؟

فلــم يجــد خيراً من أن يفزع إلى ذكر الله وإلى ترديد جملة الاسترجاع (إنــا لله وإنــا إليه راجعون) والحوقلة: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وآيات الأمر بالصــبر والتسليم وتفويض الأمر لله تعالى: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) و(أفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد).

وكــان بفعلــه ذلــك إنمــا يســري عن نفسه بعض ما فيها من الحزن والحــيرة، ثــم ذكر أنه ينبغي له أن يتكلم إلى امرأته بشيء يطمئنها به أو على الأقل يبين لها ما سوف يفعله، فقال لها:

الأحســن أنــنا نشاور اللي أكبر منا أنتي شاوري أهلك وأنا أشاور أهلي ونستخير الله الليلة ونشوف وش تقول لنا الخيرة.

وفـــي صـــباح اليوم التالي كانا قد فعلا ما اتفقا عليه واستقر رأيهما على الكـــي، وكان جميع كبار السن في الأسرة تقريباً ينصحون به، وقد قالت أمه له: يـــا ولـــدي، أنـــت في صغرك مرضت مرضاً شديداً فأحضرنا لك فلاناً فكواك كيتيـــن أحدهمـــا في هامتك والأخرى في علباتك، وقد ذهب عنك المرض منذ ذقـــت طعم النار، وكأنما كان قد تنبه لشيء غريب فأخذ يتحسس آثار الكي في رأسه، وفي قفا عنقه، وهو أثر لم يكن يلقى إليه بالاً من قبل.

ومع عزمهما على كي الطفل فإن الأب لم يسرع إلى ذلك ولم يرسل في طلب (أم مناحي) في ذلك اليوم، وإنما أعطى نفسه فرصة التمهل إلى يوم آخر إلا أن المرض لم يعط الطفل مثل تلك المهلة، وكان ذلك إلى أمر آخر قد جعله يسرع في اليوم التالي بإرسال إحدى النسوة إلى (أم مناحي) ذلك الأمر الآخر هو أنه جعل يسأل من يلتقي بهم من الرجال فكلهم ذكروا أنهم قد كواهم أهلهم مرة أو أكثر من مرة، بعضهم يعرف ذلك بنفسه لأنه كـــوى وهو مميز أو كبير وبعضهم عرف ذلك من الأثر الذي تركه الكي في جسمه فسأل أهله فأخبروه بالتفصيل.

وكان يسأل بعضهم عن أثر الكي فيجيب بعضهم بمدحه وحسن أثره في إزالة المرض وبعضهم يقول في غير اهتمام: لا أدري فقد كواني أهلي وأنا الآن في صحة جيدة، ولا أدري ماذا كان للكي دخل في ذلك.

كما كان يسأل النساء اللاتي يجيز له العرف أن يتحدث معهن، وهن ذوات رحمـــه أي: قريـــباته المحرمات عليه أن يتزوجهن، والكبيرات في السن من جاراته، وعددهن قليل جداً فكلهن أو أكثرهن قلن إنهن أيضاً قد جربن الكي أو جرب أهلهن فيهن الكي.

الفصل السادس

موت الطفل:

جاءت (أم مناحي) ضحى ولم يخرج إلى حانوته في ذلك الضحى، فقد كان عليه أن يحضر إجراء عملية الكي التي هي كالعملية الجراحية في الوقت الحاضر، بل هو أعظم من ذلك لأن العملية الجراحية يقوم بها أطباء مهرة يركن إليهم في معرفة فنهم، أما عملية الكي فإنها ليست كذلك، إذ يكفي أن يكون من يقوم بها لديه الجرأة على ذلك، وهي إن وافقت شفاء فإنه سيكون نصيبه المدح والتقريظ، وإن كان الأمر غير ذلك فسيقول أهل المريض: إن ذلك هو القضاء والقدر، ولا يلحقونه لوما على ذلك، لأنهم يعتقدون أن فعله وأمثاله إنما هي أسباب قد تنجح في بعض الأحيان، و قد تفشل في أحيان أخرى، كما هو شأن الأسباب كلها.

كان المجتمعون حول الطفل فريقين، فريق استبد به الحزن والهم والقلق وهم كل الحاضرين على اختلاف نصيب كل منهم من ذلك عن نصيب الآخر. وفريق وهو (أم مناحي) وحدها لا يشعر بما يشعر به الأكثرية، بل إنه شعور مختلف تماما، إذ هي ترى في ذلك حصول أجر لا بأس به بالنسبة إلى حالتها المادية الضعيفة، وهي تجد في نفسها أمرا أهم من ذلك، ولكنها لا تستطيع أن تخبر به أحدا، ألا وهو أنها العجوز البدوية الفقيرة، وأهل البدو محتقرون من أهل الحضر إذا حلوا في المدن لأنهم يعتقدون بحق أنهم أقل معرفة بشؤون الحاضرة، وقل أن يحسنوا عملا من أعمال أهل الحضر كالزراعة والتجارة.

إن (أم مناحي) تجد نشوة في باطن نفسها بأنها ذات أهمية حتى إنها تعرف ما لا يعرفه الحضريات من بعض الأمور، والدليل على ذلك هذا

الموقف اليوم إن كان يحتاج الأمر عندهم إلى دليل.

وكان أول ما فعلته (أم مناحي) أن أمرتهم بجلب كومة من الحطب غـير الغلـيظ، ثم أمرتهم بإيقادها في فناء الدار، فلما اشتعلت فيها النار أخرجت ثلاثة قضبان دقيقة من الحديد ودستها في النار ثم التفتت تتحدث إلى من حولها، وكأن الأمر ليس فيه شيء، بل إنما تتحدث كما يتحدث من يريد أن يسم دابة بالنار مع أن وسم الدابة أسهل على الدابة من الكي على ابـن آدم لأن الدابـة لها شعر ووبر يقيها شيئاً من وقع الكي، ولأن جلد الدابة بطبيعته سميك قوي خلقه الله كذلك لكي تتقي به الحر والبرد، ولأن الوسم في الدابة يكون محدود العدد في المرة الواحدة.

وبعـد قليل أخرجت، أحد القضبان من النار ونظرت إليه فإذا به لا يزال رمادياً اللون وإن كان لونه يميل إلى الحمرة، فأعادته إلى النار ثانية، وطلبت مزيداً من الحطب الدقيق حتى إذا كان بعد نحو خمس دقائق أخرى أعـادت النظر في تلك القضبان فوجدتها وردية اللون مع ميل إلى اللون الرمادي كأنها الجمر المتقد وتأكدت من أن القضبان الثلاثة كلها كذلك.

ثم التفتت إليهم وقالت: أنا أعرف أن أم الطفل لا يمكن أن تمسك به إمسـاكاً كافـياً لذلـك أحضـرت معي إحدى صديقاتي لتمسك به فأقبلت صديقتها البدوية تمسك يدي الطفل وصدره بكل قوة، وأمسك والده برجليه، أمـا أمـه فإنه جعلت تولول وتنتحب حتى كان نحيبها يدمي القلوب، وأما النسـاء الأخـريات فقـد أشحن بوجههن عن منظر الحديدة الحامية التي أخرجتها العجوز من النار وهي حمراء تتوهج لتضعها فوق جسم الطفل.

وبدأت العجوز برأسه فلطعته بكية صرخ لها الطفل صرخة مفزعة

واضـــطرب جسمه كله اضطراباً عظيماً، ولكن بغير حرية لأن المرأة قد أمســكت بـــه وفاحت في أنف الأب ومن حول الطفل رائحة تقززت منها نفوســـهم، واقشـــعرت منها جلودهم، إذ هي رائحة فيها من رائحة الشواء شـــيء ممزوج برائحة الشعر الذي يحرق بالنار إذ كان على رأس الطفل بعض الشعر وإن لم يكن كثيفاً.

ولم تكد تنقضي هذه اللسعة النارية فوق هامته لحظات حتى أعقبتها العجـــوز بلسعة أخرى على مؤخرة رقبته وكانت هذه أشد إيلاماً للصبي، وأفظع وقعاً على نفوس ذويه، لأنه ليس في هذا الموضع شيء من الشعر يمكن أن يقي من بعض الألم وتوالت الكيّات والعجوز تعاقب القضبان أو الأسياخ الحديدية، فتأخذ واحداً فتكوي الطفل به ثم تعيده بسرعة إلى النار وتـــنزع مـــنها قضـــيباً آخر فتكوي الطفل تزعم بذلك أنه يجب أن تكون الحديدة حمراء تتلظى وإلا لما كان أثرها مضموناً.

كـــل ذلـــك وأهـــل الطفل قد انخلعت أفئدتهم، وتقطعت قلوبهم وصراخ الطفـــل يفتـــت الأكـــباد، لاسيما أنه كان مريضاً متقطع الأنفاس، وكان صراخه يزيد مع كل كية، حتى يصبح كأنه توسل الإنسانية إلى من ينقذها من العذاب.

ولم يطق الأب صبراً فقال للعجوز:

(يـــا مـــرأة، خافي الله هو ما بقلبك رحمة يكفي أذيتي الطفل، بس، خلـــيه لله الموت أهون عليه من هذا) ولكنها لم تلتفت إلى كلامه ولم تعره اهتماماً، بل واصلت كيّاتها حتى أوصلتها إلى سبع كيات.

وعـــند ذلـــك توقفت والتفتت إليهم بوجه فيه الكثير من الرضا وفيه العتاب عليهم كيف يستفظعون هذا الأمر الذي هو بالنسبة إليها أمر معتاد

لا يستحق كل هذا الاستنكار، وقد انتهت من عملها ولكن صراخ الطفل لم ينته، بل لم ينقطع إذ كان يبكي قبل ذلك بسبب المرض، أما الآن فإنه يحس بألم سبع كيات في رأسه ورقبته وصدره وجنبه وظهره، وأن كية واحدة كافية لكي يجعله لا يهدأ من الصياح، بل لكي تجعل الرجل الكبير يتلوى من الألم.

وبينما كانت العجوز تدس قضبانها الحديدية الحمراء في التراب حتى تبرد فيه لتستطيع أخذها بيدها وحملها في أمتعتها بعد ذلك كانت عيناها مسمرتين على يد والد الطفل وجيبه تلتمسان الغنيمة، وكأنها الوحش الذي قتل فريسته ثم أخذ يستعد لأكلها، ولكن والد الطفل وأهله جميعهم كانوا في شغل شاغل عنها بطفلهم، وقد نسوا كل شيء إلا أن يجدوا شيئاً يسكته عن الصراخ المتواصل.

ولما طال الأمر بالعجوز تكلمت ملمحة بأنها ستنصرف، ولكنهم لم يفهموا من كلامها ما أرادت أن يفهموه لأنهم ليسوا في وضع نفسي يمكنهم من ذلك، فاضطرت إلى أن تلقي كلمة في أذن صاحبتها تأمرها بها بأن تخبرهم أنها ستنصرف فتكلمت المرأة بصوت مرتفع وبكلام واضح بهذا المعنى فقالوا: لا بأس ولكن العجوز تعلم أنه لا بأس في انصرافها، وإنما تريد أن تحصل على أجر تعذيبها ذلك الطفل، إلاّ أنها لم تتلق منهم شيئاً بسبب انشغال الجميع بأحزانهم على ما جرى للطفل حتى قال الأب: لو كنت أعلم أن هذا سيكون، و أنه سيتعذب هذا العذاب لما وافقت على كيه، وقالت الأم: مثل ذلك وأضافت يا ليتنا خليناه لله هو ونصيبه.

إلا أن امرأة من القريبات عارضتهما قائلة: وش لون تخلونه يموت، هذا دوا والدوا لابد من الصبر عليه مثل ما قال القائل (ما حرّك داواك).

فقـــال الأب: (يـــا بنـــت الحلال هذا رضيع هذا مسيكين، هذا ما يتحمل) وهـــنا وقفت الكلمات في حلقه واغرورقت عيناه بالدموع وحاول أن يُقاوم ذلك لأنـــه لا يلـــيق بالرجل الشجاع أن يفعله في عرفهم، ولئلا يزيد زوجته انفعالاً علـــى مـــا بهـــا من انفعال فكتمها، ولكنه لم يستطع فانفجر ينتحب وكأنما كان يخـــتزن فـــي صـــدره بكـــاء الدنيا بأجمعها فانفجر رغماً عنه، وكان كلام تلك المرأة التي لا تجد للطفل ما يجده وزوجته له، من محبة وشفقة هو السبب.

ويئســـت (أم مناحـــي) من أن تنال أجراً فورياً فانصرفت غاضبة وقالت: سوف أمر عليكم في وقت آخر، غضبت لكونهم لم يعجلوا الأجر وإلاّ فهي تعلم أنهم سوف يعطونها ما تريد في وقت آخر.

وضـــاق صـــدر (زيد بن مقرب المطية) من البقاء في البيت ومن رؤية طفله الحبيب يتعذب بهذا الشكل وهو لا يستطيع له إنقاذاً مما هو فيه فأراد أن يخرج إلى المسجد وهو المكان الذي يفزغ إليه كلما ضاق صدره وكثرت همومه وغمومه، فكان يذهب إلى المسجد بيت الله الكريم، فيصلي ما يقدر له أن يصلى ويتضرع إلى الله في سجوده وبعد صلاته، وقد يبكي أحياناً فيسري ذلك عنه بعض ما يجده من ضيق.

وكان إذا ذهب إلى المسجد التمس أن يكون بجانب أحد الذين يتلون كتاب الله في المسجد، وقد يكون ذلك القارئ هو إمام المسجد الذي يحضر مع أول الحاضرين إلى المسجد في العادة، فكان (زيد المطية) يستمع إلى كتاب الله تعالى بخشوع وينصت إلى القارئ بكل ذهنه يفعل ذلك لأنه أمي لـــم يعـــط حظاً من معرفة القرائة، فضلاً عن الكتابة، وكم كان يتمنى أنه يســـتطيع أن يقرأ القرآن من المصحف، وتصور أنه لو كان يستطيع ذلك لما ترك المصحف الكريم من يده طول الوقت الذي يستطيع فيه أن يفرغ

للقــراءة، بل كان يذهب به التمني إلى أن يتصور أنه إذا استطاع أن يقرأ القرآن من المصحف فإنه سيسعى في حفظ سور كثيرة منه عن ظهر قلب، بل حتى أن يحفظه كله عن ظهر قلب، من أجل أن يستطيع أن يقرأ القرآن في كل حالاته، وسواء كان على وضوء أو لم يكن.

وفي حالة نفسية مثل حالته تذكر أنه حاول مراراً أن يجد من يعلمه قــراءة القرآن، ولكن محاولته باءت بالفشل لأن الذين كان يذكر لهم ذلك كــانوا يقابلون قوله بالتهكم والاستهزاء، وكان أحدهم متعلماً قد سمع شيئاً من النصوص الأدبية قال له عندما أخبره برغبته في التعلم على كبره: لا تتعــب يا زيد لأن الأولين يقولون: (التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالنقش في الماء).

ولــم تكــن مــثل هذه الأقوال هي التي منعته لأنه كان يستطيع أن يتجاهلها ولأن رغبته في تعلم قرائة القرآن أقوى منها، ولكن السبب الأهم أنه لم يستطع العثور على من يعلمه ذلك.

إذ كان عدد المتعلمين قليلاً جداً، وحتى هؤلاء يسمون متعلمين من بــاب الــتجوّز وعدم الدقة في التعبير، وإلا فإنهم لا يبعدون عن الأميين كثيراً ، وهم ممن يصدق عليه التعبير الحديث إنهم ممن (يفكون الحرف) وحتى من يستطيع منهم قراءة القرآن فإنه يقرأ قراءة غير مجودة لا يخرج الحــروف من مخارجها، فضلاً من أن يعرف أحكام التجويد أو أين يجب الوقوف، وأين يجوز الاستمرار، والصفة الغالبة على قراءتهم القرآن أنهم يسرعون فيه إسراعاً مفرطاً حتى يخيل للمرء الذي لا يعرف أمرهم أنهم فــي ســباق لإحراز جائزة رهان أعدت لمن يكون أسرع في القراءة من غــيره، وأبعد إخراجاً للحروف عن مخارجها، بل إن بعضهم يخلط بعض الكلمات ببعض لهذا السبب.

وإذا أراد مـــرتل مـــنهم أن يرتل فإنه يمد جميع الحروف وبخاصة حـــروف العلـــة مداً طويلاً سواء أكان ذلك سائغاً في علم التجويد أو غير سائغ، لأنه يفعل ذلك عن غير معرفة ولا فهم.

ولم يمنع زيداً ما هو فيه من حالة نفسية أن يذكر أمراً فيه طرافة، وكـــان يضحك إذا ذكره عند أناس آخرين، كما كان يبتسم إذا ذكره خالياً، إلا أنه عندما تذكره في هذه اللحظة النفسية لم يبتسم.

ذلك الأمر هو أن أحد أصدقائه الذين عرفوا منه حرصه على تعلم القراءة أشار عليه برأي لقى منه الضحك والابتسام ومعهما الاهتمام.

ذلـــك بـــأن صاحبه قد قال له إنه علم أن (فلانة بنت فلان) قد مات عنها زوجها وهي قارئة للقرآن، فماذا لو تزوج بها زيد وتعلم عليها القرآن؟

وكان رأياً ذا وقع جميل في أذنه في ذلك الوقت لأن الزواج بامرأة ثانـــية في عرفهم أمر يضفي على الرجل شيئاً من الوجاهة ويشعر الناس بأنـــه لا يـــبخل على نفسه بما يكون سبباً في راحتها، إضافة إلى أن ذلك أدعى لتكثير نسله وزيادة أولاده، وذلك في حد ذاته أمر مرغوب فيه كل الرغـــبة آنـــذاك، لأنه بمثابة أخذ الحيطة لمن قد يموت من صغار النسل بســـبب أمـــراض الأطفـــال التي تزورهم بصفة شبه منتظمة، كالجدري والحصـــبة والدفتريا، إلى جانب أمراض الإسهال الناشئة عن عدم نظافة البيئة نظافة تامة، كما أن مجرد شعور الرجل بأنه يملك امرأتين هو أمر في حد ذاته مدعاة سرور له أخذاً من الميل الطبيعي في الذكر إلى الأنثى.

ولكن الشأن كان في زوجته التي كان حريصاً على عدم إغضابها، وكـــان حرصـــه على ذلك أعظم من رغبته في تنفيذ الرغبات المذكورة،

لذلـــك صرف النظر عن هذا الأمر، وكاد يضحك عند ما تذكر جملة قالها لـــه صـــاحبه: إنـــك إذا تزوجتها وبدأت في التعلم عليها تستطيعُ أن تقول للناس: ماذا تقولون فيمن تزوج مطوعه؟ وستكون هذه نكتة ما بعدها نكتة، إلا أن ما به من حزن منعه من الابتسام عندما تذكرها هذه المرة.

هـــذا وقد فطن بعد أن زايلته هذه الأفكار إلى أن موعد الصلاة لم يحن بعد، وأن المسجد الآن ليس فيه أحد، لقد عرف ذلك من موقع الشمس فـــي الســـماء وموضع ظل الحيطان على الأرض، وهي معرفة تخمينية تقريبية، لأنه لم يكن يقتني ساعة كغالب أهل بلاده، وذلك بسبب قلة النقود من جهة، وصعوبة صيانة الساعة من جهة أخرى، و هي كانت من الندرة بحيـــث إنه لو افترض أن وجد من يستطيع إصلاحها لم يجد له من العمل فيها ما يكفي.

و أمـــر آخر في عدم اتخاذهم للساعات وهو أنهم لم يكونوا يبالون بالوقـــت، ولم يكن له من الأهمية عندهم ما له عند أهل هذا الزمان، لذلك كانوا يقدرون الوقت بأشياء غير محددة تحديداً دقيقاً، كما نفهمه نحن كأن يقولـــوا إن الموعـــد هـــو في وقت الصباح أو في وقت الضحى أو بين الصـــلاتين أي: صلاتي الظهر والعصر، أو بعد العصر وهو وقت يستغرق في الصـــيف أكثر من ثلاث ساعات. أما تقديرهم للأفعال المحددة الزمن فإنه تقدير قـــد يجلب الضحك لأهل هذا الزمان، كقولهم إنه (حمس قهوة)، أي لا يستغرق من الوقت إلا بمقدار ما يستغرقه تحميص القهوة وإعدادها للشرب.

ولمـــا تذكـــر (زيد المطية) أن وقت صلاة الظهر لم يحن بعد وأن المســـجد خال، ولم يكن به طاقة على اللبث في البيت قرر أن يذهب إلى حانوته على أن الناس كانوا قد بدءوا في إغلاق حوانيتهم في تلك الساعة ولكـــن لا يمكنه أن يذهب إلى مكان غيره، لأنه لا يوجد مكان آخر يذهب

إلـــيه إذ الـــبلاد لا تعرف محلات الجلوس العامة، كالمقاهي والمقاصف والمنـــتزهات، وإنما المكان الوحيد الذي يكاد يكون من الأماكن العامة في بلدتهـــم هو الفناء الخارج عن سور البلدة الذي لم يكونوا يجتمعون فيه إلا بعد المغرب من كل يوم، ويبقون فيه حتى موعد صلاة العشاء وهو مكان مجانـــي بطبـــيعة الحـــال يجتمعون فيه زمراً زمراً وقد يستلقى بعضهم إذا كان جليســـه ممن رفع بينهما التكلف، أو قد ينبطح أو يكوع أي يضطجع مستنداً إلى كـــوع يده يعطيه الظلام المسيطر على المكان شيئاً من الحرية في جلوسه أو اضطجاعه، وكانوا يتناقلون الأخبار، وأحياناً يتناشدون الأشعار العامية فـــيه، وكثـــيراً ما تكون الأخبار التي يتناقلونها فيه أخباراً مبالغاً فيها إلى درجـــة الخـــرافة، وقد تكون مبالغاً فيها إلى درجة التهويل وذلك يفعلونه التماســـاً للإثارة والتشويق، ولو كانت الأخبار بعيدة عن التصديق يساعد علـــى ذلك انتشار الجهل بالأمور، أو عدم إمكان التحقق من الوقائع التي تحدث خارج بلدتهم.

وقـــد اخـــتاروا مـــا بعـــد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء موعداً لاجتماعهم ذلك لأنه وقت فراغ مطلق بالنسبة إليهم، إذ يكونون قد تناولوا طعام العشاء قبل صلاة المغرب وهم يبكرون بتناوله، لأنهم يبكرون بطعام الغـــداء، إذ يتـــناولونه في وقت الضحى، ولا يعرفون في العادة أكثر من وجبتين هما وجبتا الغداء والعشاء، وإن كانوا في وقت الصيف إبان طول الـــنهار وقصر الليل قد يأكلون بعد الظهر شيئاً من التمر يسمونه الهجور، وقـــد يـــأكلون علـــى ندرة ذلك في أول الصباح شيئاً منه يسمونه (فكوك الـــريق) أي: ما نسميه نحن الآن بالإفطار، إلا أنه يختلف عن ذلك كثيراً مـــن ذلـــك كونه لا يواظب عليه، وكونه لا يكون كثيراً، بل هو من القلة بحيـــث لا يمـــنع مـــن تناول الغداء في موعده، وهو الضحى أي ما يكون في

حدود الساعة العاشرة والنصف من يوم من أيام فصل الربيع المعتدلة.

وذلك لأن وجبة الغداء الرئيسية عندهم هي التمر واللبن وإذا لم يتيسر اللبن فهو التمر والماء، ومن شبع من التمر وروي من الماء فإنه يعد من السعداء الذين يجدون ما يتغدون به، لأن بعض الناس وإن كانوا ليسوا الأكثرية، لا يجدون كفايتهم من ذلك.

وفي أواخر فصل الربيع وأوائل فصل الصيف حيث موعد حصاد القمح والشعير وتوفرهما لديهم قد يكون مع التمر في وجبة الغداء شيء من رقائق الخبز الصغير يسمونه المراضيع، وينضجونه على الصاج المحمىْ على النار.

ولم يكونوا قد اعتادوا أن يأكلوا اللحم مع وجبة الغداء مطلقاً كما أنهم لم يكونوا قد اعتادوا على أن يأكلوا التمر مع وجبة العشاء مطلقاً.

وعشاؤهم في معظمه من القمح ولهم عدة أكلات منه بعضها يجعلونه على هيئة أقراص صغيرة مدورة من العجين يضعونها في الماء الذي يغلي ثم يطبخونها ويأكلونها إذا نضجت ويسمونها (المطازيز) وهناك نوع آخر قريب منها ويسمى المرقوق وهو رقائق من العجين توضع في الماء المغلي وتؤكل إذا نضجت وهم يضعون مع الماء المغلي الذي يوضع فيه المطازيز والمرقوق بعض التوابل وما تيسر من الأدم وغالباً ما يكون ذلك شيئاً من الودك الذي هم الشحم المذاب وأحياناً من اللحم إذا تيسر.

ومن أطعمتهم التي يصنعونها من دقيق القمح الجيد القرصان وهي رقائق مدورة كبيرة ينضجونها على الصاج المحمى، ثم يرطبونها بالمرق أو بالماء المغلي المضاف إليه شيء من الدهن والقرع إذا كان الفصل

شتاء والباذنجان أو اللوبيا إذا كان ذلك في الصيف.

وعـندهم الـبر وهو نوع من أنواع القمح لا يصلح لعمل الرقائق الكبـيرة لأنه يتفتت إذا عجن، يصنعون منه الجريش، وذلك بأن يهرسوه أولاً بمهراس من الخشب بعد إضافة قليل من الماء إليه حتى إذا خلص من قشره بعد تجفيفه في الشمس جرشوه، وذلك بوضعه في رحا خشنة خفيفة ثم يطبخونه ويضيفون إليه إدامه من السمن واللحم أو الودك المذاب ومن لوازمـه إضـافة بعـض الأشـياء الحامضة إليه مثل الليمون المجفف بعد دقه وإنعامه أو بعض التمر الهندي، أو شيء من اللبن الحامض.

وهـذا الجريش هو الذي يقدم في الموائد الكبيرة ويوضع عليه لحم الإبل لأنه هو الذي يشبع الأعداد الكبيرة من الناس أكثر من أنواع اللحم الأخرى.

الفصل السابع

دفن الطفل:

ساءت حالة الطفل في الأيام التالية وأخذت تزداد سوءاً كما أخذ بكاؤه وتوجعه يضعف حتى كأنه الشكوى من ذلك العذاب الذي حملوه اياه عذاب الكي على عذاب المرض.

وفي مثل هذه الحالة وبين قوم مؤمنين بالله، ملتزمين بأوامر دينه فإن الإيمان يسعف القلوب الكسيرة عند حلول المصائب والنكبات، وبخاصة إذا انقطعت الأسباب وقل الرجاء في المخلوقين.

ومن أولئك (زيد بن مقرب المطية) وزوجته فقد عرفا من كبار السن وبخاصة من النساء اللاتي فقدن عدداً كبيراً من الأطفال بأن ابنهما (محمداً) على وشك أن يفارقهما إلى الأبد، وأن عليهما أن يستخلفا الله فيه، وأن يصبرا ويحتسبا حتى لا يحرما من أجره في الآخرة بعد أن حرما من نفعه في الدنيا، لأن الجزع وعدم الصبر يذهب أجر المصاب عند الله.

فسلما أمرهما لله ووطنا نفسيهما على المصيبة، ولكن الشيء الذي لم يستطيعا أن يتجاهلاه، بل كان يؤرق مضجعهما في الليل ويتابعهما في النهار هو إقدامهما على تعذيبه بالكي والأمر الذي ضاعف من عذابهما إنهما يعلمان أن تلك الخواطر لا تموت مع الطفل إذا مات.

وخفت صياح الطفل وبكاؤه حتى أصبح أنيناً يقطع نياط القلوب، وقد صاحب مرضه هذا شيء من الإسهال الخفيف مع عزوفه عن تناول اللبن.

وذات ساعة من الساعات الأولى من ليلة مظلمة أسلم الروح، فاستراح وأراح وبكاه والداه ولكنهما أخذا يعزي أحدهما الآخر بقوله الحمد لله اللي

ريحه من العذاب وكان كل واحد منهما يقول للآخر، (عند الله أبرك).

وقال الرجل لزوجته لقد علمني إمام المسجد دعاء يقال عند المصيبة بفقد قريب أو ولد وهو (اللهم آجرني في مصيبتي واخلف عليّ خيراً منها) وأمرها أن تردد هذا الدعاء خلفه.

وقال إن الإمام أخبره أنه جاء في الحديث أن أم سلمة قالت ذلك لما مات زوجها أبو سلمة رضي الله عنه وهو من خيار الصحابة وكانت في نفسها تقول: ومنْ خَيرٌ من أبي سلمة فعوضها الله عنه بخير منه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث تزوجها فأصبحت واحدة من أمهات المؤمنين.

ورددت زوجته هذا الدعاء بعده.

ولم يكن من عادتهم أن يؤخروا تجهيز الميت، بل كانوا يعجلونه ولو كان في ذلك مشقة عليهم وعلى هذا عليه أن ينهي تجهيز الطفل قبل صلاة الفجر من أجل أن يصلى عليه المصلون في المسجد وعددهم مثل عدد الذين يصلون الظهر والعصر فلم يكن أحد منهم يتخلف عن صلاة الفجر، والذي يريد أن يتخلف عنها لا يستطيع ذلك لأنه يلحق به التشهير والتحقير إذ من عادتهم بعد صلاة الفجر أن ينادي مؤذن المسجد وأحياناً الإمام على جميع الرجال والفتيان الذين يلزمهم حضور الصلاة بأسمائهم فرداً فرداً، وعلى كل من حضر الجماعة أن يجيب بقوله: حاضر، أو نعم، حين يسمع اسمه وذلك لكي يعرفوا من صلى معهم ممن تخلف لأن المتخلف لا يجيب إذا نودي باسمه بطبيعة الحال، فكأنهم بذلك يشهدون جماعة المسجد كلهم على تخلفه وإذا عرف ذلك عنه فإنه يترتب عليه أشياء كثيرة سيئة له منها أن القاضي لا يقبل شهادته، لأن عدم حضور الصلاة يسقط العدالة، ويقدح في شهادة الشاهد، ومنها أن من يريد أن

يعامله في بيع وشراء إذا عرف أنه لا يصلي لم يثق بمعاملته ويقول: الذي يضيع حق الله أحرى بأن يضيع حق الناس، وأما هذا معناه.

حتى عندما يريد الزواج فإن أول ما يسأل عنه أهل العروس هو مدى تدينه وتمسكه بالأوامر الدينية، وإضاعة الصلاة معناها نقص الدين ونواقص الدين له الصد والرد، لذلك يحرص المرء منهم على أداء صلاة الفجر مثل حرصه على أداء الصلوات الأخرى، بل أكثر من ذلك لأن الصلوات الأخرى لا ينادى على أسماء المتخلفين عنها حتى ولو لم يكن بعضهم متديناً يحضر الصلاة، احتساباً للأجر وامتثالاً لأمر الله فإنه يحضرها خوفاً من ألسنة الناس وحفاظاً في بعض الأحيان على كوفيته، أي غطاء الرأس الذي يسمونه (الغترة) وذلك لأن العقاب الفوري لتارك الصلاة في عرفهم أن يأخذ مؤذن المسجد أو إمامه (غترته) فينزعها من فوق رأسه وهو في السوق حتى يراه الناس حاسر الرأس، فيعرفون سبب ذلك لأن مجرد خروج المرء حاسر الرأس مما يدل على شيء في عقله، لأن العاقل لا يفعل ذلك إضافة إلى ما في ذلك من غرامة مادية مرهقة بالنسبة إليهم في ذلك الوقت.

كان (زيد بن مقرب المطية) بدافع حرصه على سرعة تجهيز الطفل حتى يصلى عليه الناس بعد صلاة الفجر لم يقر قراره فأخذ عصا معه غليظة وخرج من بيته في ظلام دامس ليس فيه أي بصيص من نور بل إن ضيق الأزقة في البلدة وتقارب جدران البيوت مما يزيدها إظلاماً، وقد يمر في بعض الأزقة تحت سقف غرفة مبنية فوق أرض الزقاق أو ممر بين بيتين متقابلين، وقد أخذ معه العصا حتى إذا صادفه كلب أو نحوه في هذا الظلام كان معه السلاح المناسب له إضافة إلى أنه ينتفع بالعصا

يتحسس بها ما يعترض طريقه من عقبات كما يفعل الأعمى لأنه في هذا الليل البهيم والظلام الدامس لا يفترق كثيراً عن الأعمى ولولا العصا لكان من المحتمل أن يقع في حفرة مما يتخلف عن أخذ الطين من الأرض للبناء أو يعثر بكومة من الحصا الملقي في الشارع أو كومة من الطين المعد للبناء، وربما يكون معه بعض اللبن الذي إذا سقط عليه المرء آذاه.

وكان مقصده بيت أحد أقاربه ليخبره بموت الطفل حتى يساعده على حمله معه ودفنه في المقبرة وليسأله عن امرأة تغسل الطفل لأنه لا يعرف شيئاً من ذلك.

طرق بيت قريبه ولم يكن في الباب مطرقة، إذ كانت قد سقطت بفعل الزمن، ولم يكلفوا أنفسهم عناء تركيبها أو تركيب بديل عنها وقد وطنوا أنفسهم على أن يستعيضوا عنها بالضرب بشدة على الباب والمناداة لمن بداخل البيت بصوت مرتفع، ولكن (زيداً) لم يعتد على ذلك لأن بيته كان فيه مطرقة، ولا هو من الناس الذين اعتادوا على رفع أصواتهم لأن رفع الصوت بالحديث أو المناداة لغير الحاجة ينافي الوقار.

وقد حاول أن يطرق الباب ولكنه في هذا الظلام لم يهتد إلى المكان الذي يضرب به أهل المنزل في العادة من الباب فضرب بيده بقوة على مكان آخر وكان الباب من جذوع النخل وقد تشعثت أجزاء منه بفعل تعاقب الرطوبة والجفاف عليه وكان المكان الذي ضرب عليه من الباب هو المكان المتشعث فأصاب كفه عدة شوكات مؤلمة لأن الفصل فصل جفاف، والرطوبة تكاد تكون معدومة في الجو، لذلك تكون الشوكة الناشئة عن تشعث الباب واقفة حادة، فآلمه ذلك وزاد في عذابه النفسي، ولم يجد صدى لضربته الأولى التي آلمته، وخاف أن يكررها فيحصل عليه ما

حصل في الضربة الأولى لذلك أخذ يضرب الباب بعصاه بعصبية وينادي بقوة، ولكن لا مجيب فقد كان أهل المنزل يغطون في نوم عميق، لأنه نوم أول الليل بعد تعب النهار الذي هو تعب جسمي كله إذ لم يكن من عادتهم أن يسهروا بعد صلاة العشاء ولا أن يناموا بعد صلاة الصبح لذلك يكونون بحاجة إلى أن يناموا الليل كله من أوله لأنهم سيقومون لصلاة الفجر مبكرين.

وحاول (زيد) أن يجد وسيلة يوقظ بها أهل البيت فزاد من ضرباته ورفع صوته أكثر ولكنه كانت صيحة في واد كما يقول المثل.

وزاد ارتباكه وزادت أحزانه وفكر في الأمر ملياً، وسأل نفسه: لماذا لا ينصرف عن هذا الباب الذي لا يستجيب لطارق؟ وقد يجد من جماعة أهل المسجد من يخرج معه إلى المقبرة ويساعده على حمل جثة الطفل ودفنها.

وجاءه الجواب من نفسه: قد يكون ذلك ولكن، ماذا تصنع بحفر القبر إذا لم تجد قبراً جاهزاً قد حفره أهل الخير احتساباً للأجر من الله؟ ثم فطَن لأمر أهم من ذلك وهو الاهتداء إلى المرأة التي ستغسل الطفل.

وزاد قلقه لهذه الخواطر، واستبدت به الحيرة والحسرة فما كان أمامه إلا أن يزيد من ضرب الباب بالعصا وأن يرفع صوته بالنداء.

ولحسن حظه سمع صوت باب يفتح ففرح بذلك وقال: الآن جاء الفرج، وقد جاءه الفرج بالفعل، إلا أنه لم يأته من الباب الذي كان يطرقه وإنما جاءه من باب آخر مجاور لذلك الباب فقد سمعه جار قريبه الذي كان لم ينم في تلك الساعة بسبب وجع كان في ضرسه فخرج إليه وسأله ما الأمر؟ ولماذا جاء في هذه الساعة التي لا يجيء فيها أحد في العادة؟

فأخبره (زيد) بحاجته، ففزع الرجل وحوقل واسترجع، وقال: والله لولا أني أنا مابي قوة بسبب هذا الضرس الذي أتعبني وأمرضني منذ مدة

حتى إنني لا أجد لأكلي لذة لذهبت معك بدلاً من (حمد) يقصد قريب زيد، ولكـــن أنا أصحيه من النوم الآن، الله يسلمك هم ما يسمعونك لأنم نائمين بالسطح العلو سطح القهوة- يريد غرفة القهوة- وبينك وبينهم حوش الدار وحوشهم مثل ما تعرف طويل وكبير، ولكن أنا الآن أروح وأنادي عليهم مع سطحنا لأنه بجنب سطحهم مثل ما تعرف.

وأسرع إلى داخل داره، وبعد قليل كان (حمد) يفتح الباب لزيد وهو فزع يفرك عينيه، ويتمايل في مشيته، كما يفعل السكران لأنه كان لا يزال فيه بقية من أثر النوم العميق.

ولـــم يحيـــي زيداً كما لم يحيه زيد، وإنما قال: (زيد عسى ما شر، وش اللي جايبك بها الساعة)؟

قـــال ذلـــك لأنه يعلم أنها ساعة لا يأتي فيها إلا إذا كان في الأمر مصيبة لا تقبل في معالجتها التعجيل.

فأجابه زيد وهو يتنهد من الحسرة والتعب بقوله: محمد مات!

فســـأله الرجل: متى كان ذلك؟ وكان سأل عنه في آخر النهار فلم يذكروا عنه ذلك:

فأجـــاب (زيـــد): إنَّ ذلك كان بعد الأخير- أي بعد صلاة العشاء، وبـــدا (حمد) وكأنه يتكلم في أمر معتاد، ذلك بأنه رجل قوي القلب، خامد العاطفـــة، وفي مثل هذه الحالة بالذات لم يتأثر تأثراً معتاداً، ولأنه سبق له أن دفن ثلاثة أطفال له: صبيين وطفلة واحدة فكان لسان حاله يقول لزيد: لتذق مثل ما ذقت، بل يكاد يقول ذلك للناس كلهم لو أمكنه ذلك.

وأخـــبره زيـــد بمـــا قدم إليه من أجله فاستعد بذلك، وقال: موعدك

المسجد في صلاة الفجر فقال زيد: (ولكن المهم القبر ما ندري حنا نحصل قبر محفور وإلا لازم نحفر).

فقال حمد: أنا مرتين يوم أدفن عيالي ما لقيت قبر محفور.

قال ذلك ولم يتكلم فيمن يحفر القبر لئلا يكلفه زيد ذلك لأنه قد جربه فوجده شاقاً مؤذياً.

وكان زيد نفسه لم يفاتحه بذلك طمعاً في أن يبدي هو نفسه استعداده للقيام به.

وبعد فترة قصيرة من الصمت قطعها زيد وهو يقول بشيء من التهيب: (ما هنا إلا أنا وإياك نتعاون على حفر القبر لأنك أنت مجرب).

ولم يَسَعْ (حمداً) إلا أن يوافق على ذلك فقال لزيد: (أنا أحضر معي فاروع ومحفر- أي مكتل- للمسجد الفجر ونروح بهن معنا للمقبرة).

فقال له زيد: ولماذا الفاروع؟ ولماذا لا تكون المسحاة؟

أجاب حمد: (لأن الأرض قوية ولا ينفع بها إلا الفاروع لأن له رأسين).

وبقي المهم في الأمر السؤال عن غاسلة للطفل فأرشده (حمد) إلى ما أراد ووصف له بيتها ولكنه قال له:

لابد أنك تطمعها لأن الليل ماهوب مثل النهار، ولابد أنها تجي مع ولدها لأنها لا تستطيع أن تسير وحدها في الليل كما تعلم.

وذهب زيد إلى بيت الغاسلة، وكان حظه عند بابها أحسن من حظه عند باب قريبه. فقد كان بيتها صغيراً وهي عجوز لا عمل لها وقد نامت في وسط النهار لذلك لم يلبث طويلاً عند الباب حتى كلمته العجوز من

الداخل دون أن تفتح له قائلة:

(من أنت؟ وشي تبي؟)

قالـــت له ذلك مع أنها قد خمنت ما جاء به إليها لأن هذا من عملها الذي عرفت به.

فأخبرها، فترددت قليلاً بقولها: الوقت ليل وولدي نايم ما أدري هو يقدر يقوم من النوم أو ما يقدر، وأنا لا أستطيع إني أجي في الليل من غير ما يصير معي.

فقـــال لهـــا: هـــذا أمر لازم يا (أم منصور) وهذه هي كنيتها لأن منصوراً هو أول ولد ذكر ولد لها، وإن كان قد مات قبل مدة.

وأضـــاف: ودنـــا نصـــلي عليه الفجر ندرك الجماعة مجتمعين في المســـجد لأنـــنا إن كـــان حنا ما صلينا عليه الفجر ما نلقى أحد بالمسجد الصبح، ولا يمكن نخليه للظهر لأن هذا ما يجوز مثل ما تعرفين.

فســـكتت ولم تجب، وكأنما كانت تنتظر الجملة التالية التي سيقولها لها فقال: احتسبي وحنا ما نقصر عنك.

وهـــنا تغـــيرت لهجـــتها في الكلام وقالت (طيب: أجي أنا وولدي أذان الأول)، أي وقـــت الأذان الأول للفجـــر وذلـــك قبل طلوع الفجر نحو الساعة، وكـــانوا قد اعتادوا على ذلك الأذان لإعلام الذين كانوا يقومون للتهجد في الليل ويصـــلون الـــنوافل، إلـــى جانب الإعلام التقريبي بأن وقت طلوع الفجر ليس بالبعـــيد لذلـــك لا يمكن أن يقال: إن ذلك الأذان يضبط الوقت لأنه يتأخر أحياناً ويـــتقدم أحـــياناً أخرى، وربما لا يرى بعضهم بأساً في ذلك ما دام ذلك كله في الليل ومن الليل ولا يترتب عليه أداء صلاة مفروضة في غير وقتها.

وقد انصرف عنها زيد وقد بقي عليه حاجتان يجب أن ينجزهما في هذا الليل أولاهما: أن يحصل على كفن للطفل من قماش أبيض جديد، وقد ذهب إلى رجل من أهل الدين والخير يبيع القماش المطلوب فكان أمره معه ميسراً إذ فتح له الباب بسهولة، ثم رضي بأن يذهب مع زيد إلى حانوته (دكانه)، لأن القماش موجود فيه.

وفرغ منه وقد بقيت عليه الأخرى وهي أن يحصل على شيء من الزعفران والطيب مما يوضع في كفن الميت ولكنه لم يجد وسيلة لذلك فتركها.

ولم ينم تلك الليلة هو وزوجته وأمه، بل لم ينم من أهل البيت إلاّ البنيات الصغيرات ما عدا خفقات من النعاس كانت تتسلل إلى عيونهم وهم لا يشعرون.

وكان أول من طرق بابهم في آخر الليل (أم منصور) الغاسلة ومعها ابنها (سعد) الذي أجلسه زيد في غرفة القهوة بينما شمرت أم منصور عن ساعديها وطلبت ماء دافئاً وسدراً مما كان نساؤهم يمشطن به رؤسهن، وكان زيد قد احضر نعشاً أي سريراً خشبياً صغيراً مما يغسل عليه الصغار من الموتى فألقت أم منصور جثة الطفل على ذلك النعش ويسمونه (مغسل) ثم أخذت تنزع عنه ملابسه وهي تقول: إنه جلد على عظم، ماذا به؟ أكان به سلال؟ أي:مرض السل، فردت أمه قائلة: (الله يجبرنا ما ندري وش اللي به، لكنه ما به سلاّل اللي به سلال يكح، كحة شديدة وهو ما به كحة شديدة).

وبعد أن غسلت الجسم الملقى على النعش بالماء والسدر لفته في كفنه وهو تلك القطعة من القماش الأبيض ثم قطعت منها خيطاً وربطت به رأسه، وآخر تحت عنقه وثالث عند كعبيه.

ثم قالت هاتوا لي عباة سوداء، فلم يجدوا ما تطلبه فقالت: إن عباة

أمـــه السوداء تكفي فلفته بها، ثم انصرفت وأخبرتهم بأنها قد انتهت الآن! وكانت قد انتهت في الواقع بأسرع مما كان متوقعاً.

وقد أطل على النسوة زيد فسألهن: أبقى شيء كثير؟ إن أذان الفجر وشيك.

فأجبن: لقد انتهى كل شيء.

وقد رجع إلى غرفة القهوة فولج المخزن الذي هو فيها ثم خرج بعد قلـــيل وبيده ريال فضي نادى أم منصور وأعطاها إياه فدعت له بالخلف، وأن يشفّع الله فرطه فيه، وأن يخلفه عليه بذرية مباركة في المستقبل.

وقـــد اســـتبطأ زيد أذان الفجر بعد أن شعر بأنه قد فرغ من عمله ولكـــنه رجع إلى نفسه يسألها: لماذا استبطأ الأذان لأن معنى ذلك أنه يريد أن يعجل بدفن جثة أبنه وحبيبه، فجعل يقول في نفسه: ما أعجب أمرك يا أبن آدم ما دمت حياً فأنت ملا سمع الدنيا وبصرها، فإذا فارقتك الحياة كان هم أحب أحبائك وأقرب أقربائك أن يسرع في دفنك والتخلص منك!

وســـمع أذان الفجـــر فـــي هذا الليل وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكـــبر، الله أكـــبر، فكأنما سمع هذه التكبيرات لأول مرة، فأخذ يرددها بخشوع خلـــف المـــؤذن: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، وكما تعطي المصائب المصـــاب قـــدراً كبـــيراً من الشفافية حتى إنه تذكر معنى كلمة الله أكبر، ربما لأول مـــرة فـــي حـــياته، فقـــال فـــي نفسه: أي والله، الله أكبر من الناس ومن المخلوقـــات ومـــن كل شيء فهو سبحانه وتعالى أكبر منا وهو لذلك أعطانا هذا الطفـــل ثـــم حرمـــنا منه، وهو قادر على أن يعطينا غيره أطفالاً كثيرين، كما أعطـــى غيرنا عاشوا لهم وصاروا قرة أعين في حياتهم ثم نفعوهم في آخرتهم عن طريق تقديم الأعمال الصالحة عنهم في الحياة الدنيا.

ثـم ورد على خاطره أن كلامه هذا اعتراف وليس طلباً وأنه ينبغي في هـذه اللحظة أن يرفع يديه إلى السماء ويدعو ربه بإخلاص أن يخلف عليه هذا الطفـل بولد يعيش ويكون قرة عين له في حياته وهنا رفع يديه، وابتهل إلى الله سـبحانه وتعالى بقلب حاضر ونفس موقنة بالإجابة، واغرورقت عيناه بالدموع وهـو يناشـد ربـه ثم ختم دعاءه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لأن ذلـك أدعـى للإجابة، وقد شعر بالاطمئنان إلى أن دعوته قد أستجيبت فارتاح خاطره وتلا الآية الكريمة: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم).

وأخـذ جـثة طفله بين يديه قاصداً بها المسجد، وتذكر وهو يمشي ذاهـباً إلـى المسجد وقد أيقن من إجابة دعوته أنه لم يسأل الله تعالى أن يخلف عليه إلا ولداً واحداً وسأل نفسه: لماذا لم يكن دعاؤه بأن الله يخلف عليه عدة أولاد بدلاً من أن يدعو الله أن يرزقه بولد واحد.

ولكنه واصل سيره حتى وصل إلى المسجد ولم يكن فيه سراج وإنما كانوا يصلون في الفناء الخارجي المكشوف من المسجد لأن الوقت صيف فوضع جثة الطفل في مقدمة المسجد وذهب إلى الصف.

وكـان المسجد خالياً من الفرش كما هي العادة عندهم. وكان الإمام قد حضـر إلـى المسجد وجلس يسبح الله تعالى ويحمده ويكبره ويهلل ويصلي علـى النبي صلى الله عليه وسلم، ويستغفر من ذنوبه، وكان يسر بذلك أحياناً ويجهر به قليلاً أحياناً أخرى، ربما كان جهره به ليذكر الذين يسمعونه بذلك حـتى يفعلـوا مثله، أو لأنه يريد ألا يظن أنه ساكت في هذا الوقت المفضل، أو لأنـه يـريد أن يذكر الله تعالى كما كان يتلو القرآن في مثل هذه الساعة بصـوت خفـيض، أو أنه يفعل ذلك لغرض آخر، ربما يكون أن يعلم الناس أنه من الذين يذكرون الله كثيراً فيزيد قدره في نفوسهم.

وبعد أن أدى زيد ركعتين من الصلاة تحية للمسجد ذهب إلى الإمام وأخبره بأنه سيصلي على الفرط، أي الطفل الميت قال ذلك له لكي يخبر جماعة أهل المسجد بعد الصلاة حتى لا ينصرف أحد منهم لأن بعضهم لا يعرفون بوجود الميت بسبب الظلام.

وبعد صلاة الفجر نهض (زيد المطية) وأخذ طفله بين يديه ووضعه قبالة الإمام ووقف بجانبه، ولم يقف معهما أحد. أما بقية المصلين فقد صفوا كما يصنعون خلال تأدية الصلاة.

صلى الإمام صلاة الجنازة على هذا الطفل الصغير أربع تكبيرات يفصل بين كل تكبيرة وأخرى دعاء أو تلاوة للقرآن فبعد التكبيرة الأولى قراءة الفاتحة وبعد الثانية الصلاة على النبي وآله وبعد الثالثة دعاء بأن يشفع الطفل في والديه يوم القيامة حيث يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهما ذنوبهما وأن يجعله الله في ميزان حسناتهما يوم القيامة حتى تثقل به موازينهما، وبعد الرابعة سكتة، مدتها نحو دقيقتين ثم تسليمة واحدة على جهة اليمين هي نهاية صلاة الجنازة.

الدفن:

إن عدد الذين يخرجون في جنازة الميت يدل على ما يكون له من مكانة في نفوس الناس، فحيث شيع الجنازة عدد كبير منهم يعرف الناس أن الجنازة أو ذويها من أصحاب القدر الكبير في النفوس والعكس هو الصحيح إلا إذا كانوا لم يعلموا بالجنازة وهم في أكثر الأحيان يعلمون بموت الرجل قبل دفنه لقلة السكان في بلدانهم من ناحية ولأن أهل الميت يخبرون الناس في مساجدهم قبل موعد الصلاة عليه في المسجد الجامع الذي يكون هو المسجد الوحيد في البلدة الذي تقام فيه صلاة الجمعة. وذلك أمر مطلوب للميت وهو أنه كلما كثر المصلون عليه ومع الصلاة على

الجنازة، الدعاء للميت فإن ذلك أفضل له، وأقرب للإجابة لأنه ربما لا يخلو المصلون من رجل مستجاب الدعوة أو ممن لا يأكلون الأمن مأكل حلال فيكون دعاؤهم لهذا السبب حرياً بالإجابة.

وإذا قسنا الذين خرجوا مع زيد بن مقرب المطية إلى المقبرة بالقياس المذكور فإننا نجده متوسط القدر عند الناس إذ لم يخرج معه إلا عدد محدود أكثرهم يخرج احتساباً أو قياماً بحق الجوار، ولكنه لا يشارك في العمل الشاق المتعلق بحفر القبر أو خلط الطين الذي يربط به اللبن الذي يوضع فوق لحد الميت على أن هذا ليس بالمقياس الدقيق لأن جنازة الطفل غير جنازة الرجل فاحتفالهم بها أقل لكون الطفل لا ذنوب عليه، ولا هو بحاجة إلى الدعاء له بالمغفرة كحاجة الرجل.

وقد اخذ السائرون في ركاب الجنازة يتناوبون حملها بين أيديهم وذلك لأنهم يسيرون على أقدامهم والمقبرة ليست قريبة فتركها بين يدي شخص واحد يتعبه ويشق عليه إضافة إلى أنهم يفعلون ذلك حتى يكون لهم نصيب في الأجر.

وقد شارك كل واحد منهم في حملها مرة أو أكثر من مرة ما عدا (حمداً) قريب زيد لأنه كان يحمل الفاروع الذي هو فأس ذو رأسين والمحفر الذي هو المكتل أو الزبيل الصغير من الخوص.

وساروا في أزقة البلدة الترابية تثير نعالهم خلفهم بل وفوق رؤوسهم سحابة من الغبار ولم يبالوا به لاعتيادهم عليه من جهة ولأنهم يعلمون أن أمامهم من غبار أرض المقبرة ما سوف ينسيهم ذلك الغبار.

حتى وصلوا المقبرة وهي أرض طينية خالية من كل بناء قد شغلتْ القبور فيها حيزاً يقارب نصفها، وبقى النصف الآخر خالياً ينتظر الوافدين وقد تبرع أحد أهل الخير بهذه الأرض ووقفها لهذا الغرض التماساً للأجر من الله تعالى.

وأنــزلوا الطفــل من أيديهم في مكان قريب من مدافن الأطفال إذ اعتادوا أن يدفنوا الأطفال على حدة والكبار على حدة، ربما لكيلا يجعلوا الأطفال يتألمون في قبورهم إذا كانوا بجوار أحد مرتكبي الخطايا في الدنيا من الكبار، حين يعذبون بها في القبور هكذا سمع زيد مرة هذا التعليل.

بــدأ حمــد وزيــد وشخص آخر يتعاونون على حفر القبر، وكانت الأرض طينية صلبة لأن الوقت وقت الصيف الجاف وكان أكثر ما يؤذي في الحفر هو الغبار الدقيق المتصاعد وقد أخذوا قياس الجثة بعود قصموه من أثلة في ركن المقبرة ثم أخذوا يحفرون حتى وصلوا إلى عمق يقارب ثلاثة أرباع المتر، وقد حفروه مستطيلاً استطالة الجنازة وجعلوا طوله إلى جهة الشمال والجنوب حتى توضع الجنازة فيه مستقبلة القبلة.

ثم حفروا في الركن منه لحداً وهو حفر آخر في القبر يكون داخلاً إلى جهة القبلة أكثر.

ثــم وضعوا جثة الطفل في القبر في ذلك اللحد، ووضعوا فوقه عدداً من اللبــن الصغيرة التي كان بعض الأشخاص الذين يبتغون الأجر والثواب من الله تعــالى قــد ضربوها من الطين، ووضعوها على الأرض حتى جفت، ثم ربطوا ما بين اللبن بطين أحضروا ماءه من بئر محفورة في المقبرة لهذا الغرض.

وبعــد ذلــك أخــذوا يهيلون عليه التراب الذي كانوا قد أخذوه من الحفرة وقد امتلأت الجفرة بالتراب وبقيت منه بقية جعلوها في القبر على شكل سنام البعير ووضعوا لبنتين صغيرتين إحداهما عند الرأس والأخرى عند الرِّجل ثم رشوا القبر كله بالماء بعد أن غسلوا فوقه أيديهم، وقبل أن يغســلوا أيديهم أخذوا يضربون الواحدة بالأخرى وينفضون ذيول ملابسهم حتى يبعدوا عنها الغبار العالق بها.

ثم وقف (زيد) عند القبر وأقبل الناس يعزونه يشدّون على يده ويواسونه ويدعون له إلا من كان قريباً منه، أو صديقاً حميماً له فإنه يقبله ويواسيه.

ورجع (زيد) من المقبرة وحيداً إذا انتهز أكثر الذين كانوا معه فرصة وجودهم في المقبرة فذهبوا يزورون قبور أقاربهم وأصدقائهم يسلمون عليهم كما يسلم الحي على الحي إلا أنهم لا ينتظرون منهم الإجابة، ومنهم إمام المسجد الذي وقف فوق قبر والده وقال: السلام عليك يا أبت ورحمة الله وبركاته، اللهم أفسح له في قبره ونور له فيه، أنتم سلف ونحن لكم من اللاحقين، اللهم أغفر لنا ولهم أجمعين.

وكان أول ما فعله زيد عندما وصل إلى داره أن ذهب إلى زوجته وصافحها معزياً ولكنه لم يستطع أن يقبلها كما يفعل العزيز عندما يعزي عزيزاً لديه، لأن أمه كانت موجودة معهما، ولا يجوز في عرفهم أن يقبل الرجل زوجته بحضور أحد حتى أبنائه وبناته.

وكان من المؤلم لنفس الزوجين أن البنيات الصغيرات عندما أصبحن ووجدن فراش أخيهن محمد خالياً تساءلن: وين محمد وين محمد؟ وكان سؤالاً مؤلماً مع أن جوابه حاضر في ذهن الوالدين معروف لديهما إذ قالا بدون تردد: (راح إلى ربه).

وكان هذا جواباً مقنعاً في البيئة الدينية فكل شيء من الله سبحانه وتعالى، وإليه كل شيء يعود.

ولكن كبرى البنيات سألت: ربه بأي مكان؟

فأجاب الوالدان: إنه في السماء، فسكتت.

وهذا جواب مفهوم أيضاً لأن السماء معلومة مجهولة فهي ترى ولكن لا يعرف من فيها ولا ما فيها إلا بطريق الغيب.

الفصل الثامن

انتظار الولد:

عندما دفن (زيد بن مقرب المطية) ولده (محمداً) كان في بيته ثلاث بنـيات جمـيلات يتمتعـن بصـحة جيدة، وبوجوه تسر الناظرين، فهن كالزهرات التي لم تتفح بعد منظرها يبعث السرور ويجلب الأمل للنفوس وكـان حديثهـن وضـحكاتهن تكاد تفعل في النفس الشاعرة فعل زقزقة العصافير وغناء البلابل.

إلا أن والديهـن رغم ما يكنان لهن من محبة وعطف، وما يضفيان عليهـن مـن رعايـة وحنان لا يشعران بالغبطة والسرور حين يريانهن مجتمعات في مكان يلعبن أو يضحكن أو يتشاجرن مشاجرة الأطفال التي هي أقصر من غمام الصيف الذي لا يعمر إلا وقتاً قصيراً ثم ينقشع.

فقد كان الوالدان يعلمان أن وجود عدد من البنات دون ولد ذكر في بيت معناه أن هذا البيت منكوب.

وكـان زيد يفكر في هذا الأمر أكثر مما تفكر فيه زوجته، ولقد ذهب به التفكـير إلـى حد أن تخيل أنه حصل له مكروه، وأن بناته قد كبرن فمن الذين يرعاهـن ويكفـل لهـن السـتر والصيانة والكفاية من العيش حتى يرزقن بمن يتزوجهن؟ وإذا تزوجن هل يكفل أزواجهن لهن السعادة والستر؟

ومـاذا يحـدث لهن إذا كان الزوج سيء العشرة، حاد المزاج، لا يخاف الله في زوجته، ولا يعطيها حقها؟

بل ماذا يحدث للواحدة منهن إذا طلقها زوجها، أو مات عنها ومعها عدد من الأطفال فإلى أين تذهب مع أطفالها؟

إن الأمـــر الطبيعي أن تذهب إلى بيت والدها ولكن الوالد لن يلبث طويلاً رجلاً قوياً قادراً على أن يكفل لها ولأولادها الذين قد يكونْ بعضهم مـــن الإناث الرعاية والصيانة لأنه إما أن يموت قبل بلوغ سن الشيخوخة والهـــرم كمـــا تخيل زيد ذلك، وأما أن يشيخ فيصبح هو نفسه بحاجة إلى الرعاية والعناية.

وإنمـــا الأمر الطبيعي أن يكون للبنات أخ أو أخوة يساعدون أباهم على رعايتهن في حياته ويخلفونه على ذلك بعد مماته.

إلا أن بناته الثلاث ليس لهن أخ حتى الآن وعندما وصل تفكيره إلى هـــذه النقطة انقبض صدره وتكدر خاطره بل اسودت الدنيا في عينيه. إلا أن إيمانه بالله تعالى سارع إليه هذه المرة وأوحى إليه بأنه كان قد دعا الله سبحانه وتعالى بأن لا يحرمه من ولد ذكر يعيش له كما عاش أبناء الناس لأهلهم وأنه شعر بأن الله تعالى قد استجاب دعاءه.

فكان هذا مانعاً ليأسه باعثاً على طمأنينة نفسه، ثم أوحى إليه إيمانه بـــأن تفكيره المتشائم هذا هو من عمل الشيطان الذي يوسوس للناس بأن ييأسوا من رحمة الله وإلا فما معنى أن يفترض أنه سيموت مبكراً وأنه لن يـــرزق بولـــد ذكـــر يكون ملجأ لبناته؟بل لماذا يفترض أن بناته أو بعضهن لن يكون التوفيق في الزواج من نصيبهن؟ ولماذا يفترض أن يكن مثل أمهن (موضـــى) فيرزقهن بزوج مثله يكفل لزوجته العناية والصيانة، بل وشعر أنه لا يمكنه أن يستغني عنها بحال من الأحوال؟

وعـــندما وصـــل إلـــى هذه النقطة اتسع صدره، واطمأن خاطره، واتســـعت الدنـــيا في عينيه فأطلق زفرة طويلة وهو يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، فكان بذلك كأنما طرد

وساوس الشيطان من صدره، وكأن هذه الكلمات المباركة قد نزعت سدادة من صدره كانت تسد منافذ النفس إليه.

سارت به الأيام رتيبة رتابة قد يصح أن يقول عنها أهل هذا الزمان: إنها رتابة مملة ولكنهم في ذلك الزمن إذا سارت الأيام رتيبة بدون أن تحصل فيها كارثة طبيعية من جدب أو جراد أو مرض أو ريح عاصف أو كارثة بشرية من غزو أو قتل أو وباء أو اختلال للأمن فإنها تعد رتابة محمودة.

وبعد مرور أكثر من السنة على وفاة ابنه محمد أحست (موضى) زوجته بالحمل فزفت إليه البشرى فسر بذلك واستبشر استبشاراً عظيماً وشعر بأن دعاءه الذي آمن إيماناً راسخاً بأنه أستجيب قد قرب أوان تحقيقه وقال في نفسه: هذه هي المرحلة الأولى من مراحل استجابة الدعاء، ومن حرصه على ذلك وإشفاقه من تأخر الإجابة لم يطرأ على باله أن الدعاء وإن كان قد استجيب فإن موعد استجابته هو من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولم يدر بخلده أنه ربما كان الحمل بالولد بعد هذا الحمل، أو بعد الذي بعده.

وقد أخبر (زيد المطية) زوجته (موضى) بما اعتقده من أنه سيرزق بولد ذكر فسرها ذلك ولكنها لم توقن يقيناً كاملاً بأن حملها سيكون ولداً ذكراً كما اعتقد زوجها، بل كانت توجس في نفسها خيفة من أن يسفر الحمل عن أنثى فيزيد عدد البنات في بيتها.

الفصل التاسع

الحادث المؤلم:

مضـــت الأشهر الثلاثة الأولى في الحمل مفعمة بالأمل والرجاء بل والاستبشار من الزوج ومملؤة بالخوف والتوقع من الزوجة.

حـــتى وقع حادث كدرهما معاً ذلك بأن (موضى) بينما كانت تنقل حـــزمة مـــن جذوع الحطب من الأشجار البرية كانوا قد ادخروها لفصل الشـــتاء اتقاء للبرد، إذ وقعت خشية كبيرة منها على بطنها فقفزت لتتفادى أن يصـــيب بطـــنها ولكنها تعثرت بباقي الخشب المبعثر فأصابتها الخشبة وأسقطها التعثر على خشبات أخرى سقوطاً غير متوازن فألم ذلك جسمها كلـــه، وكاد يغمى عليها ولم يكن ذلك على إيلامه ما خشيته وفزعت من أجله، ولكن كان أخشى ما خشيته أن يصيب جنينها سوء من تلك الضربة والســـقطة، وقد كادت تتحقق من ذلك إذ أحست بالموضع الذي يكون فيه الجنين مـــن بطـــنها بألم شديد أعقبه نزيف دموي، وكانت بحاجة إلى كل قطرة دم في جســـمها إذ كـــان الحمـــل وقبله الحزن وقبل ذلك تكرر الحمل قد أضعف من جســـمها. فشعرت بضعف في بدنها من جراء النزيف وساعد على ذلك خشيتها على جنينها من أن يصيبه الضرر فأصبحت في حالة نفسية سيئة.

ولم يكن النزيف الدموي معها شديداً ولكنه كان يكاد يكون مستمراً، وحيث لم يكن يوجد أطباء أو طبيبات في بلدتهم في ذلك الوقت فإنها لجأت إلـــى تجارب النساء اللاتي أصبن بمثل ما أصيبت، أو حتى اللاتي سمعن عمـــن أصـــبن بمثل ذلك مع أن عدد النسوة اللاتي أصابهن مثل ذلك بعد تكرر الحمل كان كثيراً.

فبعض النسوة وصفت لها أن تسف الرشاد وبعضهن وصفن لها أن تأكل الحلبة، وعجوز أخرى متدينة مشهورة بصواب الرأي وحسن التقدير وصـــفت لهـــا وصفة أخذت بها ووجدت لها أثراً حسناً على صحتها تلك الوصـــفة أن يصنع لها طعام خاص لمدة أسبوعين يكون من القمح الجيد خاصة معه لحم الضأن السمين ومعه الحلبة وحب الرشاد والحبة السوداء.

وكـــان هـــذا الـــدواء بمثابة الدواء والغذاء فتحسنت صحتها بسببه وعـــندما انقضت المدة المقررة أخبرت (موضى) العجوز التي وصفته لها بذلك، فقالت لها: إنها يمكنها أن تكرر أخذه لمدة أسبوعين آخرين غير أن زوجها حين أخبرته بذلك قال: لو كانت العجوز هي التي تشتري اللحم لما نصـــحت بالاســـتمرار عليه فعرفت الزوجة أن زوجها ليس مرتاحاً إلى تحمل ثمن اللحم فسألت العجوز: ألا يوجد شيء يقوم مقام اللحم؟

فأجابت: بلى، إنه السمن سمن الغنم الجديد العرابي أي: الأعرابي.

فطلبـــت مـــن زوجهـــا ألا يشتري اللحم لها لأن السمن يكفي وهو موجود عندهم في البيت.

ورغم تحسن صحتها فإن نوبات من النزيف الخفيف كانت تعاودها فتقلق بالها لا على نفسها فليست من الخطورة بمثل تلك الدرجة ولكن على جنيـــنها وبعـــد شهرين أو يزيدان قليلاً أنقطع عنها النزيف وشعرت بأن الجنين في أحشائها بدأ ينمو نمواً طبيعياً.

وكـــان تســـمي الجنين الحمل لأنها لا تشارك زوجها الاعتقاد الذي يكـــاد يكـــون جازماً عنده بأنه ولد ذكر، أما زوجها فكان إذا تحدث عنه يسميه "الولد" إيماناً منه بأنه كذلك.

وذات مـــرة كان زوجها عائداً من دكانه متأخراً قبل صلاة المغرب وليس من عادته أن يفعل ذلك وإنما كانت عادته أن يعود إلى بيته وقد بقى مـــن عمر النهار بقية يستطيع أن يتناول فيها عشاءه قبل ذهابه إلى صلاة المغـــرب، لذلـــك طـــرق الباب طرقاً شديداً في هذا اليوم طلباً للمزيد من الوقت وكانت في موضع من البيت على حالة لا تستطيع أن تفتح الباب له بمجرد سماع الطرق كما كانت تفعل قبل ذلك.

فأســـرعت بإنهاء ما شغلها ثم ذهبت تعدو لتفتح له وهي تقول: سم، سم، أي: سمعاً، سمعاً.

ولارتـــباكها وعجلتها لم تفطن إلى منحاز أي: مدق من الخشب أو قل مهـــراس مـــن خشـــب الأثـــل كان ملقي في الأرض فضربت طرفه برجلها فـــتدحرج أمامهـــا فلـــم تســـتطع تفادي الاصطدام به فعثرت وسقطت على الأرض، و طبيعـــي أن الســـاقط علـــى الأرض يقـــدم يديه أمامه بطريقة لا شـــعورية حتى يتفادى السقوط الضار على بقية جسمه، وقد فعلت (موضى) ذلـــك إلا أن يديهـــا ســـقطتا أمام المنحاز وسقط بطنها عليه فصدمها صدمة آلمـــتها ألمـــا شـــديداً ، ولكـــنها وهي الزوجة المحبة الوفية نهضت بسرعة مـــتحاملة علـــى نفســـها وفتحـــت الـــباب لزوجها، وكان قد أعد على لسانه مجموعـــة من كلمات العتاب والتأنيب يريد أن يلقي بها إلى زوجته لتأخرها في فتح الباب له غير أنه ما أن رآها ورأى مظهرها السيئ وقد علت وجهها صـــفرة باهتة، وهي مبهورة الأنفاس خائرة القوى حتى ارتاع لذلك وقال لها بدلاً مما سيقوله من عتاب وتأنيب بلهجة فيها الكثير من العطف والشفقة:

(وش اللي فيك؟ عسى ما شر؟ عسى ماهيب حدى البنات أو أمي جايهن شـــيء؟)، وفـــي أثناء كلامه كانت قد خارت قواها وجلست إلى الأرض

فانحنى عليها وأمسك بها يساعدها على أن تظل جالسة.

ولـــم تستطع إجابته برهة من الوقت لأنها كانت تجاهد في أن تلتقط أنفاســـها ولكنها لم تقو على ذلك، فمال جسمها إلى الأرض رغماً عنها إذ كانت تعاني من إغماء فأسرع زوجها يساعدها ليقي جسمها من الارتطام علـــى الأرض، ونهـــض وهي ملقاة على الأرض ليحضر قليلاً من الماء يـــرش به وجهها فاعترضته بنته الوسطى هاشة باشة فاتحة ذراعيها تريد مـــنه أن يأخذها بين ذراعيه ويقبلها كما كان يفعل إذا عاد من (دكانه) في الأيـــام العادية، و لكنه صد عنها معرضاً فتعلقت بثيابه فنزعها منها بقوة وهو يقول: أمك، أمك.

وســـمعته البنـــت الكبرى فأقبلت تسعى إليه فقال لها: أمك، هاتي ماء ولكـــنها ارتاعـــت وارتبكت فلم تدر ماذا تفعل، بل أسرعت تبحث عن أمها فـــرأتها ملقاة على الأرض عند المدخل الخارجي لفناء البيت، فأخذت تنادي أمهـــا وتناجـــيها، ولما لم ترد عليها النداء أخذت ترفع صوتها وتلمسها بيدها ولـــم تكن تعرف الإغماء، أو شيئاً من هذا القبيل، وإنما كانت قد سمعت عن المـــوت ورأت مرة قطة ميتة والأطفال يقلبونها وهي لا تتحرك ولا تمنعهم مـــن ذلك كما كانت تفعل وهي حية، فكان بعضهم يقول لبعض ليجرئه على الاقتراب من القطة: إنها ميتة، لا تخف واقترب منها، إن الميت لا يتحرك.

وتـــبادر إلى ذهنها أن أمها كتلك القطة ميتة لأنها لا تتحرك وقد قال لها الأطفـــال: إن الميت لا يعود حياً أبداً فعندما طاف بذهنها ذلك صرخت صرخة فـــزع جعلـــت كل من في الدار يسمعها ويسرع إلى مصدرها ثم أخذ صراخها يـــزداد وهـــي تقـــول: أمي، أمي ماتت، أمي ميتة، وتبكي بحرقة، بل وجنون، ممـــا جعـــل أخواتهـــا الصـــغيرات يصيبهن الفزع فيشاركنها الصراخ والعويل

وكـــان الأب قـــد أحضر الماء من قربةٍ باردة معدة للشرب، كما كانت الجدة قد وصـــلت إلى مكان الزوجة الممدة على الأرض، فأسرع الزوج يرش،من الماء الـــبارد على وجهها وصدرها وأطرافها، والعجوز تحاول تهدئة الصغار وتقول للبنت الكبرى: إنها لم تمت، إنها نائمة، نائمة وتصحى بعد شوي.

وبـــالفعل كـــان حظ الجميع حسناً، إذ أنعشها الماء البارد فاختلجت أجفانها، و حركت إحدى يديها، ثم قالت بصوت ضعيف جداً.

(وين أنا به يا ربي، يا ربي، آهـــ!!!).

ثـــم اسدلت جفونها ثانية وكأنما كانت تريد أن تقوم بإغفاءة إرادية، فرش زوجها مرة ثانية من الماء عليها كما فعل في المرة الأولى. وأخذت حماتها تقرأ عليها كلمات حفظتها يرقى بها، منها (أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق) (أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق).

ثم قالت الحماة لابنها: اقر عليها سورة الفاتحة والمعوذتين، وقرأهما بقلـــب حاضرٍ ونية صادقة وكان يقرأ وينفث بعد كل آية، أو جزء من آية على صدرها ورأسها ففتحت عينها ورأت أهل بيتها كلهم بجانبها وبخاصة ابنتها الصغيرة التي اقتربت منها وكادت تلقي بنفسها على صدرها لولا أن والدها كان يبعد الجميع عنها، لئلا يؤذيها ذلك.

وقـــد حســـنت حالها الآن، ومدت يدها إلى ابنتها الصغيرة تضعها عليها. أما البنتان الأخريان فقد نظرت إليهما وهما تبكيان وقالت:

لا تصيحون يا بنياتي أنا طيبة، بس تعبت.

وقال لها زوجها: أتريدين أن تذهبي إلى داخل البيت؟

فقالت: بعدين، خلني ارتاح شوي.

وبعـــد أن استعادت أنفاسها الشاردة التي كانت تحاول لم شتاتها قبل ذلك فلم تستطع قصت على زوجها وحماتها قصة عثورها بالمنحاز بسبب حرصها على عدم التأخر عن فتح الباب لزوجها.

فواسياها قائلين: (الحمد لله اللي ماهوب أكبر).

فقالت: أنا خوفي على الحمل أنا طحت على بطني على المنجاز!

فوجـــم زيد المطية واعتراه غم عظيم لأنه تخيل أن ولده الذكر الذي كان قـــد تيقـــن يقيناً صادقاً من قرب قدومه قد أصيب بسوء للمرة الثانية، وقد خاف فـــي هذه المرة كما خاف في المرة الأولى أن يصيب الجنين مكروه فيسقط ميتاً قـــبل أوان الوضـــع، ولكنه لم يستطع أن يواجه زوجته بذلك لأنه يحبها بالفعل ويخشى عليها المتاعب والمصاعب ولئلا يزيد حالتها سوءاً فقال:

(الولـــد ما يهمنا، أنت يا أم محمد ما دام أنت بخير حنا كلنا بخير) وتمـــنى لو كانا خاليين حتى يقبلها قبلة ترفع من روحها المعنوية وتكون تعبيراً عن عطفه وحنانه عليها.

لاسيما إذا عرفنا أن تقبيل الرجل لزوجته في ذلك العهد كان طبيعياً إذا كانـــا خاليـــن وكانـــا شابين، أو حديثي عهد بزواج، أما بعد أن يأتي الأولاد ويتكرر الحمل ويفعل بالمرأة فعله من صحتها ونضارتها، فإن عدد القـــبلات يقـــل، بل ربما يعدم إلاّ في المناسبات القليلة مثل يوم العيد الذي قالوا فيه (حبة العيد ما بها منّة)!

وإذ لـــم يستطع زيد المطية أن يقبل زوجته أمام أمه وبناته فإنه أخذ بيدها كأنه يجسها يتحسس حرارتها، ثم نقل يده من فوق كفها إلى ذراعها

حتى كاد أن يستكمل مس ذراعها كله، وكان يضغط على ذراعها بطريقة خاصة كانت تعرفها عنه عندما كانا حديثي عهد بعرس فوجدت لذلك برداً علـــى فؤادهـــا، ونشوة غمرتها، وذلك من أجل هذه اللمسة الحانية نفسها ومـــن أجل أنها استعادت منها أيام علاقتهما الأولى بعد الزواج عندما كانا خليبـــن مرحيـــن لم يعرفا الأولاد ولا مشكلاتهم، التي تتراوح بين الفرح الشديد بهم، والحزن الشديد لما يصيبهم، بل إنها قالت في نفسها: ما أحسن أن يفعل الإنسان في كبره أحياناً ما كان يفعله في شبابه!

قالـــت ذلك مع أنها في حساب السنين ليست كبيرة السن فهي في حـــدود الثلاثيـــن غير أن تتابع الحمل، وأحزانها على ولدها محمد وعدم معـــرفة مـــا ينبغـــي أن يقدم للحامل من أغذية تساعدها على تحمل وطأة الحمـــل و تعوض الجسم عما يقدمه للجنين من غذاء يأخذه من أمه جعلها تبدو وكأنها قد تجاوزت الأربعين.

لاسيما إذا تذكرت (موضى) أن حملها هذا هو الحمل السادس وأنها أم لثلاث من البنات.

ولـــم يفزعها ذلك، لأنها قد وطنت نفسها عليه والتقدم في السن أمر طبيعي، وإنمـــا الـــذي أفزعها عندما تذكرته أنها تعرف من العادة في مجتمعها أن المرأة إذا تكـــرر حملهـــا، وضـــعفت صـــحتها وذهـــب رونق وجهها، فإن ذلك يكون مبرراً لزوجها كي يتزوج عليها امرأة أخرى حتى ولو لم تكن كبيرة في السن.

وسألت نفسها في سرها: ماذا لو فعل بها ذلك زيد وهي التي أحبته وأخلصـــت له وخدمـــته بكل ما كانت تستطيع، بل إنها كانت تطيعه إلى درجـــة أن الغـــت شخصيتها فصارت تابعة لشخصيته، حتى في الأمور المالـــية كانـــت تعرف أن بعض جاراتها وقريباتها يحملن أزواجهن حملاً

علـــى شــراء حلية لهن، أو ثوب إضافي فاخر لمناسبة ولادة مولود ذكر أو في عيد من الأعياد، أما هي فلم تفعل شيئاً من ذلك لا لأنها لا تحب ما يحب أمــثالها من النساء، وإنما لأنها تخشى أن يتكدر خاطر زوجها من طلبها، مـــع أن الـــذي تعرف عن حالته المالية أنها حسنة، وأنها أحسن من حال كثـــير من الأزواج الذين اشتروا لزوجاتهم ما أفرحهن، إلا أنها استدركت في تفكيرها قائلة لنفسها:

أنـــا هذا ظني إنه ما قاصر عليه دراهم وإلا أنا ما أعرف وش هو علـــيه، الناس يقولون إنه غني، وأنا ما أدري، الرجال ما يعلمون حريمهم عن دراهمهم.

والغريـــب أنهـــا كانـــت تفكر في هذا الأمر بينما كانت تحس الألم والضـــعف الشديد، ولكن هكذا شأن العواطف قد يحس الإنسان بقوتها من حيث لا يظن.

وكانـــت حماتهـــا في تلك الأثناء قد أعدت فراشاً في الداخل لأن الوقت كـــان فـــي أول الربـــيع، وكان الجو بارداً في تلك الأمسية، وقد أعانتها البنت الكبيرة بما استطاعت وهو إحضار وسادتها، وإعدادها فوق الفراش.

ثم ذهبا جميعاً إلى حيث كانت (موضي)، وقالت الأم بصفة الجزم: يـــا الله يـــا موضي، تريحي بالفراش. ثم طلبت من ولدها زيد أن يساعد زوجته على الذهاب إلى هناك.

فصـــدع بالأمر وأخذ بعضد زوجته التي كان قد طرأ تحسن ظاهر علـــى حالتها، فذهبت تجر رجليها، وكان احتضان زوجها، وقرب جسدها من جسده مما بعث فيها بعض الحرارة والقوة حتى تمددت على الفراش. أحست بعد ذلك بنزيف أعادها إلى سيرتها الأولى المرضية.

الفصل العاشر

حادث للزوج:

كـــان الفصل فصل الربيع وكان أولى المتاعب الخاصة التي لحقت بزيد في هذا الفصل هذا الذي حلّ بزوجته، وربما كانت المتاعب الأخرى التي حلت به وإن كانت تبدو صغيرة كانت من أثر الحادث الأول.

فقـــد خـــرج بعـــد حـــادث سقوط زوجته الأخير بنحو أسبوعين من بيته قاصـــداً (دكانه) وقد خرج وامرأته في حالة سيئة من النزيف مما جعل مخاوفه تـــزداد على حالة ولده الذي لم ير النور فكان يسير ساهماً سارح الفكر في هذا الأمـــر وفـــي أمـــور أخر من أمور دنياه إلى درجة أن استغرق في التفكير فلم ينتبه إلى قول أحد الجمالين الذي كان يسير خلف بعيره المحمل بالحطب.

(بالك، بالك).

وكـــان الجمـــال يرددها بطريقة تلقائية حتى إنه في بعض الأحيان يكرر هـــذا الـــتحذير (بـــالك بـــالك)، أي: إحذر يا من سيمر به حمل الحطب من أن يؤذيـــك حـــتى ولو لم يكن هناك أحد، وكان مرة أخرى يرددها بصوت مرتفع ولكـــنه بـــدون إرادة قـــد يخفض صوته قائلاً: (بالك، بالك، بالك) بطريقة رتيبة ربمـــا لا تثير الانتباه لرتابتها، حتى لو كان هناك من يجب أن ينبهه تنبيهاً قوياً خاصـــاً للابـــتعاد عن طريق الجمل الذي يحمل الحطب كما في هذه المرة التي كان سوء حظ (زيد بن مقرب المطية) قد ساقه إليها.

إذ لـــم يشـــعر زيـــد إلا بلكزات من الحطب تقع مجتمعة على أماكن مـــتعددة من قفا جسمه بعضها على رأسه وبعضها في عنقه وبعضها أصاب كـــتفه حـــتى ظهره لم يسلم منها إذ كان حمل الحطب نازلاً إلى مسافة غير

بعـــيدة من الأرض على أمل أن يغري هذا الصنيع المشترين بتفضيل شراء حمـــل هذا الجمل على غيره، وأن يقوم الجمال بإنزاله والبعير واقف دون أن يـــبرك، وكـــان البعير مسرعاً في السير لأن الجمال خلفه يلكزه في مؤخرته بعصا غليظة وهو ينادي نداءه المعتاد الذي يشبه كلام الببغاء: بالك، بالك.

فـــأدى ذلك بزيد إلى أن يسقط بقوة على وجهه، ولسوء حظه أيضاً كـــان فـــي الزقاق بعض الحصا الملقى على الأرض منذ مدة طويلة، مما جعلـــه قـــذراً حـــتى إن بعض الصبية الذين أهملهم أهلوهم كانوا يقضون حاجـــتهم علـــيه كما سبق أن شاهدهم زيد مرة أو مرتين قبل ذلك، فوقع وجهـــه على إحدى الحصا فصادف حد الحصاة طرف جبينه الواقع فوق عينـــيه، ممـــا جعله يشعر حال انتباهه إلى نفسه بأن شيئاً يشبه أن يكون خرقة حمراء قد غطى عينه اليمنى فأسرع ليزيحه عن عينه فإذا به يحس بشيء لزج يمسك بأصابعه فأسرع ينظر إليه بعينه الأخرى فإذا به دم، ولم يعجب لذلك لأن السقطة على الحصاة كانت سريعة حادة، ولكنه عجب من كونه لم يحس بالألم الشديد الذي كان يصاحب مثل هذا الجرح في العادة، ولم يدر أن ذلك كان بسبب الآلام الشديدة التي سبقت حصول الجرح والتي كانـــت قد نشأت من لكزات الحطب، وكان مما زاد في ألمه وغضبه أن الجمالَ بدلاً من أن يعتذر إليه، أو على الأقل يواسيه جعل يسبه ويقول له: أأنت أصم؟ لماذا لم تسمع التنبيه؟ أأنت أعمى؟ لماذا لم تر البعير وحمله؟ ونفـــس زيد عن غيظه بدعوتين أو ثلاث على ذلك الجمال بالعقاب، وعدم التوفيق، مع أن مجرد كونه جمالاً يكفي عن ذلك.

ولـــم يكـــن أمامه إلا أن يسرع بالعودة إلى البيت ليضمد جراحه، وليســـتريح من تعبه فكان يسير والدم يسيل من جرحه، فلما وصل الباب

كان الدم قد كسا جانباً من وجهه ولطخ بعض كوفيته (غترته) فطرق الباب بشدة ففتحت له ابنته الكبرى، فلما رأته ارتاعت لمنظره فقال: لاَ تخافي يا بنتي نادي أمك خليها تجيء، عجلي!

وأقبلـــت أمها (موضي) وكان ارتياعها شديداً حتى إنها نسيت نفسها وما بها من مرض وأخذت تسرع في الحركة وهي لا تدري ما تصنع من الارتباك، وتلقي بأسئلة لا تنتظر عليها جواباً قبل أن تلقى بأسئلة أخرى لا تخرج عن معناها فأشفق عليها زوجها وقال لها:

(أرفقي بنفسك يا بنت الحلال، أنا طحت على حصاة وجرحت جبهتي).

فقالت وهي ملتاعة:

عسى عينك سالمة؟

قال: نعم.

قالت: الحمد لله.

قال: الحمد لله.

وكان من عادتهم أن يضعوا على الجرح الذي يكون في الرأس شيئاً مـــن الـــرماد فـــأرادت أن تفعل ذلك غير أنها خشيت أن يصل شيء من الرماد إلى عينيه فطلبت منه أن يستلقي على ظهره حتى يتلافى ذلك، ففعل مع أن آلام ظهره وقفاه تحتاج إلى من يمسح بيده عليها أو يدلكها.

وبعـــد أن وضـــعت الرماد على الجرح جاءت بخرقة فعصبت بها جـــرحه وبقي على هذه الحال يتململ لأنه يحس بالآلام التي في قفاه ولا يستطيع أن يمسها.

ومـــرت أيـــام كانـــت فيها الزوجة تعتني بزوجها أكثر مما تعتني بنفســـها، ومن ذلك أنها كانت تخفي عنه ما كانت تجده من أوجاع، وحتى ما كان يعاودها من نزيف حتى لا تكدر خاطره أو تزيد من مرضه.

وكانـــت عـــندما توقف نزيف الجرح الذي أصابه في اليوم الأول، بدأت في تكميد اللكزات والكدمات التي في ظهره.

لذلك جاء شفاؤه مما كان يعانيه أسرع مما كان متوقعاً ما عدا بقية مـــن الجـــرح الـــذي أصاب جبهته تأخر اندمالها ولكن ذلك لم يمنعه من الخروج إلى دكانه ومزاولة أعماله المعتادة.

ومع ذلك فإنه لم يبرأ بدليل أنه سلم عليه ذات يوم أحد الذين قدموا من جهات الهند، وكان قد تطيب بما أحضره من طيب تلك البلاد فلما شم زيد المطية رائحة الطيب، وكان يعتقد مثل غيره من أهل ذلك العصر أن شـــم الطيب يؤخر برء الجـــرح، بل ربما زاده انتكاساً فشعر بشيء يشبه الحكـــة التي فيها ألم في جرحه فاعتقد أن ذلك بسبب الطيب، وأسرع إلى بيته يخبر امرأته بذلك، ويطلب منها أن تعد له الدواء المضاد للشمم.

فأحضـــرت قلـــيلاً مـــن المُرّ والحلتيت، وأضافت إليهما شيئاً من الصـــبر، ومزجت الجميع بماء وأعطته إياه ليشربه، وقد فعل رغم مرارة المـــزيج من هذه العقاقير وخبث رائحته، ولكن لا ينقض (الشمم) أي تأثر الجـــرح مـــن الإصـــابة بالطيب إلا هذا وأمثاله أو التدخين بدخان الأثل، والأول أيسر تحضيراً، وأضمن نتيجة حسبما تعودوه.

الفصل الحادي عشر

إدارة البيت:

عـــادت موضـــي إلـــى تناول الحلبة والرشاد والحبة السوداء مع غذائها الخـــاص الذي سبق أن جربته غير أن تأثيره في جسمها في هذه المرة كان أقل مـــن تأثـــيره فـــيه في المرة الأولى، إلا أنها مع طول الوقت وطول تناول هذه الأدويـــة الشـــعبية موضوعة في ذلك الغذاء الجيد قد أخذت تتماثل للشفاء وإن كان ذلك ببطء شديد بحيث استغرق وقتاً ليس بالقصير.

ولكـــنهم جمـــيعاً فـــرحوا بذلك، بل كان فرحهم لا يعادله فرح لأن (موضـــي) هي ربة هذا البيت وهي المحرك الأول لكل ما فيه، وإن كان تحـــريكها في كثير من الأحيان بوحي من رغبة زوجها، ولكنها على أية حال كانت هي الزوجة سيدة البيت وهي الخادمة المخلصة لكل من فيه من صـــغير أو كبير؛ بل يصح القول بأنها أيضاً الخادمة لما فيه من حيوانات وطـــيور، فقد كان لديهم بقرة للبن لأنهم لا يستطيعون الحصول على اللبن بـــدون ذلـــك، إذ بيع اللبن عندهم غير معروف مطلقاً، وهي أيضاً تمدهم بالـــزبد والسمن وبشيء آخر مهم لربة البيت وإن كان يقتضي منها عملاً شـــاقاً وغـــير نظـــيف، ذلك هو الأخثاء أخثاء البقرة أو بلغة هذا الزمان (بـــرازها) فهـــي تستعمل تلك الأخثاء بعد تجفيفها في الشمس للوقود إلى جانب الحطب تخلط معه.

فهي تراقب البقرة إذا ما نزل منها شيء سارعت إلى أخذه ورصعه علـــى الحـــائط أو إلى نقله بيدها إلى حيث ينشر ليبس، وإذا كان الفصل شـــتاء والشـــمس قد حجبها غيم فإنها تضطر إلى تقليبه عدة مرات حتى يجـــف، وقـــد تجـــد في بعض الأحيان بعض الدود الذي تولد في الجزء

الرطـــب مـــنه الذي يلي الأرض، ولكن ذلك لا يمنعها من أخذه وإعداده للإيقاد به، والبقرة لا تقتصر مشقة القيام على خدمتها على هذا الأمر، بل هناك أشياء منها تحتاج إلى عمل مستمر بطبيعة الحال مثل الحلب، ونقلها مـــن الشـــمس إلى الظل ومن الظل إلى الشمس، وربطها في كل مرة، ثم طـــبخ ما تحتاج البقرة إليه من عليق مضاف إلى العلف، وذلك يحتاج قبل الطـــبخ إلـــى إعـــداد ثـــم طبخ بمقدار معين لأن البقرة إذا لم يقدم لها مثل ذلك الطعـــام الذي يتألف عادة من التمر القديم والمسوس الذي لا يصلح للأكل ومن شيء من الشعير أو الذرة الذي يحتاج إلى جرش، وطحن خشن.

وقـــد يقدم لها رضيح النوى، ورضح النوى أي تكسيره في حد ذاته عملية شاقة.

ثم إن تجفيف مربط البقرة في الشتاء أمر يحتاج إلى جهد إضافي إذ لابد من مكافحة رطوبة مكانها بإضافة بعض التراب اليابس حتى يمتص الرطوبة الموجودة.

بـــل إن تقديـــم العلف نفسه إلى البقرة في مواعيد منتظمة وبمقادير كافية أمر فيه تعب كبير على (موضي) لأن علف البقرة يتألف في العادة مـــن البرسيم الذي يحضره زوجها على رأسه من السوق، ومن الحشيش الـــيابس الذي خزنوه في مستودع خاص بالعلف، والحشيش هو من عشب الصـــحراء الملي بالأشواك وبخاصة أواخر الربيع، فشوكه يدمي اليدين، ويـــؤذي البشرة وبعضه فيه حسك أو حماط وهو شيء دقيق أصغر من الشوك يعلق بالجسم يكون في بعض الأعشاب دون بعض، يشبه بما يكون على ثمار البامية في شجرها.

فتضطر (موضي) المسكينة إلى القيام بذلك كله.

والأصـــعب من ذلك أن لا أحد يشكرها على عملها لأنهم يرون أن ذلك واجب لا يستحق القيام عليه شكراً.

وفـــي بيتهم أيضاً إلى جانب البقرة ثلاث من المعزى لينتفعوا بلبنها إذا قل لبن البقرة حين تصبح عشراء.

وفـــي بيتهم أيضاً خمس دجاجات وديك كلها سائبة في المنزل تنشر فـــيه رجـــيعها، وتثـــير أرضه بأرجلها فيضيف ذلك عبئاً على (موضي) المســـكينة علـــيها أن تـــتحمله مـــن تنظيف وإصلاح فضلاً عما تحتاجه الدجاجـــات من إطعام وسقي وتسريح إلى بيتها في المنزل لأنها إذا تركت في الليل أصبحت في متناول يد الهررة التي تأكلها، بل لا تبقى على شيء منها إذا ظفرت بها.

أمـــا إعـــداد الطعام للأسرة فهو شاق أيضاً ولكن ربة البيت تفعله برضا وإطمئنان ليس ذلك لأنها تشعر أنه جزء من واجبها المنزلي، وإنما لكـــون بعـــض النساء لا يستطعن الحصول على كفايتهن من الطعام وهن لذلك يتمنين الحصول على الطعام ولو كان في إعداده التعب والمشقة.

فهـــي لكي تعد وجبة العشاء عليها أن تخرج القمح من المخزن ثم تـــبدأ بتنقيته مما قد يكون فيه من حصا أو شوائب كبذور بعض الأعشاب لأن دياس القمح كان يتم بواسطة تكرار مرور الدواب من البقر والحمير فوقـــه، وهي ذوات حوافر قد تثير بعض الأتربة وكسر الطين التي تخالط القمح فتحتاج إلى أن ينقى منها.

وبعـــد التنقية التي يسمونها تطييباً كأنهم أخذوها من كون القمح لا يطيب إلا بعدها يأتي دور الرحا، فلم تكن توجد مطاحن عامة، وإنما على

ربـــة البيت أن تطحن بنفسها لأهل بيتها ما يحتاجونه. والطحن شاق أيضاً لأنه عملـــية طويلة يدوية مملة، فإضافة إلى تعب اليدين في إدارة الرحا فإنه ليس في هذه العلمية المكررة المملة شيء من المتعة الذهنية.

كمـــا أنه لا يوجد عندهم خبازون يبيعون الخبز، و على ربة البيت أن تخبز بنفسها إذا أرادوا خبزاً.

وممـــا يشـــق علـــى (موضى) في بعض الأحيان أن يكون الحطب الذي ســـتطبخ به الطعام من الخشب الكبير الذي يحتاج إلى تكسير وتقسيم، وهو أمر لابـــد فيه من استعمال الفأس والفاروع مع قوة جسدية كبيرة لأن بعض الخشب وخصوصاً خشب الغضا وجذوع الأرطى صلبة قاسية.

و(موضـــى) هـــي التـــي تغسل ملابس أهل البيت بيدها إبتداء من ملابس حماتها حتى أصغر بناتها، ولكن من حسن حظها أن عدد الملابس فـــي ذلك الوقت لم يكن كثيراً، لذلك لا يكون غسلها متكرراً، وقد عوفيت مـــن الكـــي والنشأ وتلوين الثياب البيضاء بشيء من اللون الأزرق حتى تكون ناصعة البياض، فهم في ذلك الزمان كان يكفي الواحد منهم أن يجد ثوباً خالياً من الأوساخ الملطخة.

و(موضـــى) مع ذلك هي ممرضة أهل البيت كلهم، فما أن يشتكي واحـــد مـــنهم شيئاً حتى تهب لإسعافه ثم تمريضه بقدر ما تملك من قدرة على ذلك، وهي تملك بلا شك الشفقة والعطف واللمسة الحانية.

وهي قبل ذلك كله مرضعة الأولاد ومربيتهم.

لذلـــك كلـــه لا غرو في أن يعمر البيت ويزدهر، ويعمه الفرح والسرور إذا كانت (موضى) سليمة معافاة قائمة على شؤونه، والعكس صحيح.

وكـادت تصبح حالة (موضى) الصحية عادية أو هي أصبحت كذلك إلا فـيما يتعلق بالحمل، فقد أحست به أضعف من العادة حركة، وأبطأ نموا فسألت بعـض النسـاء المجـربات مـن كواهل وعجائز عن ذلك فاختلفت إجاباتهن، بعضـهن قلـن إن الحمـل ما دام يتحرك فإنه قد ارتفع بمعنى أنه لا خوف من إجهاضـه وإنـه سيكون حملاً طبيعياً، وبعضهن قلن لها بالحرف الواحد: (هذا عـوار انـت تعورتـي) وفسرن ذلك بأنها هي وحملها قد أصابهما ضرر من السـقطة لذلـك لـيس من المؤكد أن يكون الحمل طبيعياً، وأن تأتي الولادة في أوانها، وليس من المضمون أن يكون الطفل إذا ولد سليم الجسم.

فداخلهـا خوف وفزع ما لبث أن تحول إلى كرب وهلع كتمته عن زوجهـا، إلا أنها لم تستطع البقاء على كتمانه طويلاً فصارحته مرة حين رأته منطلقاً في كلامه خالي البال من الأكدار الكبيرة فيما ظنته.

وكان قصدها الأكبر من ذلك أن تنفس عن نفسها ما تجده من كربة خانقـة تخشـى أن تقضـي على حملها إذا لم تنفس عنها بعض ما تجده بالإفضاء إلى من يشاركها الشعور نفسه وهو زوجها.

وقـد صـدق مـا قدرته فيما يتعلق بها إذ وجدت من زوجها الاهتمام بذلك والـتوجع والـتفجع، فخفف ذلك ما كانت تجده في نفسها غير أنها لو كانت تعلم ما سيعانيه زوجها من ذلك لكانت كتمته في نفسها، ولو أدى بها إلى ما تحذره.

فعندما أخبرت زيداً بالخبر أصابه الهلع والجزع ولكنه تجلد حتى لا تعـرف زوجـته مـبلغ ما أصابه، فهو حريص على راحتها مثل ماهي حريصة على راحته.

ومضت الأيام حتى أصبح ما مضى منها أشهراً وكان الجنين ينمو في أحشائها نمواً طبيعياً حتى جاء اليوم الموعود.

الفصل الثاني عشر

بنت.. ولكن!

وعـــند ما جاء اليوم الموعود وبدأ الطلق يشتد على (موضى) كان زوجهـــا يغمره شعور يغلب عليه الرجاء والاستبشار، أما هي فإنها كانت تعاني شعوراً غامضاً بالتوجس والتوقع لا تدري مصدره.

وباتـــت القابلة عندهم طول الليل تولدها وهي امرأة ليس لديها من مؤهلات توليد النساء إلاّ الجرأة والتجربة، مع أنها تجربة ليست بالطويلة، وحضرت مع القابلة خالة لموضى وهي عجوز كبيرة، كما حضرت أخت لموضـــى كبيرة السن أيضاً جاءت لتعتني بالبيت وتقوم على شؤونه حتى ينتهي أمر الولادة وتصبح (موضى) بعدها قادرة على العودة إلى القيام بذلك.

وقـــد أعـــد النســـوة مكان الولادة في ركن من إحدى غرف البيت الطينية فكنسن أرضها مما عليها من تراب، وجئن برمل ففرشنه بدلاً منه، ليقوم مقام الفراش لأنه تمكن إزالته وإبعاده بعد الفراغ منه.

وكـــان من العادة أن تذهب المرأة إلى بيت أهلها لتلد هناك إلا إذا تكرر مـــنها الحمـــل وكـــان في بيت زوجها لها أطفال صغار تصعب رعايتهم بدونها فتقـــيم في بيتها، وتحضر إحدى قريباتها لتساعدها على شؤون البيت ما دامت فـــي حاجـــة إلى ذلك، ولأنها تكون قريبة منها، فتستشيرها فيما يحتاج من أمره إلى مشورة، ومن ذلك ما يتعلق بشؤون الأطفال.

وقـــد شعرت (موضى) بآلام الولادة هذه المرة أكثر مما شعرت بها فـــي المـــرات الســـابقة، وعزت في نفسها ذلك إلى ما حصل لجنينها من ضـــربات وما جرى على صحتها من تعثر خلال الحمل، ولم تدر أن ذلك

صـــحيح ولكن يضاف إليه أنه كلما تكرر الحمل ضعفت الأجزاء التي يقع عليها عبئه من جسم المرأة.

وكانـــت لـــيلة قاسية على (موضى) لما عانته فيها من آلام جسدية مبرحة، وما كان تشعر به من أنقباض نفسي لا تدري مصدره، ولا تعرف كيف تتخلص منه إلا بأن تصيح وتناوه وتدعو الله تعالى وتبتهل في الدعاء بأن يخلصها من هذا الحمل الذي كان من أوله سبباً في إيذائها.

ولمـا اشـــتد بهـــا الأمر دون أن يتيسر لها الخلاص قالت القابلة: اقروا (إذا زلزلت) ولكنهن لم يكن يحفظن سورة الزلزلة (إذا زلزلت الأرض زلزالها).

فطلبـــن مـــن أم زيد أن تذهب إلى ابنها وتجعله يقرأ سورة الزلزلة على ماء في إناء صغير ثم تأتي به.

فقـــرأ زيد (إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها)، الخ السورة.

وأحضـــرت الحماة الإناء الذي فيه الماء فأخذته (موضى) وشربت بعضه، ورشت بقيته على صدرها ونحرها.

وشـــعرت بارتياح نفسي ولكن تبين لها بعد ذلك أنه ارتياح محدود الزمـــن، إذ لم تكد تمضي ساعة أو أقل من ساعة حتى عادت آلام الطلق أشد مما كانت. ومعها كان تأوه المرأة الذي كان على شكل صراخ مكتوم تخشى أن تظهره فتزعج زوجها وبناتها، وبين أنين عالٍ تستعيض به عن الصراخ حتى طلع الفجر ولم يطلع عليها الفرج.

وكـــان زوجها نائماً في مكان آخر من البيت ولكن نومه في الحقيقة كـــنوم الذئب يقظان هاجعاً، فكان ينام قليلاً ثم يصحو أكثر من ذلك فيغلبه

الـــنوم، وفي المرة الأخيرة عندما صحا على صوت المؤذن لصلاة الفجر أوجس في نفسه خيفة، ذلك بأنه يعرف من العادة أنه إذا كان المولود ذكراً فـــإنهم سوف يوقظونه من نومه يبشرونه بذلك، أما إذا كان أنثى فإنهم لا يبادرونه بالخبر وإنما يسكتون حتى يسألهم.

وكان يظن أن الولادة قد تمت أثناء الليل، وأن المولود هو أنثى لأن أحداً منهم لم يبشره بولد فقال في نفسه، والقلق قد استبد به:

(نصبح، ونفلح).

ولكنه لم يطق الصبر حتى يصبح، وإنما تسلل في الظلام حتى صار قرب الغرفة فسمع أنين زوجته وتأوهها فعرف أن الولادة لم تتم بعد، وقد ســـرَّ لذلـــك رغم ما يعنيه من طول عذاب لزوجته لأنه شعر أنه لا يزال هناك متسع لآماله، ولا يزال هناك مجال لتصديق أحلامه.

ثـــم عاد أدراجه دون أن يشعر به أحد لأن السراج الوحيد الموجود في البيت كان موضوعاً في الغرفة التي فيها النسوة.

ولكـــنه سمع أمه تناديه: يا زيد، يا زيد، فظن أنها عرفت باستراقه السمع وحاول أن يعتذر عن ذلك إلا أنها بادرته بقولها:

(يا وليدي مرتك معسرة، لابد تجيب لها قراية).

فقال لها: من أين يا أمي؟

فقالت: (المطوع سليمان عنده (غضار) مكتوب بهن، رح له وهات وحده من اللي لتعسير المرة).

وكانت أمه قد عرفت أنه سيقوم لصلاة الفجر فجاءت إليه فصادفته قد قام.

وقصـــد (زيد) إلى البئر الموجود في ركن من فناء الدار المكشوف وأخـــرج دلواً من الماء ولم يكن ذلك من عادته لأن زوجته كانت تعد له الماء بنفسها تخرجه من البئر وتملأ حوض الماء الموجود بقربه، وإذا كان الوقت شتاء والماء بارداً، فإنها تبكر في القيام وتعجل بتسخين الماء الذي يستعمله لوضوئه أو لاغتساله.

وخـــرج إلى المسجد الذي يصلي فيه (المطوع سليمان) فصلى فيه الفجر وكان المطوع بين المصلين في الصف الأول.

وعـــندما انقضت الصلاة وسكت المصلون عن التسبيح الذي يكون بعدهـــا يجهر به الناس جهراً ولا ينصرفون إلا بعد إكماله نهض زيد إلى فـــرجة خلت من أحد الذين كانا بجانب (المطوع سليمان) في الصف فسلم عليه زيد مادا يده يصافحه، ولكن (المطوع) لم يرد عليه السلام، ولم يبادله المصـــافحة، وظـــن زيـــد أنه لم يسمع سلامه، ولم ير يده الممدودة إليه بالمصـــافحة بسبب ضعف النور في المسجد في تلك الساعة فرفع صوته أعلى من المرة الأولى وقال له: (صبَّحك الله بالخير).

فـــرفع (المطـــوع) صوته بأدعية وأذكار إشعاراً لزيد بأنه مشغول بتلاوتها عنه، ولكن ذلك لم يثن زيداً عما أراد إذ هو رغم كونه عامياً يعلم أن تلاوة هذه الأذكار والأدعية وإن كانت مستحبة فإنها لا ينبغي أن تؤخر شفاء مريضة تتعذب لأنها ليست بفرض ولا هي من واجبات الصلاة.

لذلـــك كرر محاولته فما كان من (المطوع) إلا أن غضب منه ومن عـــدم تقديره للأمور، ومن قلة مبالاته بورده الذي ظل يداوم على تلاوته منذ سنين، وقال بحدة.

(إذكر الله خلنا نورد) أي: نكمل الورد

ولـــم يكن زيد يتوقع هذه المقابلة الجافة، وتمنى أنه كان في وضع يستطيع فيه أن يترك هذا (المطوع) الذي لا يبالي بشعور الناس وشأنه.

ولكـــنه مضطر لمجاملته، بل والخضوع له فسكت غير أنه لم يطق الصبر على السكوت طويلاً، ولم تبدر من المطوع أية بادرة تدل على أنه سينتهي من ورده قريباً، بل إنه لا يدري متى ينتهي لأن هذه هي أول مرة يأتي فيها إليه في المسجد بعد صلاة الفجر.

وربمـــا كـــان المطـــوع يظن أن زيداً أحد الذين كانوا يأتون إليه يطلـــبون منه أن يرقيهم وينفث على أجسامهم احتساباً للأجر ودون مقابل، ولذلك عندما نفد صبر زيد وقال له: بدون تحية أو مصافحة.

(الله يســـلمك مذكور لنا أن عندك غضار مكتوب فيها قراية للمرة اللـــي تعسِّـــر، وأنـــا أم عيالي لها مدة وهي تطلق وقالت لي الحريم: إنها معسِّر وإنها تحتاج إلى غضارة من اللي عندكم).

فهـــم (المطـــوع) قصده وأن الأمر ليس مجرد خدمة مجانية، فأقبل على زيد بوجهه وشد على يده مصافحاً وقال وهو ينهض من مصلاه:

(توكلنا على الله).

وسارا إلى منزل المطوع فأخرج إليه (غضارة) وهي إناء من فخار أبيض صقيل وقد ملي باطنها بكتابات بمداد أصفر ذكر (المطوع) لزيد أنه من الزعفران وقال المطوع وهو يناوله الغضارة:

خلهـــم يصبون ماء بالغضارة ويحركونه إلى ما تنمحي الكتابة كلها بالمـــاء وخلهـــا تشربه وترش على صدرها وبطنها من الماء، ولكن خلكم صـــاحين لا يطيح شيء من الماء على اللي أسفل من البطن لأن هذا فيه

دعاء وآيات طاهرة.

فشكر زيد له ذلك، وسأله عن الثمن الذي يجب أن يدفعه مقابل ذلك.

فأجاب المطوع سليمان بشدة واستنكار:

(هــذا كلام الله، ما يؤخذ عليه أجرة، إذا فرَّج الله عنها عطنا اللي تبـــي، وهالحين ما ندري يمكن أنكم تحتاجون غضارة ثانية بالليل إن كان هي ما خلصت قبل الليل).

وبمقدار سرور (زيد بن مقرب المطية) بالحصول على ما أراد فإنه قــد فزع من فكرة احتمال أن يستمر الأمر بزوجته إلى الليل، وأن تحتاج إلى غضارة أخرى.

بادر زيد فأخبر أمه بما أمره به (المطوع) ونفذت الأم ذلك فغسلت الكــتابة الموجودة في داخل الغضارة بماء بارد أحضرته من قربة كانت مملوءة بالماء من أول الليل، ورشت منه على المواضع المذكورة وشربت (موضـــى) بقية الماء فأحست ببرد الماء على كبدها وبوقع ما رشت منه علـــى بعض أجزاء جسدها وهو برد كان هو الوحيد الذي شعرت به منذ أن بدأ بها الطلق إذ كانت قبله تشعر كأنما كل جسمها يتقد نارا.

وبردت أوجاعها فشعرت براحة عظيمة لأنها كانت قبلها في عذاب أليم حتى إن جفني عينيها قد استرخيا أو كادا، وانقطع أنينها.

فقالت النسوة:

(لا إله إلا الله، آياته عظام شوفوا وش سوتْ بها القراية).

وبعــد اســتراحة من الآلم قصيرة فزعت (موضى) وزفرت زفرة

شديدة كان معها خروج الجنين من بطنها.

وهللت النسوة لذلك وتساقط الدمع من عيونهن تأثراً وفرحاً، ما عدا القابلـــة التـــي كانـــت قد اعتادت على ذلك حتى كادت عواطفها حياله أن تتحجر، وبينما كانت القابلة تعمل في تخليص الجنين وقطع سرته وحزمها بعد القطع كانت (موضى) قد غابت في إغماءة قصيرة.

وقـــد انحنت النسوة على الوليد يتفحصنه فإذا به أنثى وكانت القابلة أول من عرفت ذلك بسبب خبرتها غير أنها لم تسارع إلى إخبارهن لعلمها بمنزلة الأنثى عندهن، ولأنها هي أيضاً ستعاني من خيبة الأمل بسبب ذلك لأن الأجر الذي يعطى للقابلة يزداد إذا كان المولود ذكراً وكان أهل البيت في مثل حالة هذا البيت محتاجين إلى ولد ذكر.

وقـــد وجمـــت النسوة لهذا الأمر ونكسن رؤوسهن، وقالت إحداهن: (بنت! الله يصلح ما عطى).

فأشارت إحداهن بأن تسكت حتى لا تعلم الأم فتزداد حالتها سوءاً.

وكانـــت القابلة قد طلبت ماء فاتراً لتغسل به المولود حتى تلفه في القماش المعد لذلك ثم تكون مهمتها قد انتهت.

وفي أثناء غسل الطفلة لاحظت القابلة أنها غير طبيعية، ففي إحدى يديهـــا ورجلهـــا التي تلي تلك اليد شيء من الصغر عن يدها ورجلها في الشق الثاني، إلى جانب عدم المرونة في الحركة فيها، ثم لاحظت أهم من ذلـــك وهـــو ما يشبه الخط المتعرج المنخفض ماراً من أسفل وجهها إلى قرب عينها ثم مرتفعاً إلى الرأس.

وبحكم خبرتها في هذا المجال عرفت أن هذا تشويه خلقي أو قل إن الطفلة ليست سوية الخلق، ولكنها لم تخبر أحداً بذلك لأنهم سيعرفون ذلك فيما بعد، ولأنه لا فائدة من إخبارهم إذ ليس هو بالأمر الذي يستطيع أحد إصلاحه حتى ينبه إلى ذلك.

وكانـــت الأم قد أفاقت من إغماءتها فنظرت بطرفي عينها إلى من حولهـــا من النسوة ولم تجد القابلة فعرفت أن الأمر قد انتهى فسألتهن عن المولود أذكراً هو أم أنثى؟

فقالت حماتها: (المهم سلامتك أنت أغلى علينا من كل شيء).

وأضافت إحدى النسوة إلى ذلك: الله (يخلي لنا الروس الكبار، الباقي ما يهم).

فعرفت (موضى) أن المولود أنثى، إذ لو كان ذكراً لما تفوهن بهذه الكلمات ولسارعن إلى إزجاء البشارة لها.

ولـــم تنبس (موضى) حيال ذلك ببنت شفة، يمنعها من ذلك ضعفها إلى جانب كونها قد توقعت ذلك من قبل أو قل: إنها لم يكن أملها كبيراً في أن تنجب ولداً ذكراً، أما زوجها فإنه عرف من الأصوات التي سمعها أن الـــولادة قد تمت، ولما لم يسارع أحد إليه يبشره بقدوم ولد فقد عرف أن المولود أنثى فأصابه من الغم وخيبة الأمل أمر عظيم، كيف لا، وهو الذي توقع بل كاد يجزم في نفسه أن المولود سيكون ذكراً.

ومـــع ذلك كان لا يزال يتعلق بخيط ضعيف من الأمل إذ لم يخبره أحد عن نوع المولود حتى الآن لذلك يمكن أن يكون على خطأ.

وقــد تعمــد أن يمــر من أمه عن قرب حتى تخبره فانتهز فرصة خــروجها من الغرفة، وألقى إليها بتحية الصباح (صبحك بالخير) فردت علــيه التحــية بمــثلها: (أهلا صبحك الله بالخير)، ثم أضافت وهي تتنهد: (الحمد لله على الخلاص الحسن)، والله ما رجينا الحرمة إلا من الله، شوي وإلا راحت، الله يخليها لها البنات).

ولم تذكر شيئاً عن المولود فسألها:

بنت؟

فأجابــت: إيه، يا وليدي، بنت، الله يستر عليها، ويخلي لها رجالها! أسقط في يده، وتحقق من خيبة أمله، ولم يدر حيال ذلك ما يصنع حتى إنه لم يسأل عن حالة زوجته ولم يطمئن إلى صحتها.

وقصــد (دكانــه) يجر رجليه ويحملق في لاشيء، وكان من حسن حظــه أنه لم يصادفه حمل حطب إذ لو صادفه لكان من المحتمل إلا ينتبه إليه كما فعل في المرة الأولى أو أكثر منها.

الفصل الثالث عشر

الضيق بالبنت:

قابل زيداً أحد معارفه في الطريق فرآه على حالة لا ترضي أصفر الوجـــه مـــن الســـهر، يخالط صفرة وجهه كدرة من الغم، زائغ النظرات فناداه: زيد، فلم ينتبه إليه، فكرر نداءه، يا زيد، أقول: يا زيد.

فســـمع زيـــد كلامه ولكنه لم يرغب في التحدث معه لأنه يعرفه ثـــرثاراً كثـــير الكلام، فضولياً يتدخل فيما لا يعنيه. وكان زيد في الأيام المعتادة يتحدث إليه رغم ذلك إذا كان خالي البال، خالياً من الشغل، يقطع بحديـــثه ســـأم طول الوقت. وكان ذلك الرجل واسمه (عثمان) يتمالح، ويتصنع خفة الروح، وإيراد النكت المضحكة وهو في الحقيقة أبعد الناس عن ذلك.

فقال: يا زيد، أنا عندي لك نكتة تضحك أنا خابرك تحب النكت، فلم يجبه، ولم يصرف نظراته إليه. فعرف (عثمان) أنه لا يريد أن يكلمه فقال بحدة وحنق:

(متكـــبر علينا- يا زيد- معنا علم وش اللي مخليك متكبر، لابد أنك بايع بيعة كسبان بها ريال).

ومع ذلك أهمل زيد إجابته، بل لو كان يملك أن ينتقم منه لقاء عدم تقديـــره لشعوره لفعل، وسار زيد في طريقه عن ذلك الثرثار وهو يسمع دمدمته، ولا يفهم ما يقوله.

وفـــتح زيـــد (دكانه)، ثم نفض الخيشة التي كان يجلس عليها عند مدخلـــه، وقـــد فعل ذلك بطريقة آلية بحكم العادة، وإلاّ فإن ما به من غم وكمـــد لا يســـمح له بأن يدقق في أمره إلى درجة أن ينفض الخيشة عن

الغـــبار، كما أنه بطريقة آلية أيضاً حمل الوعاء المليء بحبوب القهوة بين يديـــه وأخـــرجه إلـــى عتبة الحانوت الخارجية كما دأب على ذلك، بغية عرضـــها على أنظار المارة ممن يريدون الشراء، إلا أنه بعد لحظة عدل عـــن ذلك، وقال في نفسه: ريما يأتي مماكس لئيم يؤذيني بالكلام دون أن يشتري، وذلك أمر يحتاج إلى سعة صدر وطول بال لا أملكها الآن، لذلك عمد إلى وعاء البن فأدخله إلى الحانوت ثانية.

ثـــم جلس في داخل الحانوت يفكر في أمره فامتدت يده اليمنى عفواً إلى الموضع الذي فيه وعاء البن فلمسته دون أن يلتفت إليه، ثم أخذ يكرر لمســـه فالتفـــت إليه ورآه وعاء البن، وفطن إلى أنه أدخله بعد أن أخرجه لكي يوفـــر على نفسه عناء مماكسة من أحد الذين يظهرون أنهم يريدون الشراء قد تقتضي وقتاً طويلاً وجهداً نفسياً شاقاً دون أن يكون لها نتيجة.

ثم قال لنفسه: لماذا أتحمل الأمرين: المصيبة وعدم الربح؟ ولماذا لا أعـــرض البـــن فـــي الخـــارج، ولعلي بذلك أكسب ريالاً أو نصف ريال يساعدني على نفقات البيت؟

فاقتنع من هذه الفكرة وحمل وعاء البن مرة أخرى إلى محل عرضه في العتبة الخارجية.

وكـــان أحد جيرانه ممن يودهم ويودونه قد لاحظ هذه الحركة غير المعـــتادة مـــن زيد فلم يستطع لها تعليلاً، لذلك جاء إليه ليسأله، فلما رآه كئيب النفس، كاسف البال لم يسأله عن هذا الموضوع بالذات، وإنما ترفق بـــه ولاطفه في الكلام وكان يظن أن سبب ما بزيد من انقباض وغم إنما يرجع إلى خبر بلغه عن هبوط سلعة مما عنده كالقهوة، فساله:

(وش اللي بك يا زيد؟ عسى ما عندك سلعة مخسّرة؟)

فأجابه بصوت كله شكوى وانكسار:

(لا والله يا أبوعلي، ماهوب هذا السبب).

فتلطف به أبوعلي وقال: الدنيا كلها كبد ونكد، والله سبحانه وتعالى يقـول: (لقد خلقنا الإنسان في كبد) والدنيا ما تصفى لأحد لو صفت لأحد صفت للأنبياء والصالحين والمثل يقول: (لا تهتم تغنم تموت).

ثم أضاف:

(خبرني – يا زيد– وش اللي بك، أنت اليوم ما أنت مثل كل يوم). فأخبره زيد بالسبب.

فأنكر عليه أبوعلي ذلك، وقال:

(يا زيد، من جا جا برزقه، ما تدري لو أن الرزق اللي عندك سببه ها لبنات، أنت قبل يجيك بنات أقل دراهم من هالحين، أو...).

فقاطعـــه زيد، وقال: (أنا أعرف يا أبوعلي اللي تقول كله، وأعرف أن "من خلقه الله رزقه وإن اللي يجيء من البنات يجيء برزقه وأنا على ما قلت قبل يجن هالبنات ما عندي ولا نصف اللي عندي هالحين، لكن أنا ودي بولـــيد علشانهن هن علشان البنات ما هوب علشاني أنا، أنا رجال ما أدري مـــتى يومـــي ويمكن إني أموت قبل احتاج لنفع الولد، لكن هالبنات وش يصير عليهن إن كان أنا مت ولا لهن أخو يظلل عليهن؟).

وقـــد تركه جاره أبوعلي يسترسل في الحديث دون أن يقاطعه، أو حتى يستفهم منه عما ورد فيه ثم قال بشيء من التوجع والمواساة:

(يا زيد أنت توك ولد، يا رجال قل خير يقوله الله، إن شاء الله السنة اللـــي تجـــي، أو اللـــي بعدها يرزقك الله ولد، كم اللي عندك من البنات؟

فأجاب زيد:

أربع.

فقال أبوعلي: يتأكد من العدد وإن كان يظهر أنه يعرفه:

أربـــع؟ بـــس أربـــع؟ بعض الناس عندهم ثمان وعشر بنات، ولا ضـــيعهم الله، وبعض الناس ما جاهم ذكور إلا عقب ما صار لهم سبعين سنة، ونفعوا أهلهم ثم سأل زيداً قائلاً:

أنت يا زيد عندك خبر يقين من ربك أنك تبي تموت، وإنك ما جايك ولد، وإن بناتك يضيعن بعدك؟

فأجاب زيد:

(لا والله يا اخوي، اللي عند الله عنده، ما يعلم الغيب إلا الله).

فقال أبوعلي:

(أجـــل توكل على الحي القيوم، ولايسوّي الله إلا الزين، وخل قلبك على كراسيه. الله اللي خلق الخلق يدبرهم ماهوب أنت اللي تدبرهم أبداً ما يخلق الله خلق ويضيعه).

ولمـــا كـــان زيـــد يود جاره أباعلي هذا ويثق في آرائه وفي عقله واتزانه ثم هو ذو مكانة رفيعة بين أهل السوق، فقد كان لكلامه وقع البلسم علـــى خاطـــره وأخـــذ يردد قول أبي علي: (الله الذي خلق الخلق يدبرهم ماهوب أنت اللي تدبرهم).

ثم أخذا يتكلمان في موضوع آخر استغرق اهتمام زيد المطية وكاد ينســـى فـــي غمـــرة أحزانه ما هو فيه إلا أنه في أثناء الحديث شعر بأنه

منقبض الصدر ولم يكن بحاجة إلى أن يكد ذهنه في تذكر سبب انقباضه إلا أنه مع ذلك كان لديه الاستعداد الكافي لمواصلة الحديث مع (أبوعلي) وقد شعر هذا بذكائه أن جاره زيداً لا يزال بحاجة إلى مواساته، فبقي عنده يحدثه، في شجون شتى من الحديث.

ومن حسن حظ زيد المطية أنه لم يبتل هذا اليوم بمن يعكر مزاجه في (دكانه) فقد كان عدد الذين وقفوا عليه قليلاً جداً ما عدا بدوياً وقف على زيد بعد أن ذهب عنه جاره أبوعلي وكان زيد شارد الفكر فيما يشغل باله، فلكزه البدوي بعصاه لكزة قوية فزع لها زيد وقد أراد البدوي بذلك أن ينبهه من شرود الذهن حتى يكلمه فيما يريد، ثم شفع البدوي لكزته تلك بقوله لزيد بصوت مرتفع يسأله وكأنه ينتهره.

(عندك قهوة)؟

ففزع زيد لهذا التنبيه الحاد ولكنه لم يسب البدوي، ولم ينكر عليه فعله، لأنه يؤمل من وراء ذلك ربحاً ولو كان قليلاً ويحتاج إلى مجهود كبير من المداراة وحسن انتقاء الألفاظ التي تؤثر في البدوي وزيد يعرف بخبرته أن الأعراب يأتي من وراء التعامل معهم ربح أكثر مما يأتي من وراء التعامل مع أهل الحضر، ولذلك قال التجار في أمثالهم: "البدو قناديل الأسواق" فهم لا يعرفون السعر الأصلي للسلعة كما أنهم لا يعرفون مقدار الربح الذي يطلب منهم أن يدفعوه فيها على وجه التحديد لذلك يعتمد الكسب من الأعراب على سعة حيلة التاجر، ومعرفته بالأشياء التي تؤثر فيهم، وهم بذلك يخالفون أهل الحضر الذين لا يؤثر فيهم إلا كون السلعة جيدة النوع، أو رخيصة الثمن.

قال البدوي لزيد:

عندك قهوة؟

فكظم زيد غيظه وقال: أنت ما تشوف؟ القهوة قدامك!

فقال الأعرابي: هي طيبة؟

فأجاب زيد: أي نعم، طيبة.

فقال الأعرابي: بالحيل؟

فأجاب زيد: بالحيل!

فقال الأعرابي: هي ما فوقها؟ أنا أبي قهوة مافوقها قهوة.

فلم يستطع زيد أن يقول: إنها ليس فوقها قهوة لأنه يعرف أنها ليست أفخر أنواع القهوة،وإنما رد على الأعرابي بقوله: طيبة يا ابن الحلال.

وكأنما اقتنع البدوي بهذه الإجابة وظهر أنه ربما كان لا يجد فرقاً بين وصف القهوة بأنها طيبة أي: جيدة وبين وصفها بأنها أفخر أنواع القهوة.

ثم غرز البدوي يده في وعاء القهوة المليء غرزة شديدة جعلت بعض الحبوب تتناثر من الوعاء فتقع على الأرض، وجعل زيد يجمع الحبوب المتناثرة من الأرض ويعيدها إلى الوعاء ثم أخذ الأعرابي ملأ كفه من القهوة، وقربها من أنفه يتشممها وهو يقول: كم الوزنة، يا حضري؟

فأجاب زيد بريالين ونصف؟

فاستفهم الأعرابي مستنكراً!

ريالين ونصف؟

استفهم حُبّاً في الاستفهام جرياً على عادة الأعراب في كثرة السؤال وإلا فهو ليس بحاجة إلى ذلك الاستفهام، لأنه قد سمع بوضوح زيداً وهو يقول بريالين ونصف.

فأجاب زيد على استفهام البدوي بجواب غير مباشر إذ لم يؤكد على إيضـــاح الثمـــن لأنه يعرف أن الأعرابي قد عرف ذلك، وإنما هو ديدنهم فقال:

الطيب يستاهل، كل شيء وثمنه.

فقال الأعرابي: لا، بريال ونصف.

فقال زيد: الله يهدينا وإياك ما دخلت علينا بريال ونصف.

فقال البدوي: بريال ونصف.

فقـــال زيد: بريال ونصف تخسرنا وأنت وجه طيب ما ترضى لنا بالخســـارة، ولـــم يؤثر ذلك كله في الأعرابي بل أصر على ألا يزيد على ريال ونصف، وحاول زيد حمله على الزيادة بعدة طرق منها مدح البدوي نفســـه، ومـــدح القهـــوة وبأنه هو نفسه أي زيد من البائعين الذين يكتفون بالربح القليل ولكن ذلك كله كان دون جدوى.

ولمـــا أعيته الحيلة سكت إلاّ أنَّ البدوي لم يسكت وإنما قال بطريقة جافة وبصوت مرتفع نوعاً ما:

(اسمع يا حضري، بريال ونصف وترى ما معي دراهم ترى معي عوض) يريد سلعة يقايضه بها.

وكانـــت هـــذه الكلمة مدعاة لانتباه زيد الذي رجا من ورائها صفقة رابحة، فسأل الأعرابي قائلاً:

(وش هو العوض اللي معك؟)

فأجاب البدوي: (سمن، عكة سمن).

فقال زيد: (ما يخالف هاته ويكون خير).

وذهب الأعرابي إلى حيث عقل بعيره في مكان قريب خارج سور البلدة وزيد يقول في نفسه (إذا غلبنا بالقهوة نغلبه بالسمن، صحيح أن القهوة رأس مالها علي أزيد من الريال والنصف شوي، لكن نطلع الزود ومكسبنا من قيمة السمن إن شاءالله).

ثم جاء البدوي يحمل وعاء من الجلد، متوسط الحجم من السمن الجيد فيه حوالي ست وزنات وكان سعر السمن في السوق ريالاً واحداً للوزنة الواحدة، فلما رآه زيد قال للبدوي: هذي (عكة صغيرة) وأنت تقول إنه كثير.

وبعد نقاش ومماكسة، (مفاصلة) بينهما اشتراه زيد بأربعة ريالات وأعطاه بثمنها قهوة سعر الوزنة بريال ونصف ثم باع السمن بستة ريالات فخسر في القهوة ريالاً إلا ربعاً، وربح في السمن ريالين. ولكن الصفقة لم تتم إلا على حساب أعصابه وراحته.

الفصل الرابع عشر

المُشَوّهَة:

بينما كان زيد في (دكانه) في تلك الضحوة وبعد أن استراح النسوة اللاتـــي كـــن قـــرب (موضى) في إغفاءة بعد سهر وتعب طويل نهضت إحداهـــن إلـــى المولـــودة لتحـــنكها والتحنيك عندهم هو أن يأخذوا تمرة فيمرسوها في قليل من الماء، ثم يبعدوا ما قد يكون فيها من ثفل ثم يسقون المولود ماءها وهو أول شيء يطعمونه إياه وهو طعام نافع له لأنه سكري خفيف وهو إلى ذلك متوفر في بيتهم الصحراوية.

ولمـــا أرادت أن تغرغرها بذلك الشراب أي: تدفعه في حلق الطفلة رأت ذلـــك التشـــويه الخلقي الذي كانت قد لاحظته القابلة ولكنها لم تعره أهمـــية فـــي أول الأمـــر إلى أن بدأت بصب مريس التمرة في فم الطفلة فلاحظـــت أن حلقهـــا لا يكاد يدخل منه شيء إلا قليلا جداً، فنادت المرأة الأخـــرى وأطلعـــتها على ذلك، وكانت أعرف منها بخطورة هذا الأمر، ففحصت الطفلة بعينها ثم قالت لصاحبتها والهلع يكاد يقتلها:

(عايـــبه، بنت وعايبه، يا حزنك يا موضى! يا الله إن الشكوى لك)! وكانتا تتحدثان همساً خشية في أول الأمر من أن يوقظا موضى التي كانت لا تزال في إغفاءة بعد تعبها الشديد، ولكنهما الآن تهمسان بصوت أخفض حذراً من أن تسمع عن مولودها ما يزيد حالتها سوءاً.

ثـــم إن المرأتيـــن انتحيـــتا ناحـــية وجعلتا تتشاوران في الأمر، أتخبران (موضـــي) بجلـــية الأمـــر؟ أم تصبران حتى تكتشف ذلك بنفسها، وأي الأمرين أهـــون علـــيها، وأقـــل إيلامـــاً لنفسها؟ وقالت إحداهما: لماذا لم تخبرها المولدة

بذلك؟ فأجابت الأخرى: (يمكن المولدة تقول: أنا ما اناب ملزومة).

فقالت صاحبتها: (إن كان المولدة تقول أنا ما أناب ملزومة انا أجل ما اناب ملزومة).

فقالت الأولى: لكن ها المسيكينة وش تسوي إلى عرفت؟

فقالت الثانية: (الله أرحم من خلقه).

وبعد مشاورة ومداولة للرأي بين المرأتين اتفق رأيهما على أن يبلغا جدة الطفلة بذلك ويلتمسا منها الصواب.

فزعت الجدة عندما أبلغاها الخبر إلا أن فزعها كان أقل مما كانتا قد تصورتاه، لأنها من جيل كان قد ألف النكبات، ومرت عليه المحن، وسمع أفـراده عن أمثال هذه الأمور الكثير، حتى أصبح عندهم شبه مناعة من الصدمات التي تنشأ عنها.

ولذلك حينما انفجرت إحدى المرأتين بالبكاء لم تشاركها الجدة ذلك، وإنما قالت: (يا بنتي الله طبيب خلقه)!

وقـد حمل موقفها ذلك إحدى المرأتين على التفكير في شيء آخر وهـو مـا إذا كانـت تلك الجدة ما بالت بالأمر مبالاة كافية بسبب العداء التقلـيدي بيـن الحمـاة والكنّة، إلا أنها سرعان ما صرفت ذلك من ذهنها لما تعرفه من صلة حسنة بين موضى وحماتها على خلاف العادة في هذا الأمر.

ثـم نهضت الجدة معهما لتشاهد الطفلة فتحققت مما تحققتا منه، ولكنها لم تولول كما كانت المرأتان تنتظران، بل قالت بكل حرقة تخاطب نفسها:

(الله يجـبرك يا وليدي يا زيد، الله يصبرك على هالبلوى، أنت تبي ولد وجاك بنت عايبه).

ثم سكتت قليلاً لكي تقول بعد ذلك، وهي تقلب يد الطفلة اليمنى التي هـــي أقـــل نمـــواً من يدها اليسرى وهي شبه متصلبة وكأنها قد نسيت ما أصاب أمها أثناء الحمل:

(وش اللي بها البنت هي مخشورة، إن كان بس هي مخشورة فهي تحتاج قراية حتى إنها تنطلق يدها).

وهـــي بعقليـــتها القديمة تعتقد كما يعتقد بعض أهل زمنها أنه ربما كانت الطفلة قد مس أمها جني أثناء الحمل لذلك أصيبت البنت، ، وعلاج ذلك هو قراءة الرقي والعزائم.

وعلى أية حال فهي كانت أقل من غيرها إظهاراً للتأثر، وربما كان موقفها يوحي بالأمل أكثر من صاحباتها.

ولكـــن سحنتها بعد ذلك تهدجت، ووجهها أربدّ عندما فطنت لشيء وقالت للمرأتين وكأنها تحدث نفسها:

(الحكـــي بهـــا المســـكينة (موضي) وش تسوي؟ هي حول تموت، وشوفتها البنت تزيدها موت).

فاتفقـــت آرائهن على أن يكتمن الأمر عنها يوماً أو بعض يوم، وأن يحرصن على ألا يجعلنها تنظر إليها من قرب وليقلن: إن (موضى) ليس فـــيها لبن للطفلة: وإنهن لذلك ذهبن إلى مرضعة تفتق حلقها كما يقولون لأن الطفـــل لا يستطيع أن يستسيغ حلقه اللبأ واللبن الخاثر الذي يكون في ثدي الأم عند الولادة.

وبـــالفعل أبعدن الطفلة عن أمها وجعلن يبحثن عن امرأة ترضعها فخرجـــت إحداهن لهذا الغرض ثم عادت وبصحبتها امرأة فقيرة كانت قد

ولـــدت قـــبل شهرين ومع أن صحتها ليست على ما يرام، وأن من يراها يظن لأول وهلة أنه لا يوجد في ثديها لبن كافٍ لطفلها فضلاً عن أن يكفيه ويكفـــي طفـــلاً آخر، وربما كانت هي تعرف ذلك ولكنها قبلت أن تكون مرضعة لهذه الطفلة طمعاً في شيء من التمر أو القمح الذي سيدفع أجرة لإرضـــاعها ولأن المرضـــعة تكـــون أماً للرضيع حتى بعد أن يشب عن الطوق، وإذا قدر له أن يصبح غنياً أو ميسور الحال فإن المرضعة سينالها نصيب من ذلك، كما ينال غيره من ذوي قرباه.

وحاولـــت المرضعة إرضاع الطفلة، ولكنها لم تستطع وعرفت بسابق تجربـــتها أنها غير طبيعية غير أنها لم تذكر لأهل الطفلة شيئاً من ذلك حذراً مـــن أن يفوتهـــا ما ترتجيه من أجر، وإنما قالت لهم: ما رضعت إلا شوي، وإن هـــذه هي عادة بعض الأطفال لا يقبلون على الرضاعة بصورة طبيعية أول الأمر كما يقبل عليها غيرهم، إلا أنهم في النهاية يكونون مثل غيرهم.

لقـــد حملها الطمع في الأجر على أن تقول غير الحقيقة، ولو كانت قالت مـــا كانت تعتقده من أمر الطفلة لكان أهلها قد عرفوا بما سيكون عليه مصيرها، وقد وعدتهم بأنها ستعود إليهم بعد ساعات لإرضاع الطفلة.

الطامة الكبرى:

عـــاد زيـــد المطـــية من (دكانه) إلى البيت، وقد عادت العواصف الهوجاء تعصف في ذهنه، فجعل يحدث نفسه قائلاً:

(أنـــا جـــزع مـــن أربع بنات وها الحين صارن خمس!) وش أسوي بخمس بـــنات مالهـــن ذكر يكد عليهن، إذا كبرن، ثم ازدادت أفكاره سواداً عندما تذكر أنه كـــان قـــد أقنع نفسه بأن دعاءه بأن يرزقه الله ولداً ذكراً قد استجيب ولكن ها هو المولود أنثى، إن اقتناعه بإجابة دعائه كان غير صحيح.

وما دام الأمر كذلك فما الذي يوقنه من أن تأتي إليه ابنة سادسة إذا قدر لامرأته (موضي) أن تحمل وأن تلد على خير.

ثـــم ازدادت حسراته عندما مر بجماعة من الصبيان، يلعبون ورأى أن ثلاثـــة مـــنهم لرجل واحد من جيرانه يعرفه، فكادت نفسه أن تطرح السؤال التالي: لماذا يكون لهذا الرجل ثلاثة من الأولاد ولا يكون له ولد واحد؟

ولكـــن إيمانـــه بـــالله وتسليمه بقضائه وقدره منعه من ذلك، بل إنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وتفل إلى جهة يساره وهو يتعوذ يريد أن يطرد الشيطان بعيداً عنه.

إذ هـــذا الســـؤال وأمثاله يتضمن الاعتراض على مشيئة الله تعالى وقدره وعلى حكمته في خلق الأشياء التي لا يسع زيداً وأمثاله، بل لا يسع المخلوقين كلهم إلا التسليم بها وتلقيها بالقبول وعدم الاعتراض.

ثم إن في تساؤله ذلك ما ينم عن الحسد المذموم لذلك الجار الذي لا ينبغي أن يحسده زيد المطية على ما آتاه الله من فضله.

ولكـــن نفسه ضاقت بهذا الصراع القائم بين عقله وإيمانه إلى جانب مـــا كان قد ضاق به من انفعالات الكرب والحزن.وكأن موعظة صديقه (أبو علي) قد تلاشت.

فدخل إلى بيته وهو في أشد حالات الأسى والحزن.

وكان أول من صادفهم في البيت أمه العجوز التي ما أن رأته حتى أجهشت بالبكاء وصارت تبكي بحرقة وألم.

وكمـــا تكون الحال بين المشتركين في المصيبة فأن التأسي يساعد

علـــى تخفيف وقع المصيبة، وإن كان ذلك بمقدار قليل وإلى حد محدود، فـــأخذ زيد يواسيها ويخفف عنها مما بها وكأن ذلك قد أنساه بعض ما في صدره من الهم والحزن.

إلى أن قال لأمه:

يـــا أمي الله يعظم أجرك، الله سبحانه وتعالى اللي أعان على البنات الأربع يعين على البنت الخامسة إن شاء الله.

فأجابته أمه وهي تنشج بالبكاء:

صحيح يا وليدي، صحيح، لكن، لكن، ما هيب مثلهن، ثم فطنت إلى مـــا سيكون عليه وقع الخبر على ابنها إذا ما عرف أنه قد ولدت له بنت مشوهة، فأمسكت عن الكلام وجعلت تبكي.

إلا أنـــه أحس بأن هناك أمراً أكثر من مجرد ولادة البنت وظن أنه يتعلق بزوجته (موضى) فقال لأمه؟

هاه وش تقولين؟

وش العلم؟

هي موضى حاصل عليها شيء، لاحول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم انفجر الحزن الذي كان يكنه في صدره طيلة الوقت الذي فيه في (دكانه)، انفجر على شكل بكاء حاد لم تستطع أمه أن تتحمل مرآه وهو يبكي بهذه الحرقة.

فأسرعت تقول:

لا، يـــا وليدي موضى ما بها خلاف، ما جاها زود لكن البنت، فلم

يســتطع الانــتظار وإنما قاطعها قائلاً: وقد ظن أن الأمر يتعلق بمكروه أصاب إحدى بناته الأول:

أي البنات؟ وش اللي جاها؟

وهــنا كان لابد للأم من الإسراع في إخباره بجلية الأمر مهما تكن عليه الحال فقالت:

البنت الصغيرة اللي ولدت البارحة!!!

وهنا وقفت الكلمات في حلقها فسألها بلهفة:

ماذا جرى لها؟

فأجابت بصراحة ووضوح:

(عايبه يا وليدي، بنت عايبه، ماهيب صاحية).

وعــندما سمع ذلك غامت الدنيا في عينيه ودار به المكان، ووقفت الكلمــات في حلقه، وأراد أن يبلع ريقه غير أنه أحسَّ بأنه ليس في حلقه ريــق يمكنه أن يبل حلقه، ثم شعر بألم في جوفه وطنين في أذنيه، وشعر بأنه على وشك السقوط مغمياً عليه.

غير أنه حتى وهو في هذه الحالة كانت في ذهنه إرادة أن لا يعمل ما يؤذي أمَّه فتحامل على نفسه، ووضع رأسه بين يديه، وأخلد إلى سكون ظاهري لبرهة من الزمان ولكن نفسه كانت تشهد صراعاً عنيفاً بين العقل والقلــب وبيــن الإيمــان والشك، وكانت تتصارع فيها مشاعر لم يستطع وصــفها بعــد أن عاد إلى صوابه، إلا بأنها مشاعر جهنمية فكان يستعيذ بالله كل ما ذكرها بعد ذلك.

فقال لأمه بعد أن استطاع الكلام:

(يا أمي بنت وعايبه؟) ثم أردف قائلاً:

من يصبر على البنت العايبة؟

قالت: الله يعينك يا وليدي.

فقال وهو يتحسر ويتنهد:

(يا أمي أنا يبي يعيني الله لكن إذا مت من يصبر عليها عقبي؟)

فأسرعت أمه تعلق على كلمته بقولها:

(بسم الله عليك ما انتب ميت هالحين أنت توك ولد).

ولـم يشأ أن يفند قولها ذلك فيقول: إنه قد بلغ مرحلة الكهولة التي لـيس بعدهـا إلاّ الشيخوخة أو كاد أن يبلغ تلك المرحلة، لأن ذلك سيعني بالضـرورة أن أمه قد أصبحت عجوزاً كبيرة. وهو أمر لا يستطيع أدبه ودينه الذي يفرض عليه برّ والديه أن يواجهها به.

وبيـنما هما كذلك وإذا بصغرى البنات تأتي إليهما راكضة ضاحكة وكأنهـا تطل من عالم غير العالم الذي يعيشان فيه، بل إن الأمر كذلك إذ هي لا تعرف عن أحزانهما ولا عن أحزان أهل البيت شيئاً.

وقـد اندفعـت إلى حجر والدها واحتضنته، وأخذت تقبله وهي في صحة جيدة ومنظر يسر الناظر إليها.

فـأرادت جدتها أن تبعدها عن أبيها وقالت لها: روحي بعيد يابنت، انقلعـي، حنا بشي وأنت بشي آخر، إلاّ أن زيداً كان في هذه الاثناء يفكر في شيء آخر، بشيء جعله يحتضن ابنته الصغيرة الجميلة ويقبلها ويبكي بكاء ممزوجاً بالفرح وبالحزن.

وكـــان مصـــدر الفـــرح فيه أنه تذكر في هذه الآونة أن هذه البنية الصـــغيرة الجمـــيلة تتمتع بصحة جيدة، وأنها سوية الخلق وأمامها فرصة لكـــي تجد في الحياة زوجاً يسعدها وتسعده فحمد الله على ذلك عندما فكر فيما لو كانت مثل هذه المولودة بنتاً مشوهة الخلق، ستكون فيما يغلب على الذهـــن كلاً على أهلها وعبئاً جديداً يضاف إلى ما يشعرون به من أعباء كبيرة. ثم تذكر أن أخواتها الثلاث اللائي هن أكبر منها كلهن ذوات خلق ســـوي، وصحة جيدة فحمد الله وشكره وتذكر تلك الجملة التي سمعها من إمـــام المسجد الذي يصلي فيه وهو ما روى عن بعض السلف من قوله: (البنت·السوية من النِّعم).

إلاّ أن أحـــزانه أخذت تتغلب عليه فنهض عن مجلس والدته ليؤدي الصلاة في المسجد لأن موعدها قد حان.

الفصل الخامس عشر

الفرج:

ترددت المرضعة على المولودة المشوهة وهي تزعم أنها ترضعها، وهي في الحقيقة لا ترضع منها شيئاً.

وبعد يومين أو ثلاثة أيام أخذ جسم الطفلة في الذبول لأنها لا ترضع اللبـــن من المرضعة ولأنهم امتنعوا أن يعطوها لأمها بحجة أنها مريضة لـــيس فيها لبن لمولودها، وإنما كانت إحدى النساء تمرس تمرة واحدة في المـــاء وتظل تنقط قطرات قليلة منه في حلق الطفلة ولا تكاد تسيغها، وقد أحضروا لها عجوزاً تزعم المعرفة بالطب فنظرت إليها وقالت لهم: (هذي مـــا لها دواء إلا القراية، روحوا للمطوع فلان خلّوه يكتب لها خط علقوه في رقبتها، ويكتب لها كتابة فنجال إغسلوه بما وخلوها تشربه).

ولـــم تكـــن الطفلـــة في حالة صحية تسمح لهم بذلك لأن حلقها لا يستسيغ الماء، وإنما أحضروا الخط وهو التميمة يكتب فيها تعاويذ وتوضع في غلاف من الجلد أو القماش وتعلق في عنق الطفل.

ولكن الطفلة أسلمت الروح في اليوم الخامس.

فكان الحزن الذي يصاحب الموت عادة قد أصبح لديهم فرحاً إلا ما كان من أمر والدتها (موضي) فإنهم لم يكونوا قد أفصحوا لها عن مرض الوليدة فحزنت عليها كما تحزن أي أم على وليدها.

إلا أنهـــم جميعاً وآسوها بالعبارات الشائعة في التعزية من الإيمان بالقضـــاء والقدر، و بأن هذا هو قدر هذه الطفلة قبل أن تخلق، بل قبل أن يخلـــق أبوها وأمها، وأنه لا يمكن لأية قوة في الأرض أن تغير ذلك فلا

يستطيع أحد أن يزيد في الأجل ولا ينقص منه، كما قال تعالى **﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾**.

وما الأدوية والعلاج الطبي إلاّ أسباب لا تقدم ولا تؤخر ولكنها هي من الأشياء المأمور بها وهي مظهر من مظاهر تعلق بني آدم بهذه الحياة التي هي حياة شقاء وكد وتعب وأحزان متواصلة في أكثر الأحيان.

وقد قالوا لها فيما قالوا:

(يا موضي لا تكرهين ولا تحبين، قدام ابرك، ترى الطفل إذا صار يوم القيامة يشفع لوالديه عند ربه، لأنه ما عليه ذنوب ويقول: يا رب إنك تشفعني فيهم حتى أدخل الجنة معهم).

ولقـــد قص عليها زوجها حديثاً سمعه في المسجد مرة وهو أن أحد الصـــالحين كان له أولاد مات أكثرهم وبقي له طفل وطفلة، فسأله أحدهم عن عدد أولاده فقال: تسعة يذكر الذين ماتوا، أما الولد والبنت اللذان هما حيان فإنه لم يعدهما لأنه قال: هما من أولاد الدنيا لا من أولاد الآخرة، أما أولاد الآخرة فهم الذين يشفعون وينفعون أهلهم يوم القيامة.

ولـــم يســـتطع زيد بن مقرب المطية وهو يعظ زوجته ويواسيها أن يقول لها ما يعتقده في نفسه من أن موت هذه الطفلة المشوهة هو فرج من الله تعـــالى لأنه يعرف أن مشاعرها تجاهها غير مشاعره، وأنها لا تقدر المشكلات المترتبة على حياتها وهي بهذه المثابة فيما لو عاشت.

الفصل السادس عشر

الصراع النفسي:

مضـــت أشهر عديدة على أهل هذا البيت كما تمضي الأيام المعتادة لهم، ومضت معها صحة (موضي) في التحسن، ولكن ببطء شديد.

أمـــا زيد بن مقرب المطية، فإنه كان قد أسلم أمره لربه، وظل في انـــتظار مـــا تخبـــئه له الأيـــام، وقد أصبح في حال بين الحالتين فلا هو بالخائف الوجل الذي يسيطر الخوف على نفسه حتى لا يستطيع الاستقرار، ولا الاستمرار في الحياة المعتادة، ولا هو بالذي زايله الخوف المفزع من المستقبل فأصبح لا يخشاه إلاّ كما يخشاه القوم الآخرون.

وقد تأخر الحمل عن زوجته (موضى) وعللوا ذلك بما حصل في حملها الأخير على بطنها- كما يعبرون.

إلاّ أن الحساب للمستقبل كان لا يزال مسيطراً على ذهنه وذهن أمه العجوز التي كانت أسرع من غيرها إلى مصارحة ابنها بذلك.

إذ قالت له مرة:

(يـــا ولـــيدي مـــرتك موضى ما حملت ولو حملت ما ندري وش تجيب، وهالبنات الله يصلحهن ويستر عليهن، يبن لهن أخو يظلل عليهن).

ومع أنه كان يفهم ما ترمي إليه حق الفهم، فإنه أراد منها الإيضاح والتصريح، فقال:

(والله صحيح يا أميمتي لكن موضي إن شاء الله باكر تحمل ويجيب الله لنا وليد حنا ما نيأس من رحمة الله و...).

فقاطعته قائلة:

(إن كان موضي حملت وجابت وليد فالحمدلله الزود من الخير خير، والـــناس يتســـببون والنصيب على الله، مع أني ما أدري عن موضى هي تحمل مرة ثانية وإلا لا، أنا يا ولدي أبيك تعرس، أبيك تأخذ مرة ثانية لعل الله يجيب لك ولد يظلل على البنيات).

ولم يدخل مع أمه في نقاش حول هذا الموضوع، لأنه لم يكن غريباً على تفكيره، فقد كان قد فكر فيه من قبل، وإن يكن ذلك على شكل أحلام اليقظة التي تراود الشخص بل تسيطر على ذهنه لفترة قصيرة ثم يطردها الواقع، إلا أن ذلك يكون إلى حين.

ولـــم تكـــن أمـــه هي الوحيدة التي ذكرت له الزواج، بل كان أحد أصـــدقاء والـــده من الشيوخ الطاعنين في السن كان قد التقى به منذ أيام وســـأله عـــن عدد أولاده، و كان يبدو مهتماً بهذا الأمر اهتماماً كبيراً من واقع الصلة التي كانت بينه وبين والد زيد التي جعلته يدعو لعقب صديقه بالنماء والاستمرار:

وقد أجابه زيد على سؤاله بقوله:

عندي خير، عندي أربع بنيات الله يصلحهن ويرزق برزقهن، فسأله الشيخ بسرعة:

(يعني ما هنا عيال؟).

فأجابه زيد:

هنا أربع بنات مثل ما قلت لك!

فعلق الشيخ على ذلك قائلاً بحدة:

البـــنات مـــا هن لك يا وليدي، البنات للناس، الجيدة منهن اللي تنفع روحهـــا وتجيـــب عـــيال للناس، أنت ما سمعت اللي يقول: (عيال عيالنا عيالنا، وعيال بناتنا لا؟).

ثم سكت هنيهة، وأردف قائلاً:

(كم عندك من حرمة)؟

فأجاب زيد بسرعة:

واحدة.

فاستفهم الشيخ مستنكراً:

(واحـــدة؟ أنـــا ولد أبوي، والله لو أنا داري من قبل إني ما أسكت عنك)، فقال زيد:

(لكن أنا يا عم أمّ بناتي غالية عليّ ولا ودي أزعلها!).

فقـــال الشيخ: (يا وليدي تزعل ثم ترضى، وش تظنها تبي تسوي، تـــروح لأهلها وتتركك؟ أبرك الساعات، خلك تأخذ بدالها بنت. الرجل يا ولـــدي له أربـــع، ولاهـــوب مثل المرة تحمل وتلد ويروح شبابها بالحمل والولادة والرضاع، توكل على الله يا ولدي واعرس..).

وهنا أراد زيد أن يتكلم فقال:

(يا عم، بس...).

فقاطعه الشيخ قائلاً:

(بس، مابس، اترك عنك بس، توكل على الله وتزوج، وإن كان ما عــندك ثمــن الجهاز تدينه دين، باكر يجيب الله لك ولد يرد نفقتك عليك وينفعك إذا شيبت، وصرت ما تقدر تنفع روحك).

وقــد سكت زيد المطية لأن ما قاله الشيخ جدير بالتفكير، ولأنه لم يترك له فرصة للكلام.

ولــم ينصرف الشيخ إلاّ بعد أن أبدى وأعاد ما قاله، وبعد أن سمع من زيد الموافقة عليه.

الفصل السابع عشر

التفكير بالزواج الثاني:

عـــندما فارق ذلك الشيخ (زيداً) حصل في فكره من التأثر بكلامه مثل مـــا حصل له من التأثر من كلام والدته، إلى جانب عشرات الآراء والأفكار المماثلـــة التي كان قد سمع بها موجهة إليه، ومقصوصة عليه أو على غيره ولكـــنه ســـمع بها من دون أن يبالي بها في أول الأمر لأنه لم يشعر أنها تمســـه فـــي ماضي أيامه عندما كان شاباً ثم سمع بها بتأثر وانتباه عندما أصبح كهلاً يشفق من أن لا يرزق بولد ذكر يساعده في شيخوخته ويتكفل برعاية بناته من بعده، وتدور تلك القصص حول رجال لم يرزقوا بذكور مـــن زواجهم الأول وأحياناً حتى في الزواج الثاني ولكنهم رزقوا بهم من زواج بعد ذلك.

وكـــان إذا فعل ذلك ترجحت في ذهنه فكرة الزواج عسى أن يكون سبيله سبيلهم هذا إلى جانب ما يوحي به الزواج لرجل قارب سن الكهولة، ولكنه لا يزال في صحة من جسمه، ووفرة من عواطفه وبخاصة إذا كان مـــثل زيـــد المطية رجلاً مستقيم الخلق، يخاف الله، ويخشى الاقتراب من محارمه، وهو يعيش في بيئة دينية وفي مجتمع صارم في المراقبة لأفراده فهـــو لـــو سولت له نفسه في نوبة من نوبات الضعف أن يقترب من أمر محظور لما وجد إلى ذلك من سبيل.

وهـــذان الأمران مما يطيل من ربيع العواطف تجاه الجنس الآخر حتى يصبح ابن الخمسين وكأنه من هذه الناحية ابن ثلاثين.

وبالنسبة لزيد بن مقرب المطية فإن هناك عاملاً آخر يضاف إلى ما

سبق وهو أن زوجته (موضي) بسبب تكرار الحمل والرضاعة وبسبب الأمراض التي أصيبت بها قد ذبل جسمها، وذهبت نضارته حتى إن زوجها كثيراً ما يقارن في ذهنه بين ما كانت عليه عندما تزوجها وما أصبحت عليه بعد ذلك فيعجب لعظم الفرق بين الحالين، وكان عندئذ يجاهد نفسه، ويقسر عواطفه حتى يشعرها أنه يحس الآن تجاه زوجته شعوراً ليس أكثره العطف والرثاء الذي يدفع إليه الإخلاص والوفاء.

وكان إذا استلقى في فراشه أخذت تتثال عليه هذه الأفكار فتميل عواطفه وأحاسيسه إلى فكرة الزواج ثانية. ولكن قلبه لا يوافقه على ذلك عندما يتصور مبلغ إخلاص زوجته (موضي) له وخدمتها إياه وكونها تقدمه في كل شيء على نفسها.

ثم يحاول أن يتصور وقع ذلك في نفسها عندما يتزوج امرأة شابة لأنه إذا تزوج فلن يتزوج إلا شابة فإذا بها تحضر إلى المنزل، وربما تَحِلُّ من نفسه منزلة تجعل (موضي) تشعر بأنها في قلبه أدنى منها.

ثم يقول لنفسه: ولكن الزوجة الجديدة ستكون شابة والشابة أولى بقلب الرجل من الكهلة بطبيعة الحال، وهذا أمر يفعله كثير من الناس، ولكنه يرجع إلى نفسه فيوحي إليها بأنه قد تزوج (موضي) شابة ناضرة وأنه هو الذي أبلى جدتها، وأذهب نضارتها، وهي لا ذنب لها في ذلك فكيف تزاد إلى عذابها بفقد شبابها عذاباً آخر بإيجاد منافسة لها في البيت، لا يمكنها أن تتغلب عليها.

ثم إن هناك شيئاً آخر بل أشياء أخرى تتعلق ببناته، فما الذي يجعله يضمن أن الزوجة الجديدة ستعاملهن معاملة كريمة، وكيف تكون حالهن إذا رأين الزوجة الجديدة تحل في البيت تنافس أمهن ربة البيت الأصلية.

ثم ماذا تكون حالهن لو جرى لأمهن مكروه فتولت أمرهن المرأة الغريبة؟

ثـم إن هـناك أمراً مهماً آخر لابد أن يحسب له زيد حساباً يتعلق بوالدتـه، وهـو الـذي عـاش برّاً بها، مطيعاً لأوامرها، حريصاً على إرضـائها، فمن الذي يضمن له أن تكون المرأة الجديدة لها مثل ما كانت (موضي) رقيقة رحيمة، وماذا لو صار الأمر بخلاف ذلك؟

إنـه يعرف أن ذلك يعني عذاب أمه وشقاءها النفسي وهي في آخر عمرها لأنها لن تشكو الزوجة إلى ولدها حذراً من أن يفارقها وهو بحاجة إلى التماس الولد منها.

كانت هذه الأفكار وغيرها مما يدور حولها تغزو فكره، وتقلق باله.

وربمـا كان أكثرها إزعاجاً لفكره، وإيلاماً لنفسه أمر لا ينزعج له كثـير مـن الرجال العاديين الذين لم يرزقوا من طيب النفس ومن الوفاء للرفـيق والشريك ما رزقه زيد مقرب المطية، ألا وهو مشاعر (موضي) زوجته إذا رأت أنه قد رزق بالولد الذي يتمناه من زوجة غيرها، إنه يعلم أن وقـع ذلك سيكون أليماً على نفسها وهو ألم لو كان ذا طبيعة مؤقتة لما ألقـى له كبير بال، ولكنه سيكون إذا ما حدث ألماً مستمراً، بل متجدداً مع الزمـن، ثم وصل به تأثره وتصوره البعيد للأمر إلى أن يتخيل (موضي) بعـد أن يمـوت ويكون ولده من غيرها قد أصبح رجل البيت، أو عميد الأسرة وهي تقف منه موقف الضعيف الذليل، لما يكون في بعض الأحوال بين المرأة وبين ولد زوجها من ضرتها من تنافر وعدم محبة.

ولـم تكـن هذه الأفكار المزعجة بل الصراع النفسي المؤلم تفارقه حتى يغلبه النوم، ولكن ذلك لا يكون منتهى إطافتها بذهنه، وإنما هو بمثابة

التأجيل الذي لا يلبث أن يعاود، وقد يكون إذا عاد أعنف مما كان عليه في أول الأمر.

ولمـــا استمرت الحال معه في هذا الصراع لجأ إلى صاحبه أبوعلي الـــذي كان يعتقد صواب رأيه وإخلاصه له، فنصحه بالاستشارة وقال: إن الحكمة تقتضي ذلك فسأله: وأنت ما هو رأيك الخاص لي؟

فأجابه: رأيي أن تتوكل على الله وتتزوج ولكن لا تنسى أن تستخير الله وتشـــاور الـــناس المخلصـــين لك والذين عندهم آراء صائبة في هذه الأمور وأمثالها.

وهكـــذا فعـــل زيد المطية، شاور عدة أشخاص من الرجال وشاور اثنتين من قريباته فكلهم رجالاً ونساءً أشاروا عليه بالزواج.

الفصل الثامن عشر

العزم على الزواج:

لـــم يـــبق إلاّ الاستخارة وقد ذهب زيد المطية إلى أحد طلبة العلم يرجوه أن يعلمه كيف يقوم بها.

فعلمـــه كيفيـــتها وقال له: توضأ كما تتوضأ للصلاة، ثم اذهب إلى مكان نظيف وصل ركعتين، وادع الله سبحانه وتعالى أن يوفقك للخير، ثم قل: اللهم إن كنت تعلم أن زواجي من امرأة أخرى هو أنفع لي في أمور دينـــي ودنياي فاهدني إلى الأخذ به، و يسره لي، وإن كنت تعلم أن بقائي بدون زواج من امرأة ثانية هو خير لي فاصرفني عن فكرة الزواج.

قـــال طالـــب العلـــم لزيد المطية: ولتعلم يا زيد أنك إذا فرغت من الصلاة فإن أحد الأمرين سيترجح عندك فخذ به.

وقـــد أداهـــا زيد المطية كما أخبره بذلك، وما أن فرغ منها حتى صح عزمه على فكرة الزواج، وكان يميل إلى تلك الفكرة قبل أن يؤدي صلاة الاستخارة.

وكـــان لابد للأمر أن يكون سراً عن زوجته (موضي) الذي كان قد ظن أن وقـــع علمها به سيكون فظيعاً عليها، غير أنها كانت قد سمعت بعض الكلام في هذا الأمر من بعض النسوة اللاتي عرفن به من والدة زوجها.

وكانت (موضي) قد بلغت حالتها النفسية دركاً لم يقدره زوجها فقد وقـــر فـــي ذهنها أنها لم تعد صالحة لإنجاب الأطفال، بدليل أنها منذ مدة طويلـــة لم تحمل، وفكرت كما فكر زوجها من قبل في مستقبل بناتها، إذا بقين بدون أخ.

بـــل إنها تعلم من حال الرجال الذين تشبه حالتهم حالة زوجها أنهم غالـــباً مـــا يتزوجون دون أن يكون لهم من المبررات ما لزوجها، وإنما يفعلون ذلك لمجرد الاستمتاع بزوجة شابة، وبعضهم لا يمنعهم من ذلك إلا عدم توفر مهر الزوجة الثانية لديهم.

وكـــادت أن تلتمس في نفسها العذر لزوجها زيد مقرب المطية في هذا الأمر غير أنها ما أن تصورت أنه سيكون لامرأة أخرى، دونها وهي التـــي أخلصت له، وخدمته بكل ما استطاعت، بل إنها أفنت زهرة شبابها في خدمته، ولم تكن تخدمه نفسه فقط، وإنما كانت لمحبتها فيه تخدم حتى أقاربـــه، حـــتى إنها كانت تخدم أمه أكثر مما تفعل مع أمها، وكانت تكرم قريـــباته وتقـــوم علـــى قضـــاء حوائجهن أكثر مما تفعل ذلك مع قريباتها، ثم تساءلت في نفسها تساءل العاجز الذي يعلم أنه لن يجد لسؤاله جواباً قائلة:

كـــيف يا زيد نسيت أيامي معك؟ كيف يا زيد لا تذكر أيامنا الحلوة؟ كيف يا زيد..؟ كيف يا زيد...؟

وأخذت تسرد عبارات كثيرة تفتتحها بكيف؟ ولكنها لا تنتظر جواباً، إلا أنهـــا فـــي آخـــر تساؤلاتها شعرت أنها لابد أن تعطي زوجها فرصة الإجابة على تساؤلاتها تلك.

فنصبت من نفسها مجيباً أو محامياً عن زوجها قالت: نعم ربما تقول إنـــك تبـــي ولد هذا صحيح، ولكن كيف تسمح نفسك تعذبني أنا يا مريتك المســـكينة، وربما تقول: إنك تبي حرمة شابة أشب مني،ولكن أنا يوم أني أجيء لك وأنا شابة لا شك أني أحسن من اللي تبي تأخذها.

ثـــم عـــادت إلى التساؤلات فخاطبت زوجها في ذهنها بقولها: أنت نســـيت يوم أنا بنت يوم إنك ما تبي الرجال يشوفون ظلالي، ويوم أنا إذا

سمعت حس رجّال غريب فريت منه ، حتى ما يشوف ولا زولي.

ثم فكرت قليلاً وقالت:

ايه صحيح أن المرة ما هيب مثل الرجل لكن وش أسوي؟ عجزت أقــوى روحي ثم فطنت إلى أنها قد أخطأت في قولها ذلك لنفسها وأن هذا قــد يكــون فيه اعتراض على الدين مما يلحق بها الإثم فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم، وحاولت أن تطرد هذه الأفكار عن خاطرها.

غــير أنهــا لــم تستطع ذلك فانفجرت باكية، ولم يوقف بكاءها إلاّ شــعورها بأن إحدى بناتها تقترب منها، فأسرعت تشيح بوجهها، وتجفف دموعها حتى لا تراها.

لــم تكن موضي رغم طيبة قلبها وكونها من الصنف المحبوب من الــناس ذوي الطبيعة المسالمة التي لا تبغي الشر لأحد، كثيرة الصديقات لأن اهــتمامها بشؤون بيتها قد شغلها عن الاهتمام بالأمور الأخرى، إلى جانــب كونها تميل إلى الخجل من بعض النساء، ومع ذلك كان لها بعض الصــديقات القلــيلات، إلى جانب بعض القريبات كأختيها، فأخذت تشكو مصــيبتها إليهــن، وكــن يواســينها بالوقيعة بالرجال غير الأوفياء لزوجاتهم، ولكنهــن جميعاً لم يستطعن أن يبدين وسيلة واحدة ناجعة لمقاومة هذا الأمر ما عــدا واحدة ذكرت امرأ اقشعر له جلد (موضي) ولم تتصور حتى إنه يمكن أن تفكر فيه فضلاً عن أن يحدث لها، ذلك هو أن المرأة قالت لها:

(رجلــك ما يستاهل إلا إنك تلوفين بناته بوجهه وتتركين بيته، خليه يشوف إن المرة اللي يبي يحبها ما تنفعه ولا تخدم أمه ولا بناته ولا تقوم ببيته ما تقومين به أنت !).

ولكن (موضي) استفظعت هذا الأمر وأجابت المرأة قائلة:

إلا يا اخيتي، دوري غير ها الشور، أخلي أبو بناتي؟ وأخلي بيتي، وأخلي بناتي تولاهن المرة؟ لا والله!).

ولـــم تكن تلك الأسباب التي ذكرتها – على وجاهتها وكونها كافية لعـــدم مغادرة بيت زوجها بالأسباب الوحيدة التي تحملها على عدم التفكير فـــي هجران بيت الزوجية، وإنما إلى هناك أيضاً سبب أوجه منها بل هو أعظـــم منها وأعمق في شعور (موضي) ألا وهو عشرة زوجها زيد تلك العشرة الطويلة التي جعلته لها بمثابة الزوج والأخ والصديق، بل والوالد فهو بالنسبة إليها كل شيء. ولا تتصور الحياة بدونه، ولمن تتركه؟ أتتركه لامرأة غريبة هي غريمتها؟

كانـــت تفكـــر في هذا الأمر بينما كانت المرأة تنتظر أن تعلق على رأيها فلما تأخرت في ذلك سألتها المرأة قائلة:

(هاه وش تقولين باللي قلته يا موضي؟).

ولـــم يكن بالمستساغ عندهن أن تتحدث المرأة عن محبتها لزوجها وشـــدة تعلقهـــا به، لذلك فإن موضي لن تفضي إلى المرأة بما كانت تفكر فيه، لا سيما في مثل هذا الموقف الذي هو موقف بحث الرد المناسب على هـــذا الزوج الذي سيريق كأس الهناء الزوجي، فأرادت موضي أن تغير مجرى الحديث إلى ناحية أخرى من الموضوع، فقالت للمرأة:

(يا أخيتي وأين أروح إلى طلعت من عنده؟)

فقالـــت المـــرأة، وكأنها قد قابلت السؤال بالسؤال حتى تتيح لنفسها فرصة التفكير في الجواب:

(واين تروحين؟).

فأجابت موضي:

(ايه، أقول: واين أروح؟).

فسكتت المرأة قليلاً كأنما لتمنح نفسها فرصة أطول للتفكير لأن الجواب على هذا السؤال يحتاج آلي ذلك إذ العادة أن تعود المرأة التي تفارق زوجها إلى بيت والدها، ولكن والد موضي قد مات.

لذلك قالت المرأة:

تروحين لبيت حدى اخوتك، أنت لك أخوين (دحيم)، و(حمد)!

وكادت أن تقاطع المرأة وتصيح بها قائلة: لا، لا يمكن ذلك إذ كيف تصبح بعد أن كانت سيدة بيت تتمناه أكثر النساء في بلدتها تحت رحمة زوجة أحد أخويها، وماذا يكون مركزها في ذلك البيت؟

إنها لن تكون إلا الذليلة القصية التي لا يحسب لها حساب إلاّ عندما يحتاج البيت إلى عمل إضافي مثل طحن القمح أو المساعدة على طبخ طعام وليمة أو على الأقل العناية بالأطفال أثناء انشغال أمهن بالواجبات المنزلية ثم إلى أي الأخوين تذهب؟ أ إلى بيت دحيم ذى الزوجة الشريرة الأفعال السليطة اللسان، التي لا يطيق أحد الاقتراب منها حتى إن أخاها صارحها مراراً أنه لولا عدم قدرته المالية لما تردد في فراقها، وطردها من بيته، غير أنه يخشى ما يترتب على ذلك من نفقة لها مدة عدتها ولأولاده الصغار منها، وهي نفقة لا يقدر على دفعها، ثم وإنه يحسب حساباً لنفقات الزواج الثاني كذلك؟

أم تذهـب موضـي إذا هجرت بيت زوجها إلى بيت أخيها الثاني (حمـد) وزوجته امرأة طيبة بل هي صديقة لموضي ولكنها معتلة الصحة دائماً وتحتاج إلى تمريض، فهل تكون موضي ممرضة لها وتصبح بعد أن كانـت سـيدة بيت بدون منازع بمثابة الخادمة لمرأة مريضة لن يقتصر الأمـر علـى العناية بها نفسها، وإنما سيمتد ذلك إلى العناية بها وبشئون بيـتها، لاسيما مع كون أخيها (حمد) كثير المعاملة مع القرويين وكثيراً ما كان يدعوهم إلى بيته للعشاء ليستمروا في التعامل معه وكان كثيراً ما يلجأ إلـى قريباته إذا حصلت مناسبة في بيته من تلك المناسبات وكانت زوجته في حالة صحية سيئة.

طافـت هذه الأفكار في رأس (موضي) فأشمأزت نفسها، وعزفت عن سماع بقية رأي المرأة.

وفي الأيام التالية اقتنعت موضي برأي صاحباتها اللائى تثق بسداد رأيهن وهو أنه ليس أمامها إلا الصبر والتسليم لقدرها، فوطنت نفسها على ذلـك وبخاصـة إنها أصبحت تحفظ قصص كثير من النساء اللائى كان سبيلهن سبيلها فمنحها التأسي قدرة أكثر على الصبر والتحمل.

الفصل التاسع عشر

البحث عن الزوجة الثانية:

عـندما اسـتقر رأي زيد بن مقرب المطية على الزواج أخذ يعمل في أمـر يـن اثنين في آن واحد، أولهما: جمع المهر وتجهيزه، وأهم ما في ذلك إعداد الألحفة التي تساق إلى بيت العروس وهي اثنان خفيفان يصلحان فراشاً في الصيف وغطاءً في الشتاء، وثالث سميك ثقيل لا يستعمل إلاّ للفراش.

وثـوب حريـري للعروس لابد منه إذ جرت العادة على أن يكون بمثابة ثوب العمر، تلبسه المرأة في المناسبات المهمة ولا تلبسه لغير ذلك فيبقى عندها زمناً طويلاً.

والأمـر الثانـي وهـو الأشـق والأصعب هو البحث عن الزوجة المناسـبة، والوسيلة إلى ذلك هي حث المعارف والأصدقاء على السؤال والتنقيـب عنها في زوايا البيوت، إذ لا يمكن للرجل أن يعرف ذلك بنفسه لأن البنت إذا تمت عشر سنين أو نحوها من عمرها حجبها أهلها في البيت فـلا تخـرج منه ولا يرى وجهها أحد من الرجال الأجانب، بل إن بعض الأسر تحجب بناتها حتى عن الأجنبيات من النساء.

وليسـت هـذه هـي الصـعوبة الوحـيدة، وإنما هناك صعوبة في استجابة الوسـطاء فـي الـزواج، فـأحدهم وكـان زيد يحسن الظن به ويعتقد أنه سيفرح لمسـاعدته علـى هـذا الأمر المهم أظهر استجابة فاترة لزيد عندما طلب منه ذلك، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن يعتزم أن يبذل أي جهد فيه، وإنما قال لنفسه:

(يبيني زيد أدور له مرة؟ هو مهبول؟ أنا رجّال أدور العافية، باكر إن وافقـت صـارت موافقتها له هو، وإن كان هي ما وافقت بدا يسبني ويدعى

علـــيّ، ويقول: هذا سبب فلان، لا، العافية أزين، يلقى غيري، أو ما يلقى، بكيفه ماناب ملزوم به).

أما إحدى قريبات زيد من النساء فإنه عندما طلب منها ذلك، قالت له:

(لا والله يـــا أخيي، ما اناب متحملة وزر هالمسكينة موضي أتسبب لك تعرس عليها؟ هذي أم محمد ما تستاهل).

ولما أبدا زيد اعتراضه على رأيها وذلك بما يشبه العتاب من كونها نظـــرت إلـــى الأمر من زاوية مشاعر زوجته، ولم تنظر إليه من زاوية رغبته التي يعتقد أنها تحقق مصلحته قالت له:

(أبـــد الله يهديـــك، دور غيري، ما جزا ناقة الحج ذبحها، ما جزى موضي مني أني أخطب لرجلها).

أما بقية اللذين ندبهم لهذه المهمة فإنهم لم يقصروا في ذلك إلا أنهم كانوا يصادفون عقبات في كثير من الأحيان.

من ذلك أن أحدهم جاء إلى زيد، وقال: وجدتها إنها بنت فلان وإن أهلها سيسرعون بالإجابة من دون شك، لأنها ليست الوحيدة عندهم، وإنما هـــي ثالثة ثلاث كلهن في سن الزواج، وهي كبراهن، إلا أن الرجل قال: هذا الذي بلغني، سوف اتحرى عنهن من جار لهن صديق ثم أخبرك، وبعد ثلاثة أيام عاد إليه وهو يقول:

(أنـــا ســـألت عنهـــن رفيقـــي وقال: إنه ما يعلم بهن عيب وإلاّ إن وجوههـــن وسيعة، يروحن لجيرانهم، ويطبن مع جدار السطح في بعض الأحيان، وأنا قلت: إن الذي مثل هذولي ما أرضاه لك يا زيد).

فعلق زيد على ذلك بقوله:

(أي والله اللي مثل هذولي ما هن رغبة جزاك الله خير، يبي ييسر الله سبحانه وتعالى أبرك منهن إن شاء الله).

وجـــاءه آخـــر وذكر له أنه وجد الزوجة المناسبة له، إلا أنه عندما ســـأل عن بيتها أخبر أن أمها سليطة اللسان كثيراً ما سمعها جيرانها وهي تتخاصم مع زوجها وترفع صوتها في وجهه.

فامتنع زيد من خطبتها وقال:

(العـــوام يقولون: إلى بغيت تضمها فاسأل عن أمها، باكر تطلع هي لســـانها طويل تؤذيني، أو يجيني منها عيال يصيرون مثلها، أنا ما أبي إلا وحدة بنت حلال مثل موضي، لو تقطع جنبها ما تكلمت كلمة وحدة).

وجـــاءت إحـــدى قريباته فذكرت له أنها قد وجدت ضالته في بيت فـــلان.. رجـــل كـــان يعـــرفه.. وذكرت أنها رأتها بنفسها وإنها أعجبت بمظهرها وبما بدا لها من عقلها.

ثـــم وصـــفتها بأوصاف جعلتها تقع موقعاً حسناً من نفس زيد لاسيما أنه يعرف والدها، بل يعرف أهل بيتها بأنهم (أجاويد وأهل دين وسمت) كما قال.

ثم جد في التأكد منهم حتى اطمأن إلى أن هذه هي الضالة المنشودة، فلـــم يجـــد أفضـــل من أن تخطبها له قريبته إذ تذهب أولاً إلى أمها حتى تضـــمن موقفها، ثم بعد ذلك يرسل أحد الرجال الذين يعتمد عليهم في هذه الأمـــور حـــتى يخطـــبها له من والدها، ولابد من أن يكون الخاطب ممن يتمـــتعون بطلاقـــة اللسان، وبالفصاحة التي تمكنهم من أن يظهروا ما في طالب الزواج من مزايا ومرغبات، إلا أن قريبته عادت إليه بعد أن كلمت والـــدة الفتاة وهي بين الأمل واليأس، إذ قالت لها الأم: إنها قد سمعت عن

زيد وأنها تعرف مزاياه، إلا أن كونه يجمع بين بنتها وبين زوجته الأولى وبناتها في بيت واحد، أمر لا يمكن أن توافق عليه، إنها تعلم أن ابنتها جميلة، وهي تستحق الزواج من شاب أعزب يسكن وحده. وإذا كان لها أن تتجاوز عن السن في موضوع الزواج من زيد فإنها لا يمكن أن تتجاوز عن السكن مع زوجته الأولى وبناته.

ذكرت الخاطبة هذا الأمر لزيد فعلق عليه بقوله:

(الكلام للرجال ماهوب للحريم، باكر أرسل واحد لأبوها يخطبها ولاهوب مخالف، وإن كان خالف تركتها لأني ما أقدر أسكنها في بيت لحالها، وأكد على بيتين، أنا ويش أنا عليه؟).

وبالفعل أرسل بعد يوم أحد الأشخاص إلى والد الفتاة يخطبها له ولكن جاءه الرد مطابقاً لكلام الأم، فصرف النظر عنها.

أما التي تلتها فقد كان الأمر معها مختلفاً في الأسلوب، وإن كان متفقاً في النتيجة، إذ كان عذر إخوانها الذين كانوا هم أولياءها لأن والدها كان قد توفى قبل ثلاث سنوات بأن قالوا:

(ابرك الساعات والله ما نلقى أخير من زيد لكن البنت فايته، أبونا الله يرحمه قايل إنها لولد أخوه إبراهيم، وإبراهيم له سنتين بالشام، لكن يذكرون أنه يبي يجيء ولا نقدر نطلع عن قول المرحوم الله يغفر له).

وكاد بحثه عن الزوجة المناسبة يتوقف، إذ كانت النساء كثيرات ولكن عدد من يكن مناسبات في أكثر الأشياء قليل جداً، حتى إنه فكر في اشتراطه في الزوجة أن تكون بكراً، بخاصة عندما بلغه أن إحداهن قد تزوجت وهي بكر وأن زوجها لم يلبث عندها إلا ليلة واحدة وطلقها فهي بهذا في حكم التي لم تتزوج.

وعــزم على أن يخطبها غير أنه شاور أحد المقربين من الزوج الذي طلقها عن سبب طلاقها المبكر فقال: إن الزوج يشير إلى أنه وجد فيها عيباً، ولكنه لم يفصح به لئلا يسئ إلى أهلها الذين كانوا قدروه وقدموا إليه ابنتهم.

فعدل عن خطبتها.

وأخيراً طلب من صديق له في قرية غير بعيدة من بلدته أن يعاونه في العثور على ما يريده فجاء الصديق بالخبر السار.

لقــد عثر له على زوجة، وليس ذلك فحسب، وإنما لمح بالأمر إلى والدهــا وذكر زيداً عنده بما فيه من مرغبات، فاستجاب الوالد، وما على زيــد إلا أن يــبادر بالخطبة، وذكر له صديقه أنه من الوجاهة بمكان أن يختار زيد أحد أقاربه من ذوي الهيئة الحسنة والمنطق الحسن ليتولى الخطبة له.

وبالفعل اختار جاراً له وجيهاً ووكل إليه القيام بهذه المهمة.

فجــاء إلــيه يحمــل البشرى بالقبول مع بعض الشروط التي وافق عليها بالنــيابة عــن زيــد، لأنها ليست مما يصعب القبول به، من تلك الشروط أن لا يمــنعها مــن زيارة أهلها في قريتهم في كل شهر على الأقل، إذا أرادت ذلك، ومنها أن يكسوها مرتين في السنة، مرة في الشتاء ومرة في الصيف.

ومــنها أن لا يقــدم زوجته الأولى عليها في شؤون البيت، فلا تكون مفاتيح الطعام بيد زوجته الأولى دونها، وألا يفضل زوجته عليها بمصاغ أو نحوه.

وألا يحملهــا عمل البيت الشاق وحدها، بل عليه أن يجعل زوجته الأولــى وبناته يتحملن ذلك معها. وقد علل والد الفتاة هذا المطلب الأخير بأن ابنته لا تزال صغيرة السن، وأنها لم تتدرب على أعمال البيت الشاقة،

لأن أمهـــا كانت تقوم عنها بذلك. إضافة إلى وجود عمة لها أرملة تعيش معهـــم فـــي البيـــت وتقوم بأكثر العمل الشاق فيه، لأنه ليس معها أطفال يشـــغلون وقـــتها، وقد رأى زيد المطية في الإسراع بالموافقة، على هذه الشـــروط أمراً لا ينبغي لا لأنها شروط صعبة، ولكن لأنه لا ينبغي لوالد الفـــتاة أن يذكرها، وأن يشترطها إشتراطاً، وإنما يمكنه أن يطلب تحقيقها مـــن زيـــد وأن يحققها له زيد لأنه يعتبر أن المصاهرة صلة توجب على طرفيها القيام بأكثر من ذلك.

ولكن قريبه قال له:

(بعض الناس يشترطون شروط أعظم من هذي ولكنهم ما يلتزمون بها لأنه إذا صلحت حال الرجل مع مرته، فالأهل مالهم كلام).

الفصل العشرون

الزواج الثاني:

كـــان زيـــد بن مقرب المطية خلال ذلك الانتظار الطويل قد أكمل إعداد الجهاز الذي سيرسله مع المهر، ولم يزد عليه إلا عباءة لوالد الفتاة قـــال له قريبه: إن وجودها ضروري لأن صهره رجل وجيه، وقد قبل به زوجـــاً لابنته من دون أن يعرفه بنفسه معرفة حقيقية، وإنما ذلك كان بناء على ثقته بالخاطب الذي زكى عنده زيداً وأثنى عليه.

لقد زف زيد البشرى إلى والدته، وإلى أقاربه.

أمـــا زوجته موضي فإن أحداً لم يخبرها بذلك، وإنما عرفته بنفسها اســـتنتاجاً لا صـــراحة، فلقد اشترى زوجها له نعلاً جديداً وعباءة جديدة وثوبـــاً أبيض جديداً وكوفية (شماغاً) جديداً، وليس بالمصادفة أن يشتريها كلهـــا فـــي آن واحد، كما أن الدليل الأوضح من ذلك أنه لم يلبسها وإنما أدخلها عنده في مخزنه الخاص فعرفت موضي أن هذه الملابس لا تكون مجتمعة إلا لزواج، وبخاصة أنه لم يلبسها بمجرد شرائها، كما هي عادته إذا اشـــترى نعـــلاً جديـــدة إذ هو مثل غيره من الناس في ذلك الوقت لا يشترون النعال والملابس الجديدة إلا بعد أن تصبح القديمة خلقة، لا يمكن لبسها وبطبيعة الحال لم تفاجأ بالأمر، لأنها كانت قد علمت به من قبل، بل قـــد وطـــدت نفسها عليه، إلا أن الخوف من قرب مواجهة المتاعب يزيد الجزع والخوف من المستقبل.

كان الجهاز الذي سيرسله زيد المطية مشتملاً على ما يلي: الألحفة الثلاثة التي قدمنا ذكرها وأردية ثلاثة وثياب للزوجة منها الثوب الحريري وثلاثـــة أثـــواب قطنية، وقطع من قماش أسود لأمها، وطاقة من القماش

الأسود الرقيق الذي تستر به المرأة رأسها ووجهها إذا خرجت من بيتها، أو إذا كان في بيتها وعندها من تحتشم منه.

وإلـــى جانـــب ذلـــك مائة من الريالات الفضية على أن الذي دفعه مهرا لزوجـــته (موضـــي) كـــان أقل من ذلك إذ كان ٧٠ ريالاً ومع أنه لا يتوقع أن تكـــون الزوجة الجديدة على مثل ماهي عليه (موضي) من خلق ووفاق معه، إلا أن ارتفـــاع المعيشة الذي لا يعرف له هو وأمثاله مبررا هو الذي جعل الأشياء ترتفع ارتفاعاً طفيفاً، أكثر مما كانت عليه عندما تزوج موضي.

ولقـــد كان قد قرر في ذهنه أنه تكفي مهراً لبنت تتزوج لأول مرة ثمـــانون ريـــالاً، وقد أعدها من بين ما أعده وظن أنها أكثر مما يجب أن يدفعـــه، غير أن جاره الذي كان في الوقت نفسه هو الخاطب له أقنعه بأن يزيد المبلغ عشرين ريالاً بحيث لا يقل عن مائة ريال، وقال له:

(يـــا زيد صحيح أن مية الريال كثيرة لكن لا تنسى أنك أنت رجل جهاز ما أنت شاب توه طالع على الدنيا، ولا له مرة ولا عيال).

فاستوضح زيد منه كلامه فقال:

(يا زيد أنت ما سمعت المثل اللي يقول: (الرجال ثلاثة رجل جواز، ورجـــل جهـــاز، ورجل ما ينفع ولا ينجاز) ففهم زيد ما يعنيه وقال: الله يهديك يا أبوفهد، يعني أنا ما يغوني إلا لأجل الجهاز الذي ادفعه؟

ففطن قريبه إلى أثر هذا الكلام في نفسه وقال:

(أبـــدا أنـــا ما قصدي كذا، أنا أعني أنك رجال لك مرة وبنات ولا انتب ريّـــض وتشـــيب فلازم أنك تزيد الفلوس، وإلا أنا أعرف أن الرجّال ما عطاك بنيته لأجل الدراهم لأنه ما سألني لا قبل ولا عقب عن اللي تبي تدفعه).

وهكـــذا رضي زيد بأن يدفع مائة ريال مع أن هذا في الحقيقة مبلغ كبير بالنسبة لأمثاله.

أرســـل زيد المهر مع أحد الجمالين في موعد أخبر به صهره قبل ذلك ثم لبث فترة من الوقت بلغت نحو أسبوعين وأرسل قريبه إلى صهره المنتظر يسأله أن يحدد موعد الزفاف، ولكن هذا اعتذر بأنهم يحتاجون إلى بعض الوقت حتى يكملوا استعدادهم بخياطة الثياب، وشراء بعض الأواني والأغـــراض التـــي تشترى من المهر وتحضرها العروس معها إلى بيت زوجها. ثم قال: سوف أخبركم إذا انتهينا.

وبـــالفعل اتصـــل بهـــم بعد عشرة أيام وحدد الموعد في مساء يوم الخميس بعد أسبوع.

أخذ زيد بن مقرب المطية يستعرض في ذهنه أقاربه وجيرانه الذين سيدعوهم إلى مرافقته ليلة الزفاف، وربما كان يود أن يجعل عددهم أكثر لـــو لا أنه يحسب حساب (المواصلات) ذلك بأن القرية التي سيتزوج منها تـــبعد عن بلدته نحو ثمانية كيلات، وهذه لا تقطع إلا على ظهور الحمير وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالعرس الذي سيكون فيمن يذهبون إليه كبار فـــي السن، وربما يكون فيهم من هو معتل الصحة لا يستطيع المشي على قدمـــيه، ولـــو كان الأمر يتعلق بمجرد مسافة ثمانية كيلات فقط وبصفة انفرادية لكان بإمكان الرجل أن يقطعها بسهولة سيراً على قدميه، وبخاصة إذا اختار الوقت المناسب من الصباح المبكر.

أما في مناسبة الزواج فإن الأمر يقتضي أن يكون هناك موكب لكل واحد من المشتركين فيه مركوب خاص.

ومـــركوب الجميع هو الحمار فهو الوسيلة الوجيدة لقطع المسافات القصيرة التي لا يحتاج الراكب فيها إلى حمل الزاد والمزاد.

والمشـــكلة بالنسبة إلى زيد أنه لابد أن يهيء لكل مرافق واحد حماراً واحـــداً ومن أين له بأن يجمع عدداً كافياً من الحمير مع أن بلدتهم ليس فيها مكـــارون يؤجرون حمرهم للانتقال بها من قرية إلى أخرى وإنما الوسيلة لذلك أن يســـأل مـــن عـــنده حمار أن يعيره حماره لهذه المناسبة وأن يستنجد بأقاربه وأصدقائه كي يجمعوا أكبر مما جمعه منها ومن المزارع التي حولها.

وكـــان لابد لهم من زيارة بعض الفلاحين والمزارعين الذين قد يوجد عند الواحد منهم أكثر من حمار واحد غير أنه ليس كل حمار يصلح لموكب العـــرس إذ بعـــض الحمـــير فيه (طبع ردي) فهو قد (ينكر) أي: يجمح ولا يستقيم جريه، و بعضها قد يربض وذلك أمر مخجل في مثل هذه المواكب.

لذلـــك لـــم يســـتطع زيـــد أن يحدد عدد الأشخاص الذين سيدعوهم إلى مرافقته بالضبط إلا بعد أن عرف بالتقريب عدد الحمير التي سيحصل عليها.

وقـــدر زيد أنه يمكنه أن يحصل على خمسة وعشرين حماراً فقرر أن يدعـــو ثلاثـــة وعشرين رجلاً لمرافقته إذ اعتبر اثنين بمثابة الاحتياط للطـــوارئ لأنـــه أما أن يحضر أكثر مما قدره من العدد باثنين أو أن لا يحصل على اثنين من الحمير.

وعندما ظن أن هذه المشكلة قد حلت، وتنفس الصعداء من ذلك في محضر من بعض أقاربه قال له أحدهم:

(المشـــكلة مـــا هيب مشكلة الرجال اللي حصلتم لهم حمير، المشكلة مشكلة العيال اللي يبون يجون مع أهلهم ما ندري كم هم ولا نقدر نحصل لهم حمير).

فعلق زيد على ذلك بقوله:

(أي والله صحيح، هي مشكلة لكن ليش يجيبون عيالهم؟ أنا عزمت الرجل الكبير ما عزمت عياله).

فقال قريبه:

(هـذولا هـم وعيالهم مثل اللي قال: متى تحصل كلب بمطلاع؟) يأخذونهم معهم يتفرجون ويشيعون جريش ولحم، ويفكون أهلهم وحريمهم من شرهم في البيت!).

فقال زيد:

(والله يا أخي هذا شيء ما ينبغي، الرجل اللي رجل صحيح إذا عزم مـا يجيب عياله معه، إلا إذا عزموا معه إذا قال له اللي يعزمه إيت أنت وعيالك فلا بأس).

فقال أحدهم:

(الحاصل؟ الحاصل وش نسوي بهم؟ ما عندنا لهم حمير يركبونها، ثـم المشكلة أنهم يفشلوننا عند معازيبنا يمكن إنهم يظنون إننا ما نجيب إلا خمـس طعش ولا يدرون إلاّ أننا جايبين ثلاثين أو أكثر، وش نقول لهم؟ نقول لهم: إن بعض اللي معنا جاؤا بلا عزيمة؟).

فقال أبو فهد جار زيد الذي يعرف والد الفتاة:

(لا، من هالجهة لا تهتم، رفيقكم جمل، ما يهمه كثر اللي يجون يبي يصـير مسـتعد لهم ولأكثر منهم. ثم أضاف قائلاً: أهل القرايا إلى قاموا بالوجبة قاموا بها صحيح).

فقاطعه أحد الحاضرين قائلاً:

(وش السبب اللي هم أخير قومة من أهل البلدان؟).

فأجاب أبو فهد:

(لأن كل اللي بالقرية يدرون بها الوجبة ولا يقدر راعيها يخص أحد دون أحـــد وإلاّ صـــارت ناقصة بحقه، أما البلدان فهم ما يدرون كلهم ولا يقدر يعشيهم كلهم لأن عددهم كثير).

وهـــنا فطن زيد إلى أنهم قد ابتعدوا عن مشكلة توفير الحمير لأبناء المدعوين فقال: (الحكي بمسالتنا وش نسوي بها؟ منين نجيب حمير لعيال المعازيم؟).

فقال أبوفهد:

(يـــا الربع هذولا ما حنا مكلفين بهم، اللي يجيب عياله هو اللي يدبرهم، إما يردفهم معه على حماره، أو يخليهم يمشون حنا ما علينا منهم).

فوافقوا على ذلك.

وبيـــنما كـــان زيد يسعى في شأنه بهذا الشكل كان صهره المنتظر وأهلـــه وأقاربـــه يســـعون سعياً أكثر من ذلك واشق منه، إنهم يفعلون ما يفعلونه، ويرتبون ما يرتبونه وهم يرددون قولهم:

(الله يسترنا من هالاجناب، الله يجعلها تنتهي على خير).

وقـــد فـــرغوا من خياطة الثياب، وشراء الأواني والأغراض التي ســـتذهب بهـــا العروس، كما جهزوا الجريش الذي سيطبخونه في وليمة العرس والناقة المسنة التي سيذبحونها.

وبقيـــت أشـــياء صـــغيرة ولكنها كانت مقلقة لهم مثل وجود سراج إضـــافي جميل لأن القرية ليس فيها إلاّ اثنان سيضعون أحدهما في مجلس

الــرجال والأخر في مجلس النساء، أما الثالث الذي سيحتاجونه ولابد أن يكون نظيفاً فإنه الذي سيوضع في غرفة الزفاف.

ولنلق نظرة عجلى على الشخصيات التي يعنيها أمر العرس في هذه القرية أكثر من غيرها:

إنها أولاً: والد العروس اسمه (سليمان الحراث) رجل في الستين من عمره يملك حائط نخل صغيراً لذلك لم يقتصر عليه، بل كان أحياناً يداين بــنقود قلــيلة خلفها له والده، يداين بها الفلاحين من أهل القرية والقرى المجــاورة يبيع عليهم ما يساوي عشرة ريالات بأثني عشر ريالاً، إذا كان المديــن ملــياً مضــمون الوفــاء، وكان لديه رهن للدين من بيت أو بستان أو نحوهما كشجر الأثل الذي يستثمرونه من أجل خشبه.

وبأربعــة عشــر ريالاً، وأكثر من ذلك إذا كان معسراً، وليس لديه رهن أو عرف بعدم الإسراع بسداد الدين.

أمــا صفات سليمان الحراث الجسمية فإنه وهو في نحو الستين من عمــره جــيد الصحة ما عدا ضعفاً في بصره لأن إحدى عينيه كانت قد ذهبــت عــندما أصيب بالجدري وهو صغير وقد ترك الجدري في وجهه ندوباً صغيرة غيرت قليلاً من صفاته.

وكان رجلاً ممسكاً نوعاً مع أنه يكسب أكثر من غيره، وربما كان لذلك أثره على وضعه الاجتماعي فقد كان تزوج في شبابه من ابنة عم له فأحــبها وأحب فيها أنها تعرف طبيعته فتأتي ما يحب، وتتجنب ما يكره، فهي تدبر ماله ولا تضيع منه شيئاً.

إلا أنــه لــم يعــش منها له أولاد فكانوا ذكوراً وإناثاً يموتون وهم

صـــغار، وفـــي أول حمـــل حملته وفي آخر مرة حملت سقط الجنين قبل الموعد الطبيعي للوضع.

ولم يسرع إلى الزواج بأخرى لأنه يخشى ألا يجد من تناسب طبعه وهـــواه إضـــافة إلى خشيته من زيادة المصروفات، حتى مرضت زوجته بذات الجنب وماتت.

عندئذ تزوج من (حصة) زوجته الحالية وكانت من بيت لا بأس به أهلـــه كـــانوا من ميسوري الحال ولكنهم افتقروا، فكان في طبعها من أثر الغني شيء ومن أثر الحاجة وتقدير المال أشياء.

وقد رزق منها سليمان الحراث أول ما رزق ببنته (هيلة) هذه التي ســـيتزوج بهـــا زيـــد بن مقرب المطية، فكانت أول مولود يعيش لسليمان الحراث إضافة إلى كون أمها لبثت مدة بعد ولادتها لم ترزق بمولود آخر ثـــم رزقت ببنت بعد أن مضى على ولادة هيلة سنوات ما لبثت البنت أن ماتـــت بعد أن تم من عمرها ثلاث سنين في وباء من داء الحصبة اجتاح المـــنطقة وقضـــى علـــى عدد كبير من أطفالها، وفي نفس الوقت رزقت بمولود ذكر، سموه (عليا) على اسم والد سليمان الحراث لذلك نشأت هيلة مدللة تلبي أكثر طلباتها التي تريدها من أهل البيت، وكانت في ذلك الوقت قـــد تجـــاوزت الخامسة عشرة ولكنها لا تكاد تحسنُ شيئاً من عمل البيت، وهـــي علـــى جانـــب من الجمال سواء في بشرتها وتقاسيم وجهها، وفي جسمها الذي يميل إلى الطول مع رشاقة في غير نحافة، مما جعلها خفيفة الحركة، سريعة الخطوات دون هوج.

وكانـــت ذات شفتين ممتلئتين بعض الشيء وثغر فتان البسمات مما يرشحها لأن تكون معشوقة لشاب من الشباب ذوي المزاج الشاعري لا أن

تكون زوجة لكهل وقور مثل زيد بن مقرب المطية.

إلا أن أحـــداً لم يفاتحها في موضوع زواجها منه، وإنما قضي أمر الـــزواج بـــدون علمها، ولم يخبروها بشيء عنه إلاّ بعد أن أعطوا الكلمة لزيد، وبعد أن ساق زيد المهر بالفعل، وكان المهر بالذات هو الذي جعلها تعرف بأمر الزواج إذ سألت أمها قائلة:

(من هو له ها المنام الجديد يا أمه؟).

فأجابتها أمها:

(هذا منامك يا هيلة!

فدهشت وقالت: أنا عندي منام زين، وبعدين هذا كبير هذا أكبر من منامك أنت وأبوي).

فقالت أمها:

(إيـــه كبـــير، لأنـــه ما هوب لك لحالك لك أنت ورجلك)، فلما بدت في حيرة، وكأنها لم تفهم شيئاً من الأمر قالت لها أمها مسرعة كي تبدد حيرتها:

(أنت تبي تعرسين يا هيلة، الله يكبر بختك) يا بنيتي، والله أبوك ما قصر دور لك الرجل الطيب وشاورني عليه قبل يعطيه).

فسألت أمها بعفوية قائلة:

(من هو يا أمه؟).

فقالت أمها:

(لا تستعجلين، إصبري شوي وتعرفينه).

ولـــم تكـــن هيلة في واقع الأمر قد رسمت في ذهنها صورة كاملة لشـــريك حياتها ما عدا الصورة التي ترتسم غالباً في ذهن الفتاة من كون فارس الأحلام شاباً قوي الجسم، بهي الطلعة.

فســـكتت مـــا دامت أمها قد ذكرت لها أن أباها قد اختار لها الرجل الطيـــب فلابـــد أن يكون مرضياً لها، ولم يكن بإمكانها ولا بإمكان بنات جنسها أن يكون لهن يد في اختيار الزوج في مجتمعها.

أمـــا مـــا أشارت إليه الأم في حديثها من أن زوجها قد شاورها في زواج (هيلة) فإن ذلك كان صحيحاً.

ولقد تم ذلك على الوجه التالي:

عـــندما تقدم قريب زيد إلى سليمان الحراث بخطبة ابنته لزيد، وبعد أن ذكـــر له مـــن المرغبات فيه ما أقنعه نادى زوجته (حصة) وأخبرها بالأمر وبأنه يرى أن يوافق على هذا الزواج، ولكنه عندما ذكر لزوجته أن زيـــداً رجل في منتصف العمر وله زوجة وبنات اعترضت على تزويجه وقالت (هذي بنت صغيرة مزيونة تبي لها ولدٍ مثلها).

فقاطعها قائلاً:

(الكـــبر ما هوب عيب هذاي أنا أخذتك وأنا كبير ولا ضرك هذاك منبسطة معي ولا عندك خلاف).

فقالت:

(أي والله منبسطة يا أبو علي عسى الله يخليك لنا) لكن أقول، يعني هالبنية، يعين أقول..)

فقاطعها أيضاً قائلاً:

(لا تقوليــن شيء أنا معي علم بالذي أنت تبين تقولين إنها بنت تبي ولــد، لكن معك علم إنها لو أخذت ولد فهي ماهيب صايرةٍ قبلٍ بنت وإن رجلها لابد إنه يعرس عليها عقب ما يتزوجها بعشر سنين أو خمس طعشر سنة أو عقب عشرين سنة، ثم هكالحين وش تصير حالها؟ لا، خليها تصير هي الجديدة على زوجة قديمة أزين لها من أنها تجيها زوجة جديدة بعدين وتغل كبدها على حد كبرها).

ثــم سكت لحظة لم تعقب فيها زوجته على كلامه لأنها كانت تفكر فيما قاله. ثم قال:

(الــرجّال هــذا تبي تصير بنتك آخر حريمه ماهوب متزوج عليها، يبي يحشــمها وبعديــن تارثه وهو يقولون، إنه دسم ما هوب خالي من الدريهمات) وكانت حصة قد اقتنعت بما قاله بعد أن فكرت فيه، ولكنها قالت:

(صــحيح كلامــك بس البنت وش تسوي إذا دخل عليها الرجل؟) فأجاب بدون مبالاة:

(تســوي مــثل مــا ســوت الحريم اللي غيرها، وبعدين ترغب به ويرغب بها).

الفصل الحادي والعشرون

العرس:

تحدد الموعد من بعد صلاة العشاء من يوم الخميس، وقد واعد زيد الأشخاص الذين سيرافقونه من أقربائه وجيرانه أن يجتمعوا في بيت أحد جيرانه لأنه بيت واسع وصاحبه ميسور الحال قد جهزه بالفراش المناسب، وكان زيد يقول لمن يواعده:

(لا تقطعنا ترى الوعد الساعة اربع الضحى عقب ما تغدى تجيء ترى اللي يتأخر ما حناب منتظرينه).

وقد قال هذا ليحثهم على التبكير وإلاّ فهو يعلم أنهم لن يسيروا بمجرد حلول الموعد ويتركوا من تخلف عنه، كما أنهم قرروا أن يتحركوا في الساعة الخامسة بالتوقيت الغروبي، وإن كانوا قد ذكروا لمن سيرافقهم أن موعد التحرك هو الرابعة، ومع ذلك فإن أكثر رفقائهم قد عرفوا بذلك من واقع تجربتهم لمثل هذه المواعيد فلم يحضروا إلاّ في الخامسة فراراً من انتظار مُملّ.

ولم يتخلف عن الحضور إلا شخصان أحدهماله عذر حقيقي، والثاني تصنع المرض للتخلص من الذهاب.

سار الموكب تعلوه سحابة من غبار تثيره حوافر الحمير، وكان أكثر ما يسمع فيه إلى جانب نَهْر الحمير والدعاء عليها وفي بعض الأحيان على من باعها أيضاً ضحكات الراكبين والسخرية ممن لا يحسن ركوب الحمير، ولقد وقع واحد من هؤلاء عن ظهر الحمار لهذا السبب، فضحك منه الجميع وبعضهم استهزأ بمهارته فخجل من ذلك وتمنى أن

سبيله كان سبيل (حمد) الذي تصنع المرض واعتذر عن الحضور، وكان أكثر ما آلم (ناصر) وهذا هو اسم الذي وقع من الحمار أن أحدهم أراد أن يخفف من اللوم على السقوط من ظهر الحمار فقال:

(يـــا جماعـــة على هونكم على (ناصر) أنتم تلومونه وأنتم مخطين عليه، لأن الخطأ ماهوب منه الخطأ من الحمار هو اللي صعب وقوي ورا ما دورتوا له حمار هادي؟ حمار ابن حلال ماهوب مثل هذا).

وكـــان هذا الكلام أعظم على (ناصر) من السقطة لأن معناه أنه لا يســـتطيع التغلب إلاَّ على حمار ضعيف، مع أنه يعلم أن حماره ليس قوياً ولا شرســـاً لذلـــك عـــند ما قال أحد الراكبين على حمار شرس قوي: أنا مستعد أعطي حماري ناصر ويعطيني ناصر حماره لم يقبل ناصر بالمبادلة.

وهكـــذا ســـار الموكب المرح في وسط نهار شتوي غير بارد لأن الشمس كانت ساطعة، وليس هناك رياح باردة.

وكان عليهم أن يصلوا إلى هدفهم بعد صلاة العصر لأنه هو موعد طعام العشاء الذي سيتناولونه عند سليمان الحراث.

ولـــم يقفوا إلا مرتين إحداهما لصلاة الظهر عندما حلَّ وقتها وثانيتهما لصـــلاة العصـــر عند ما حان وقتها، حيث وقفوا عند بئر في أرض زرعت قمحـــاً فـــي أطراف قرية الخضراء التي يقصدونها فصلوا العصر عندها ووصـــلوا إلى القرية بعد صلاة العصر بنحو نصف ساعة ووجدوا منزل صاحبهم سليمان الحراث مكتظاً بالمدعويين لوليمة العرس حتى خيل إليهم أن جميع رجال القرية وفتيانها قد حضروا.

رحـــب بهـــم ســـليمان الحراث ترحيباً حاراً ثم تركهم وانصرف ليشرف

علـــى إعـــداد الوليمة للأكل، فواصل الترحيب بالقادمين أهلُ اللسن والجرأة من أهـــل القـــرية الذيـــن ذكروا أن توجه هذا العدد من الرجال الطيبين أو (اللحى الغانمة) على حد تعبيرهم إلى قريتهم يعد تشريفاً لها.

وبعـــد أن اطمـــأن بهـــم المجلس في غرفة القهوة التي كانت مليئة بالجلوس من أهل القرية لكنهم تركوها للضيوف إعزازاً وإكراماً وجلسوا في أرض مكشوفة خارجها، بادرهم شبان من أهل القرية بإعطائهم القهوة العربـــية يسكبونها في فناجين كانوا قد جمعوها في إناء كبير فيه قليل من المـــاء يضـــعون فـــيه الفناجيـــن المستعملة، فإذا أرادوا أن يصبوا القهوة لشخص أخذوا له الفنجان من الإناء وقد يحركونه في الماء قبل أن يأخذوه، ليـــتم غسله في هذا الماء مع أن الماء نفسه قد أصبح وسخاً من كثرة إلقاء الفناجيـــن المستعملة فيه، ومن أثر أيدي الذين يصبون القهوة إذ يغمسون أيديهم فيه غمساً.

وكانت مباخر العود تطوف عليهم تفوح منها رائحة بخور من العود غير الجيد.

وبعد ذلك جاء سليمان الحراث فقال بصوت كان يودُّ أن يكون أعلى ممـــا هو عليه لولا خجله من هذا الجمع الذي لم يجتمع مثيله في بيته من قبل قال: (سموا، الله يحييكم، سموا، الله يحييكم).

فنهضوا جميعاً غير أن الذين في مقدمتهم وقفوا متسائلين: (وين الدرب؟).

فانبعثت بسرعة أصوات عديدة من أفواه أهل القرية:

(يا سليمان وين الدرب؟ دِلّ الربع على الدرب).

ثم دفعه أحدهم بيده وقال:

(خلك قدام).

وكـــان قد منعه من أن يتقدمهم ذهول الموقف إلى جانب كون القوم قـــد اندفعـــوا قبله كل يريد أن يتفادى كونه لا يجد مكاناً على المائدة كما يحـــدث في بعض الأحيان على هذه الموائد الكبيرة التي لا تكون الأماكن فيها والأشخاص المدعوون إليها قد جهزت وفق عدد معين معروف، وإنما يكـــون ذلك من باب التخمين والتقدير الذي يكون لكرم صاحب الدعوة أو بخلـــه فيها دخل كبير حتى إنهم في بعض الأحيان ربما دعوا إلى الوليمة عشـــرين أو ثلاثيـــن شخصـــاً لم يكونوا قرروا أن يدعوهم من قبل، وبدون أن يحتسبوا لهم زيادة في الطعام، ويقولون إنهم يدخلون في البركة.

وعندما تحلقوا على صحون الطعام لبثوا هنيهة ينتظرون أن يتكامل الجلـــوس علـــى بقـــية الصحون، وينتظرون أن يسمعوا كلمة الإذن من مضيفهم وقد سمعوها منه دون إبطاء إذ قال:

(ســـموا الله يحييكم، هذي والله أبرك الساعات، أعذرونا من الشّوي ونعذركم من الفضلة).

فـــردَّ عليه أحد الضيوف بفم ممتلئ من الطعام لا مجال فيه لغيره: ما مع ذا عـــذر، ولـــم يســـمعه المضـــيف لهذا السبب، ولأنه كان مشغولاً بالنظر إلى الموائـــد يـــريد أن يجلـــس عليها أكبر عدد ممكن من الأشخاص حتى يقل عدد الذين سيخلفونهم على الصحون يأكلون منها بعدهم. لذلك قال:

(تفضـــلوا كلكم لا يقعد أحد، المحل واسع، مع أنه يعلم أنه لا يوجد على الصحون متسع لجلوس المزيد، ولكنه قال ذلك حتى يشعر من تخلف مـــنهم بـــأن تخلفـــه كان من تلقاء نفسه، وإلا فإن المضيف قد دعاه إلى الجلوس على المائدة.

ولـــم تكـــن قلة الأمكنة بسبب قلة في الطعام، وإنما كان ذلك بسبب كثرة المدعوين.

فقد بلغت صحون الطعام اثنين وعشرين صحناً وكلها من الصحون النحاســية الكبيرة ذات القواعد المتصلة بها من النحاس مثلها لترفعها عن الأرض ولكل صحن أربع حلقات من الحديد يحمل بها إذا كان ممتلئاً من الطعام الذي قدموه حاراً بل شديد الحرارة.

أمـــا طعـــام الولـــيمة هذه فإنه مؤلف من شيئين لا ثالث لهما وهما الجـــريش وهـــو البر المجروش بعد أن ينزع قشره، ومن قطع لحم الإبل السمين، إذ كانوا قد ذبحوا ناقة مسنة كبيرة لهذه الوليمة.

انهمـــك القوم في أكل الطعام، ولم يكونوا يتحدثون أثناءه إلا كلمات مـــتقطعة لا تصـــح أن تســـمى حديثاً، وذلك لأن كل واحد منهم يريد أن يحصـــل على نصيبه كاملاً من هذه الوليمة التي لا يتكرر حضوره لمثلها كثيراً. وذلك قبل أن ينهض عن المائدة واحد من الذين لا ذوق عندهم ولا يـــراعون مشاعر الذين هم بالفعل في أمس الحاجة إلى أن يشبعوا من هذه الولـــيمة، لأنـــه إذا نهض شخص واحد من المائدة فأنه يجب عرفاً على الباقين أن ينهضوا كلهم ولو كانوا لم يحصلوا على كفايتهم من الطعام.

ولذلـــك كان بعض العقلاء وأهل الحصافة من القوم إذا شبع المرء منهم من المائدة فإنه يبقى في مكانه، ولو لم يأكل حذراً من أن يكون سبباً في حرمان من لم يأخذوا كفايتهم بعد من الطعام.

وقد فرغوا من طعامهم بعد أن بقي على غروب الشمس نحو نصف ساعة فقال لهم أحد وجهاء القرية:

(أقلطوا الله يحييكم، القهوة جاهزة).

وما كادوا يفرغون من شرب القهوة في بيت الوجيه المذكور الذي رحـــب بهم، وحمد الله تعالى على أن يسر لقرية (الخضراء) زيارتهم في هذه المناسبة السعيدة إلا وقد أذن لصلاة المغرب.

وبعد صلاة المغرب ذهبوا إلى بيت آخر فتناولوا القهوة فيه بسرعة، ثم أخذوهم إلى بيت ثان، لم يكد القوم يستقرون فيه ويشربون فنجاناً سريعاً مـــن القهوة، ويستنشقوا قليلاً من دخان البخور حتى طلبوا منهم مغادرته إلى بيت آخر تناولوا فيه القهوة أيضاً، وإذا بالمؤذن ينادي لصلاة العشاء.

الفصل الثاني والعشرون

الزفاف:

كانـــت حفلة الزفاف إن صح هذا التعبير بسيطة لم يختلف الأمر فيها عن الأمر في زفاف (موضي) الزوجة الأولى لزيد المطية إلا أن الذي صار دليل زيد في هذه المرة هو والد الفتاة وليس أخاها لأنه ليس لها أخر كبير.

عندما دخل زيد المطية غرفة الزفاف التي هي غرفة نوم العروسين وجد فيها المرأة التي يسمونها (البيَّاعة) وقد أمسكت بالعروس تحجزها عن الفـــرار، وهي تجاهد في أن تبقي عليها حتى يتسلمها زوجها منها، ولذلك عندما قال لها زيد المطية:

(ورا ما حطيتوا مصلى- أي فراشاً من الحصير- نصلي عليه؟

أجابته قائلة:

(تراك إن ما مسكت البنت شردت وخلتك!).

ثم انتزعت يده بالقوة وجعلته يسمك بالعروس، وكأنما تخلصت من عمـــل شاق ووقفت منتظرة ما سوف يضع في يدها إلاّ أن نقوده الفضية كانت في جيبه، ولا يستطيع أن يخرج لها شيئاً منها إلا إذا كان حر اليدين فقال لها:

(أمسكيها الله يهديك).

وكـــان إخراج النقود هو ما تريده فأمسكت بالفتاة التي كانت تبكي وتحاول التفلت بعصبية ظاهرة، فقالت المرأة لزيد:

(خلك واقفِ عند الباب تراي أخاف تنفلت مني)

ثـم نـاول المرأة ثلاثة ريالات فضية أخذتها شاكرة ودعت له بالتوفيق وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها بعد التعب التي عانته وأغلقت الباب خلفها.

أمـا زيـد المطية فإنه كان لا يزال ممسكاً عروسه بكل قوته وهي تجـاهد بكـل قوتها أيضاً لكي تفلت منه وتهرب، ولكن دون جدوى، فقد أمسـك بهذه الفتاة التي بدا له ما لمس من أطراف جسمها شيئاً يستحق أن يحافظ عليه رجل مثله لم يمس امرأة شابة بعد زوجته التي أصبح شبابها مجرد ذكريات عفا عليها الزمن.

كـان سـبب هذه الشراسة الواضحة، والنفور الشديد من العروس الشابة أن بعض لداتها من بنات القرية اللاتي حسدنها على زواجها قبلهن قـد أوعـزن إلى بعض النساء أن يخبرنها بأن زوجها ليس شاباً بل هو (شايب) على حد تعبيرهن، وقلن: إن لحيته بيضاء، وإن كان الصحيح أن الشـعرات البيض فيها ليست إلا نحو ربعها. وقلن: إنه ذو زوجة وأربع بنات، ثم خلعن عليه صفات غير مرغوبة ليست بحقيقية.

وعـندما ذكرت لأمها ذلك لم تستطع الأم إقناعها وقالت: إن الأمر كلـه بـيد والدها لذلك ظنت أن جميع ما ذكر لها فيه صحيح، أما والدها فإنها لا تستطيع أن تفاتحه فضلاً عن أن تجادله في هذا الموضوع.

لبث زيد المطية ممسكاً بعروسه يحاول أن يهديء من روعها، وقد كرر عليها العبارات التي كان قالها لزوجته موضي، ووجد لها أثراً جيداً في نفسها ومنها قوله:

(يـا بنـت الحلال أنا أبي أصير أبو عيالك، وأنت تبين تصيرين أم عيالي، خلي عنك الهبال اللي ما ينفع).

ولكن تلك العبارات لم تنفع فيها.

وأخيراً حاول أن يشدها إليه لتكون أقرب منه، وكان قبل ذلك يحاول مجرد إمساكها عن الانفلات، فلما فعل ذلك بالقوة انشبت أظفارها في يديه وساعديه وقربتها من وجهه تحاول أن تخدشه أيضاً إلا أنه ابتعد عنها وأطلقها من يديه، فولت هاربة وهي تولول.

وعندما غادرت الغرفة أخذ ينظر إلى الخدوش التي أصابته منها، وتنفس الصعداء إذ استراح من التعب إلا أنه عندما تفكر فيما واجهه منها أصابه من الهم أكثر مما أصابه من الغم، إذ قال في نفسه:

(وش الحيلة بها المرة؟ المشكل إن كان هي ما بغتني وقالوا أهلها: هي ما تبيك ولا نقدر نغصبها عليك، ورا ما رفقت بها؟).

ثم أجاب نفسه على هذا السؤال بقوله:

(لكن أنا ما سويت بها شيء لا ضربتها ولا عاسرتها بس مسكتها، وش يبون الرجّال يسوي بحرمته إذا ما بغت تقعد عنده؟ أقل شيء إنه يمسكها).

ثم أخذ يفكر في علاج ما حدث، وقد جعله ما مسه منها يزداد تمسكاً بها، فماذا يصنع؟

أيخرج من الغرفة ليبحث عنها في البيت؟

إن ذلك أمر لا يقره العرف، أم ينادي والدها ويطلب منه أن يعيدها إليه؟

إن ذلك أيضاً أمر غير مناسب، وماذا لو قال له والدها: كيف تركتها تفلت منك؟

إن ذلك سيكون تأنيباً لا يستطيع أن يتحمله.

وبقي متحيراً لا يدري ما يصنع وإذا به يسمع صراخاً وأصواتاً

مــرتفعة مختلطة ما لبث أن اتضح منها أثنان أحدهما صوت فتاة تصرخ بصــوت عال وهي تحاول أن تكتم صراخها، والثاني: صوت رجل يتكلم بغضب، ثم ما لبث باب الغرفة أن فتح بعنف، وعرف زيد الحقيقة، وهي أن والــد العــروس قــد جاء بها يعيدها للغرفة وبيده عصا كان يضربها به، ثم دفعهــا إلى الغرفة دفعاً وهو يهددها ويتوعدها بأنها إذا خرجت من الغرفة مرة ثانية فإنه سيضاعف عليها الضرب، وكان يدمدم بعبارات منها قوله:

(انت بنت ما بك خير، انت ماانتيب كفو لها الرجَّال الطيب، انت ما ينفع بك العلم الزين).

ثم قال لزيد المطية دون أن يحييه:

(افطن لها لا تطلع، عندك اياها ترى اللين ما ينفع بها!).

ثم أغلق باب الغرفة وانصرف.

كان فرح زيد المطية برجوع زوجته إليه غامراً، وقد عزم على أن يمنعها من مغادرة الغرفة هذه المرة بأي حال من الأحوال. إلاَّ أنها هي لن تفعــل ذلــك بســبب خوفها من أبيها الذي هددها إذا فعلت ذلك بالضرب والإعادة إلى الغرفة.

لذلــك انزوت في أحد أركان الغرفة وهي تبكي وتنتحب، فقرر زيد أن يأخذهــا هــذه المرة باللين والمداراة بعد أن ضمن عدم فرارها عنه، فجلس على الفراش وتركها في زاوية الغرفة التي اختارتها ليس تحتها إلا الحصــير. ولكــنها في تلك الساعة لم تكن لتلقي بالاً لما تجلس عليه ولما أحــس بأن نشيجها قد هدأ وأن بكاءها قد خف، تمدد على الفراش متصنعاً النوم، وكان في ملابسه النظيفة الجديدة، ووجهه الخالي من سمات الشر،

بل إن قسماته لتوحي بالطمأنينة وهي تسارق النظر إليه، وإلى حركاته في الفراش مما جعل نفورها منه يقل، ولكن ذلك لم يجعلها تقبل به زوجاً لها، وإنمـــا جعلها لا تنفر منه كمخلوق ألجأتها الظروف إلى أن تعيش بقربه، كما أنها لم تر فيه رجلاً كبير السن أو شائباً على حد تعبير النسوة اللاتي حدثـــنها عـــنه، وقد أحس منها زيد بذلك إلا أنه لم يبادر بالخطوة الأولى حذرا من أن يكون لها رد فعل ضار، ونام في الفراش.

وعـــندما صـــحا من نوم لا يدري كم استغرق من الوقت وجدها لا تزال في زاويتها، وقد مال رأسها من النعاس، فنبهها بأطراف أصابعه، ثم قبل خدها برفق قبل أن تستطيع دفعه وأخذ بيدها برفق قائلاً:

(ما يصير إني أنا أنام على الفراش وأنتِ تنامين على الأرض، إلاّ أنها لم تستجب له فأخذ أحد اللحافين المفروشين وفرشه لها وقال:

(اللـــي يرضيك هو المبارك نامي على لحاف وأنا أنام على الآخر، بس لا تفضحيننا عند أهلك).

وعـــند الفجـــر جاءت المرأة التي زفت إليه الزوجة توقظه لصلاة الفجر ووجد أنها قد أعدت ماء ساخناً ليغتسل فيه فاغتسل من باب التمسك بالمظاهـــر، وتلافي شماتة الأعداء، وإلا فإنه لم يقرب زوجته حتى يكون هناك داع للغسل.

وقـــد اســـتمرت معاملته لزوجته باللين والرفق حتى خفَّ جماحها، وذهب نفارها وبعد ثلاثة أيام رحل بها إلى بيته.

الفصل الثالث والعشرون

الضرتان:

لـــو استقصينا قصة الصراع الذي نشب بين الضرتين في بيت زيد بـــن مقرب المطية لكنا بلا شك قد سببنا للقارئ كثيراً من الألم والحزن، ذلك بأنه صراع غير متكافئ، فهو بين فتاة جميلة قد أقبلت عليها الأيام في حاضـــرها، وربما تكون في مستقبلها أكثر إقبالاً، وبين امرأة في خريف عمرها قد هجرها حتى الأمل الحلو في المستقبل.

ولم تقتصر المعاناة من هذا الصراع على موضي وحدها، بل تعدته إلى رب البيت الذي كان موزع المشاعر رغماً عنه بين عاطفته التي تميل كمـــا مالـــت الأيـــام إلـــى الزوجة الصغيرة (هيلة) ذات الحاضر الجميل والمســـتقبل المفعـــم بـــالأمل في أن يرزق منها بالولد الذي ينشده، وبين الـــزوجة الكبـــيرة (موضي) التي أضاعت حياته ردحاً من الزمن، وكان سلوكها وتصرفاتها معه موضع رضاه، بل إعجابه وتقديره لا سيما بعد أن جرب الزوجة الثانية.

وقـــد شـــملت المعاناة أيضاً أمه العجوز الكبيرة التي ضاقت ذرعاً بتصـــرفات هـــذه الزوجة المدللة التي تتسم بالغطرسة والإعجاب بالنفس، ومن ثم التعالي على الجميع، حتى على زوجها الذي لا يقارن سنه بسنها.

ولـــيس ذلك فحسب، وإنما هي لا تطيق أن تخدم أم زيد كما كانت تفعـــل (موضي) ومع ذلك لم تفعل العجوز لها شيئاً، ولم تشكها إلى (زيد) حـــذراً مـــن أن يحصل بينهما ما لا تريده من فراق أو طلاق، وهو أمر سينشـــأ عـــنه خسارة مالية لابنها، وفجيعة في أمله القريب في الولد الذي

يرتجيه، لذلك اعتمدت في ذلك على موضي وبناتها.

وقد نشأت بينها وبين موضي علاقة جديدة سببها المشاركة في الألم من هذه الوافدة الجديدة.

وأمـــا البيت فقد أصبح أمره صعبا جدا على موضي، إذ أخذت تشكو مـــن أعمالـــه الشاقة مر الشكوى مع أنه لم يزد أفراده إلا واحدا هو ضرتها (هـــيلة) ومجيئها لا يضيف عملاً كبيراً إلى عمل البيت، بل ربما ساعد على التخفيف منها، لأنها لابد أن تشارك ولو بتحمل بعض الأعمال الخفيفة.

لكـــن الموضـــوع بالنســـبة إلى (موضي) تعدى نطاق العمل المادي إلى نطـــاق المعـــنويات، فقبل مجيء ضرتها كانت تحس بأنها كانت تعمل في خدمة بيـــتها الذي يضم زوجها وأمه وبناتها، وكانت إذا شعرت بأنها تحملت المتاعب في ذلك لم تضق بها لأنه ليس هناك من هو في البيت في منزلتها.

أما الآن فإنها تشعر بأن هناك امرأة أخرى لها منزلة من رب البيت مـــثل منزلتها، فعليها أن تتحمل من عمل البيت مثل ما تتحمله (موضي) ســـواء بسواء، بل إنها لو تحملت ذلك بالفعل لما شعرت موضي بأن ذلك إنصاف لها لأنها كانت تردد كثيراً قولها:

(أحد له البخت بها البيت، واحدٍ عليه الشغل ولا له من البخت شيء).

وهـــي إذ تقول ذلك تعتقد بأن لها الحق فيه إذ تحس بأن عواطف زوجها هي مع ضرتها أكثر مما هي معها، وإن كان يحاول أن يُخفي ذلك.

وكثيراً ما كانت تردد المثل العامي: "من أكل تمرهم، يقوم بامرهم".

غير أن (هيلة) تأكل التمر ولا تقوم بالأمر، لأنها من تلقاء نفسها لا تريد أن تقوم بذلك ولم تجد من يقسرها عليه.

إن الـــزوجة القديمة قد تجد العزاء بعض الأحيان في أن تظل بعد مجـــئ الـــزوجة الجديدة هي ربة البيت وصاحبة الأمر والنهي فيه، وهذا العمل وإن كان فيه مشقة عليها فإنها تجد فيه معاني كثيرة مهمة منها أنه يمـــنحها شـــعوراً بأنهـــا لا تزال شخصية مهمة في البيت يحسب لها الحساب. ومـــنها أنه يمنحها شعوراً بأنها فوق الزوجة الجديدة منزلة عند أفراد الأسرة في البيـــت حـــتى وإن كانـــت أدنـــى منها منزلة في قلب الزوج، و أهم ما في هذه النقطة كونها توحي لنفسها بأنها تذل غريمتها بإصدار الأوامر والنواهي.

وكـــون الـــزوجة الأولـــى تظل صاحبة الأمر والنهي في البيت وهي التـــي تـــتولى إخـــراج الطعام اليومي لأهله هو الشايع في مجتمعهم غير أنه بالنســـبة إلى زيد كان قد قطع على نفسه عهداً لوالد زوجته (هيلة) ألا يحدث هـــذا، وهـــو حريص على أن ينفذ ما وعد به، لذلك كانت الضحية لكل هذا هـــو العجمـــاوات التـــي في بيت زيد وهي البقرة والغنم والدجاج، فقد نالها إهمـــال كثير إذ هي لا تشكو ولا تبلغ بألسنتها زيداً بما تحتاج إليه، وقد فتر حمـــاس (موضـــي) للعناية بها للحالة النفسية التي هي عليها، فأصبحت تكل ذلك أحياناً وبدون اهتمام إلى بنتها، أما (هيلة) فإنها لا تلقى لذلك أدنى بال.

كانت (هيلة) إلى جانب ما ذكرناه من شعورها بأنها الصبية المدللة في نظر رب البيت، وأنها تدل بشبابها ونضارتها، وبأنها فوق ما يستحقه زوجهـــا فإنهـــا بحكم تربيتها في بيت والدها لم تتعود على أعمال المنزل الشـــاقة، ولا تجيد صنع الطعام الجيد، حتى إنها لا تحسن أن تخيط ثوبها كمـــا تفعـــل كثير من النساء في ذلك الوقت، مع أن خياطة الثوب ليست مشـــكلة بســـبب قلة الثياب، وكثرة النساء اللاتي هن على استعداد لخياطة الـــثوب بأجر زهيد. إلاَّ أن ذلك الأجر وإن كان زهيداً فإنه يصعب دفعه

على كثير من الناس بسبب قلة النقود بأيديهم.

وأمـــا بنات زيد فإنهن ناصبن الزوجة الجديدة العداء لا لحدة في طبعهن، أو مـــيل إلى الإيذاء فيهن، فقد كن ذوات طبائع هادئة مثل أمهن غير أن مواقف (هيلة) غير الودية منهن ومن أمهن هي التي حملتهن على ذلك.

ولقد عانى زيد كثيراً من الخصام والنزاع الذي كان ينشب باستمرار بيـــن كـــبرى بـــناته وبين زوجته هيلة لأنهما متقاربتان في السن، فكانتا تختصمان في أمور تافهة، ثم تسرع كل واحدة منهما إلى زيد شاكية باكية مهولة الأمر.

ولذلـــك عندما تقدم أحد الرجال الذين رضي بهم زيد يطلب الزواج مـــن ابنـــته الكبيرة فرح بذلك، وزوَّجه إياها لأن ذلك هو الأمر الطبيعي ولأنه يخفف من الخصام والنزاع في البيت.

ولقـــد كـــان (زيد) يظن أن أمور بيته ستسير بشكل أفضل مما هي علـــيه عـــندما يتزوج بأخرى تشارك في حمل المسؤولية وتضيف قوة إلى قوة الموجوديـــن فـــيه غير أنه تبين له أنه مخطئ في هذا الاعتقاد، بل اتضح له أن العكـــس هـــو الصحيح، وبأنه لابد له من أن يبذل بنفسه مزيداً من العناية حتى تســـير الأمـــور فـــيه وفقـــاً لما كانت عليه قبل الزواج الثاني، فكان لابد له من الـــتلطف بزوجته موضي لكي تعمل كما كانت تعمل في البيت من قبل، ولابد له مـــن الـــتلطف بزوجـــته هيلة حتى يحثها على المشاركة في أعمال المنزل كما تشـــارك الزوجة التي تتمتع بكافة حقوقها على زوجها، فكان يفلح في ذلك فلاحاً جزئياً في بعض الأحيان ويخفق في أحيان أخرى.

ولقـــد جرب مرة أنه لا يمكن الاعتماد على (هيلة) وحدها في أمر

المـــنزل إذ نفســـت زوجة أحد أخوي موضي فطلب من زيد أن يأذن لها بالـــبقاء فـــي بيته بضعة أيام لتعتني ببيته وأولاده حتى تقوى زوجته على ذلك بعد الولادة، وقال لزيد:

(أنـــا ما أبيك تعذّر لأنك عندك حرمة غير موضي في البيت) ولم يسع زيداً الاعتذار، إذ معنى ذلك أنه تزوج على أخته موضي من امرأة لا تنفع لشيء، وفرحت موضي بذلك لأنه يتيح لها فرصة فراق غريمتها ولو لفترة محدودة ولأنه يثبت عملياً لزوجها أنه لا يمكن الاستغناء عنها، وأن ضرتها لا تسد مسدها في البيت.

الفصل الرابع والعشرون

امتحان الزوجة الغريرة:

قال زيد بن مقرب المطية لزوجته هيلة:

(يـــا هـــيلة، موضي تبي تروح لبيت أخوها كم يوم وتصيرين أنت راعية البيت فاستعدي وحطي بالك من كل شيء).

وقد فوجئت (هيلة) بهذا الأمر لأنها تعرف أنها لا تقوى عليه، وإن كانت لا تريد أن تعلن عجزها عن ذلك صراحة أمام زوجها كما أنها في قـــرارة نفســـها قد أعجبها أن تكون ربة البيت مثل ما عليه الحال بالنسبة لضرتها موضي.

ولذلك أجابت زوجها بقولها:

(ما يخالف، بس أخاف أن بناتك ما يعاونني مثل ما يعاونن أمهن).

فطمأنها بأنه سيأمرهن بذلك، وإن كان في قرارة نفسه يعرف أنهن لن يخلصن في معاونتها.

لقد صح ما توقعته موضي بالفعل إذ ما أن غابت موضي عن البيت حـــتى غاب النظام عنه وسادته الفوضى، فالمشاحنات بين البنيات وزوجة والدهـــن قـــد ازدادت لأنهـــن لـــم يتحملـــن أن تصدر إليهن الأوامر كما تفعل والدتهن، إضافة إلى كون أوامرها غير سديدة ولا عادلة لعدم خبرتها.

فمثلاً أمرت إحدى البنات أن تطحن القمح الذي سيطحنونه لعشائهم، وأمـــرت الأخـــرى أن تغسل أواني الطبخ، ولما شكت الأولى من أن هذا الـــتوزيع غـــير عادل أجابت هيلة: بأنه عادل لأن غسل الأواني يلزم له إخراج الماء من البئر وهو شاق فاحتدت البنت وقالت:

(أجل وأنت وش تسوين؟)

فقالت هيلة:

(أنا أسوي العشا).

فقالت البنت:

(ياأختي إطحني العيش وأنا أسوي العشا).

فاستفهمت هيلة.

(أنت تسوين العشا؟)

فأجابت:

(إيه، أنا أسويه، سواي أزين من سواك، وش مطغيك؟ زين شغلك؟).

ولقد صدقت البنت فمستوى مهارة هيلة في صنع الطعام إن كانت على شيء من المهارة ليس مدعاة لفخرها.

والدليل على ذلك أنها صنعت لأهل البيت في اليوم الأول لغياب موضي عشاءهم من المرقوق، وكان زوجها قد اشترى لحماً من السوق لذلك اليوم بغية أن يكون الطعام جيداً به، ولكنها عندما قدمته لهم أخذوا (يعلكون ويلفظون) فيه، ويتأففون من طريقة صنعه، وأشدهم في ذلك كانت العجوز أم زيد، فقد تبرمت أولاً من تأخر إعطائها عشاءها، إذ لم تقدمه هيلة لها إلاّ بعد الآخرين على عكس ما كانت تفعله موضي لها.

وتأخر موعد العشاء له أثر في نفس عجوز مثل أم زيد ليس لها من شغل بعد الصلاة إلا انتظار العشاء، وللعشاء إلى ذلك أهمية خاصة، إذ هو وحده الوجبة المطبوخة، أما الغداء فإنه لا يزيد على كونه التمر والماء أو التمر واللبن.

وعـــندما بدأت العجوز تأكل من المرقوق أخذت تلفظ القطع الكبيرة غـــير الناضـــجة، وتشكو وتدعو على هيلة لأنها إذا أكلت هذه القطع التي ســـمتها عجيـــناً فإن ذلك (يعور) بطنها، ولم تستطع أن تمضي في الأكل فأبعدت الصحفة من أمامها، وهي تدمدم.

وعـــندما جاء زيد المطية من دكانه وقد بقي على أذان المغرب من الوقـــت ما يكفيه لتناول عشائه وأحضرته هيلة له في صحفة من الخشب تحـــتها سفرة مستديرة من خوص النخل. بدأ يأكل، ولكنه لم يستطع مواصلة الأكـــل ولما أبدى تأففه من سوء الطبخ أخبرته إحدى بناته بأن أمه لم تتعشى شـــق عليه ذلك فذهب إليها مسرعاً ولاطفها حتى وافقت على أن يصنعوا لها دويفـــة مـــن الدقيق يضاف إليها اللحم التي كانت قد تركت أكله لعدم نضجه حتى لا تبقى بدون عشاء وهي المرأة المسنة التي تحتاج إلى الغذاء.

وعندماخلا زيد بامرأته ليلا عاتبها على سوء الطبخ فأجابته بقولها: (هذي قدرتي وبناتك ما عاونني على الطبخ).

فقال لها: (اجتهدي بعدين حتى يصير طبخك زين).

فلم ترد عليه فقال لها:

قولي: إن شاء الله.

فقالت: إن شاء الله.

الفصل الخامس والعشرون

الأمل المنتظر:

بعد فترة من ذلك شعرت هيلة بالحمل فأخبرت زيداً بذلك فكاد يطير فـرحاً وزف البشـرى إلى والدته ففرحت بذلك فرحاً لم يكدره إلاّ كون الحمل كان من هيلة بالذات، ولم يكن من موضي أو من امرأة أخرى في مثل طيبتها ومحبتها لها.

أمـا هـيلة فقد تلقت شعورها بالحمل بصفة طبيعية كما تتلقاه أية فتاة تحمل في سن مبكرة وهو فرح غريزي يشوبه شيء من الخوف، ولكن ليس فيه من مشاعر الابتهاج والإشفاق التي سيطرت على زوجها ووالدته شيء.

ولـم يكن في هذا البيت بل ربما في بيوت كثيرة من يحمل مشاعر غريـبة عـن هذا الحمل كما تشعر موضي نحوه فهي لا تريده، بل هي تقاومـه لو كان في يدها أن تفعل ذلك، وكيف لا تكره شيئاً يعزز موقف غريمـتها، بل ويثبت أقدامها في بيتها؟ ولو كان ذلك شيئاً قد نالت نصيبها مـنه كمـا ستنال غريمتها كأن يكون لديها أولاد ذكور، لهان عليها الأمر بعـض الشـيء ولكن الذي يؤلمها بل يفزعها أن غريمتها ستنال شيئاً قد حرمت هي منه.

هـذا إلى جانب الشعور بالغيرة الطبيعية التي تكون بين الضرتين، ولدى موضي نصيب كبير منها.

لكـن موضي إلى جانب هذه المشاعر العدوانية تجاه حمل ضرّتها هـيلة تشـعر في نفس الوقت بشعور غريب مناقض في نتيجته لذلك كل المناقضـة، فهـي تريد للحمل أن يتم، بل أن يكون بولد ذكر يكون كهفاً

وملجأ لبناتها عند الحاجة حتى إنها مرة دعت الله سبحانه وتعالى أن يقدر ذلك ولكنها انتبهت لما يعنيه دعاؤها وساءلت نفسها قائلة:

(أنا أدعي الله أنه يجيب لهيلة ولد. هو أنا مهبولة؟).

وهي في الحقيقة ليست مجنونة: كما تساءلت ولكنها قد صارت نهباً لعواطف متضاربة، والإنسان إذا أصبح كذلك أصابته حيرة جعلته يشفق على نفسه من الجنون، ثم انتبهت للأمر مرة أخرى وسألت نفسها عما إذا كانت على يقين من أن ضرتها ستلد ولداً ذكراً، وأن مولودها لن يكون أنثى فتزتاح من هذا التفكير كله، وأجابت نفسها بأنها ليست على يقين من ذلك، ولكن قلبها يحدثها بأن المولود ذكر.

أما هيلة فإنها لم تكن تحسب حساباً لجميع ما كانت تفكر فيه موضي، فهي لم يكن فرحها بالحمل لكونه يعزز موقفها في البيت أو يربطها بزوجها برباط متين، لأنها كانت تظن أن شبابها وجمالها هما الكفيلان بذلك، وقد ظنت لسذاجتها أنهما يدومان، أو أن ذهابهما لا يكون سريعاً.

لذلك مرت أشهر الحمل عليها سريعة، بل أسرع مما كانت تظن لأنها كانت تخاف خوفاً طبيعياً من الولادة، ولا تريد أن يحين موعدها بسرعة.

فقد كانت تراكمت في ذاكرتها بعض القصص والأخبار عن الولادات العسرة، وعن النساء اللاتي كانت وفاتهن بهذا السبب، وكانت تسمع ذلك وهي صغيرة من دون أن تلقي له بالاً أو يظن أهلها أنه سيعلق بذاكرتها، شأنهم مع الصغار الذين يؤثر في عقولهم ما يتناقله الكبار من أحاديث لا يظنون أنهم يلقون لها بالاً.

ولقد استبد الخوف من الولادة بهيلة مرة حتى خشيت أن يبين ذلك

فـــي وجهها فتشمت بها ضرتها موضي، فصعدت إلى سطح المنزل وكان فـــي حيطانه ثقوب صغيرة قد أعدت بقدر ما تتسع لعين المرأة أن تنظر منها ولا يرى من في الخارج من وجهها شيئاً.

فـــأخذت تنظر من أحد هذه الثقوب فوقع بصرها على جماعات من الناس ومن المواشي المختلفة الأنواع من الإبل والبقر والحمير، فقالت في نفســـها: كل الذين أرى قد ولدوا ولادة طبيعية من دون أن يلحق بأمهاتهم أذى، وتذكـــرت أنهـــا هي أيضاً قد ولدتها أمها ولادة طبيعية، فبددت هذه الأفكـــار ما أصابها من خوف، ونزلت من السطح بعد قليل وهي في حالة نفسية غير الحالة التي كانت فيها عندما صعدت إليه.

وكـــان مما زاد حالتها النفسية سوءاً قبل ذلك أنه لم يكن في البيت صـــديقة تشكو إليها وتسمع منها ما يواسيها، ويجلو الهم عنها حتى حماتها العجـــوز التي هي مصدر النصائح مع الأم في العادة لم يكن بينها وبينها مـــودة ولا انسجام يجعل هيلة تجـــرؤ على سؤال حماتها عن أي شـــيء، أو تتوقع أن تهدي إليها أية نصيحة.

أما أمها وجدتها فإنهما في قرية الخضراء بعيدتان عنها.

ولذلـــك عندما ثقل الحمل على هيلة طلبت من زوجها أن يزور بها أهلها وأن يســـمح لها بأن تقيم عندهم مدة أطول من العادة، وقد وجدت عند أهلها من الراحة والنصائح ما حملها على أن تطلب المزيد من الوقت.

وبيـــنما كانت عند أهلها أصيبت حماتها أم زوجها، بمرض شديد لم يمهلها إلا أياماً قلائل حتى ودعت الحياة، فبكاها أهل البيت بحرقة لأسباب مختلفة.

أمـــا ابنها زيد فلأنه فقد بره بها الذي كان يتقرب به إلى الله، وفقد بموتهـــا مصدراً من مصادر الدعاء الصالح المخلص له، الذي كان يشمل الدعاء له بخيري الدنيا والآخرة.

وأمـــا موضي فإنها فقدت فيها صديقة مخلصة تفضي إليها بما في نفســـها، وتشكو إليها خبيئة صدرها كلما ضاقت بها الحال، وهي إلى ذلك المرأة الوحيدة التي تسمع منها كل مثالب ضرتها ومعايبها، أو ما تعتبرانه مثالـــب ومعايـــب، وإن يكن في حقيقة الأمر ليس كذلك ولكن الجدة كانت تصـــغي إلـــيه بكل اهتمام وانتباه، ربما كان ذلك لأنه ليس لديها ما يشغل اهـــتمامها، أو لأنها شعرت بأنها قد أخذت منها جزءاً من قلب ابنها الذي تـــود في قرارة نفسها أن يكون كله لها وهو كبير، كما كان كذلك وهو صغير، مضافاً إلى ذلك كله أنها غريمة موضي التي تجلها وتقدرها.

وأما بنات زيد المطية فإنهن بكين جدتهن لمجرد أن الإنسان لا يريد أن يفقد عزيزاً لديه ولو كان لا ينتفع منه.

الفصل السادس والعشرون

البشارة:

مضـــى علـــى ذهاب هيلة إلى بيت أهلها في قرية الخضراء قرابة العشرين يوماً، وكان زوجها يظن أن المدة لن تكون بهذا الطول، لأنها منذ ذلك الوقت وهي تشكو مما تظنه الطلق الذي يسبق الولادة، إلا أنه عندما تحـــدث مـــع إحـــدى النساء من قريباته عن ذلك أجابته بأن هذا ليس هو بالطلق الحقيقي، وإنما هو (الكويذبات) وهي نوبات من الطلق الخفيف التي تكـــون بمـــثابة المقدمـــات للطلق الحقيقي، لا تفرق بينها وبينه إلا امرأة مجربة. وتكثر مقدمات الطلق هذه على النساء اللاتي يلدن لأول مرة لأن بطونهن لم تتمرن على الحمل والولادة.

وبعد هذه المدة التي قضتها هيلة عند أهلها وكان زيد في حالة نفسية سيئة من طول الانتظار طرق بابه طارق ما أن فتحه حتى أسرعت دقات قـــلبه، واستشرفت بلهفة بالغة إلى ما يخرج من فم الطارق من كلمات إذ تبين فيه أحد أخوال زوجته (هيلة) ممن يسكنون في قرية الخضراء وهو شاب في حدود السادسة عشرة.

وسرعان ما زف إليه الخبر السار قائلا:

(أبشـــر بولد ياعم، هيلة جابت ولد، يسلم عليك سليمان ويقول ترى هيلة وولدها طيبين).

ســـمع زيد الخبر فانبسطت أساريره وغلبه الابتهاج، فانقلبت بسمة غامـــرة قد انطبعت على شفتيه إلى ضحكة غير واضحة لأنها كانت تبدو بين الضحك والبكاء: البكاء من الفرح.

ولم يدر ما يصنع إلا أنه قال للفتى:

(الله يبشـــرك بالخير، هاه؟ وليد؟ جابت وليد. الله يبشرك بالخير يا وليدي، بشير تفرح).

ثـــم دعـــاه إلى الدخول في البيت فدخل معه وأسرع يعطيه ريالين فضـــيين، وذلـــك مبلغ له أهميته وبخاصة أن البشارة المعتادة بولد تكون جائـــزتها في الغالب عندهم ريالاً واحداً. إلاّ أن زيداً أعطاه ريالين، ليعبر بذلك عن فرحه الغامر بالمولود، ولأن البشير كان قد قطع مسافة ٨ كيلات على قدمه لهذا الغرض وهو أمر له اعتباره.

أخـــذ الفـــتى الريالـيـــن بيد مرتعشة من الفرح، فقد كانا أكبر مبلغ ملكته يداه من قبل، إضافة إلى أنه لم يكن يتوقع أن يحصل على أكثر من ريال واحد.

لذلك عندما وقع الريالان في كفه أسرع عائداً من حيث جاء فرمى إليه زيد بالسؤال التقليدي:

(ما تبي نقهويك؟).

إلا أنه أجاب وهو يبتعد:

(كثر خيرك أبي أروح لأهلي).

كان الفتى يريد الإسراع بإبلاغ ذويه بحصوله على الريالين، وكان زيـــد المطية يريده أيضاً أن ينصرف مسرعاً حتى يزف هذه البشارة إلى أهل بيته وأصدقائه.

وعندما انصرف الفتى مبتعداً فكر زيد في الشخص الذي ينبغي أن يكون أول من يزف إليه البشرى، فتذكر أن ذلك الشخص هو أمه وأنها لو

كانت حية لكانت أكثر الناس فرحا بهذه البشارة بعد زيد نفسه.

ولذلك شعر بشيء من الأسف وسط هذا السرور، لكون أمه لم يطل بها العمر حتى تعلم به.

دخـــل زيد إلى بيته فنادى بناته بصوت مرتفع غير عادي، بل هو بين الغناء والنداء، ربما لم تسمع بناته منه مثله منذ زمن، قائلاً:

(يا بنات يا (طرفة)، يا (قوت)، يا، يا.. ابشروا، ابشروا جاكم أخو، ابشروا جانا ولد).

ثم قال بنغمته المرحة:

(يـــا موضـــي، ابشري) إلاّ أنه تذكر في هذه اللحظة ما بينها وبين ضـــرتها وتذكـــر أنها قد حرمت من أن يكون الولد منها، فخفض صوته، وقال في نبرة أقل حماساً، وإن لم يستطع أن يجعلها أقل تشبعاً بالسرور.

(يا موضي الحمدلله جاب الله لنا وليد، جاب الله أخو لبناتك يظلل عليهن).

وعـــندما ســـمعت موضـــي بهذا الخبر انتابتها المشاعر نفسها التي انتابتها عندما سمعت بحمل موضي، فأجابت زوجها تلقائياً بنبرة قد امتزج فيها الألم والفرح، أو قد امتزجت فيها الكراهية والرغبة بقولها:

(الحمدلله، الله يصلحه).

ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك، فانصرفت إلى غرفة مظلمة في البيت كانوا يخزنون فيها الحطب للشتاء، وجعلت تبكي، ولم تكن في بكائها تدعو على هذا الولد بأن لا يعمر، وبأن تحرم منه والدته- ضرّتها- وإنما كانت تبكي لتسري عن نفسها بعض ما ألم بها عندما سمعت الخبر، وربما

كان أهم ما تبكي له هو أن هذا الولد لم يكن منها، ولكنها في تلك الساعة انتابتها رغبة شديدة في البكاء لا تدري سبباً محدداً من العواطف لها.

أما بناتها فإنهن فرحن بذلك، وأخذت صغراهن ترقص طرباً لذلك، وأخذن يقلن لوالدهن:

(متى نشوفه يا أبوي؟).

فأجابهن:

(عقب أيام عقب ما تطلع أمه من النفاس إن شاء الله).

وظـل زيد في الأيام القليلة التي تلت ذلك يغالب الاصطبار والانتظار حـتى تم لطفله سبعة أيام، فشد رحله على حمار إلى قرية (الخضراء) وحمل معـه الهديـة المعتادة في هذه المناسبة وهي بعض اللحم، وشيء من القهوة والهيل وريال فضي يريد أن يضعه في يد المولود عندما يراه لأول مرة.

وعـندما وصل إلى القرية أعطى صهره اللحم فصنع منه عشاء له ولأقاربـه الأدنين وجاءت جدة الطفل به بين يديها فأخذه زيد المطية بين يديـه وهـو ملفـوف في قماش ومربوط بحبال ربطاً خفيفاً يراد منه أن يستقيم جسمه ولا يترهل في هذه المرحلة المبكرة من العمر فقبله ودعا له بالتوفيق.

وكـان يفعل ذلك وكأنما هو ينظر إلى أمله الذي عاش عليه الدهر وقد تحقق وبخاصة عندما قالت له حماته:

(ها لولد جاي عليك يا زيد، ما جا على خواله).

والحقيقة، أنه فيه من ملامح أبيه نصيب، ومن ملامح أمه نصيب، ولكن بعض التقاسيم الدقيقة في وجهه تشبه مثيلاتها في وجه والده تماماً.

وسماه زيد (صالحاً) فلم يشأ أن يكرر اسم محمد الذي كان قد سمى به ابنه الأول فمات، وكان قد قال له أحد أقربائه المتدينين: إن اسم صالح فأل حسن بالصلاح وهو اسم نبي من أنبياء الله تعالى.

وبعد أن مضى على ولادة الطفل ثلاثون يوماً أرسل زيد إلى أصهاره كسوة لزوجته بهذه المناسبة فأخبروه أنها ستعود إليه في اليوم الواحد والأربعين من الولادة، وذلك لأن مدة النفاس هي أربعون يوماً تقضيها المرأة عادة في بيت أهلها، لاسيما في ولادتها الأولى.

كان قدوم هيلة إلى البيت ومعها الطفل نذيراً بتغيير حال البيت كله، فقد أصبح مسلاة والده وأخواته، يتناقلونه بين أيديهم، ويمطرونه وابلاً من قبلاتهم، بل صارت مداعبته وملاعبته جزءاً مهماً من العمل اليومي لهم حتى إن الواحدة من أخواته تستفتح عملها في أول اليوم بالذهاب فوراً إلى فراش الطفل وتقبيله ومداعبته حتى إنهن كثيراً ما ينغصن عليه نومه الطويل، فلا ينتظرن حتى يفيق منه، مما جعل أباه وأمه ينكران ذلك عليهن، وينهيانهن عنه.

ومن العجيب أن الطفل قد أصبح عامل وئام في البيت بدلاً من أن يكون عامل تفريق وخصام، كما كان يظن من قبل، بسبب الغيرة والحسد بين الضرتين، إذ أصبح نقطة الالتقاء والإعجاب بين الجميع.

أما أبوه زيد بن مقرب المطية فكأنما غدا هذا الطفل وحده دنياه التي لا دنيا له غيرها، فهو شغله الشاغل إذا كان قريباً منه، وهو حديث لسانه، وهاجس فؤاده إذا كان بعيداً عنه.

الجدري والحصبة:

أخـــذ الطفل من أمه نضارة في البشرة، وسعة في العينين، وتناسباً فـــي الشفتين، وملامح من الجمال خفية لا يستطيع أن يصفها إلا الخبير، وإن كان أكثر من يراه يحس بها.

وأخـــذ من والده مظهراً من الطيبة والبراءة في وجهه، لذلك كانت ملامح وجهه على وجه العموم مما ترتاح إليه عيون الناظرين.

فكـــان والـــده وأقرباؤه إذا نظروا إليه يدعون له بالنماء والصلاح ويدعون له بالوقاية من الأمراض والأسقام.

ذلك بأنهم يعلمون أن أمامه عدداً كبيراً من أمراض الأطفال الفتاكة أهمها اثنان هما الحصبة والجدري اللذان قالوا فيهما في الأمثال:

(ما ولد إلا عقب حصبا، ولا عيون إلاّ عقب جدري). أي: لا يعتبر الولد سالماً إلاّ بعد أن ينجو من الحصبة، ولا تعتبر عيناه سالمتين إلاّ بعد أن ينجو من مرض الجدري.

هـــذا إلـــى جانـــب طائفة من الأمراض الأخرى التي تصيب عامة الجسم أو يصيب بعضها بعض الأعضاء مثل الرمد الذي يصيب العينين.

ولكن صالحاً كان من الأطفال القليلين الذين لديهم مناعة طبيعية ضد هذين المرضين الوبيلين: الجدري والحصبة.

فقد زار الجدري بلدة (العامرة) مقر أسرته عندما أصبح للطفل من العمر سنتان وكان ذلك على شكل وباء لم ينج من الإصابة به أحد إلاّ مَنْ كان قد أصيب به من قبل.

وعـــندما أقلـــع هذا الوباء عن القرية كان قد خلّفَ صبياناً عمياً،وصبايا عُـــوراً، وطائفة من الجنسين قد شوه ألوانهم ووجوههم بندوب وخدوش صغيرة لا يمحوها الدهر.

أمـــا (صـــالح) فإنـــه لم ينله منه إلا حبيبات متفرقة في جسمه ،عندما عدتها أمه لم يصل عددها إلى العشرين، ولم تخلف في جسمه أي أثر أو خدش.

وأمـــا الحصبة فإنها أصابت صالحاً في شتاء العام الرابع من عمره، فلم يـــزد تأثـــيرها فـــيه على تأثير الزكام الشديد في جسمه، وبعد أن نجا من هذين الوبائين أصبح مرجو الصحة والعافية. كما يدل على ذلك المثل العامي.

حـــتى الختان الذي أجروه له في ربيع السنة الثالثة من عمره كان سريع البرء، سهل الشفاء .

الفصل السابع والعشرون

الرباط الوثيق

عــندما أصبح عمر (صالح) خمس سنوات تبين لوالديه أنه لم يكن مجرد طفل لهما فحسب، وإنما أصبح رباطاً وثيقاً يربط بينهما المحبة والوئام.

فقــد فــارق أمه (هيلة) طيش الشباب الذي لا يحسب حسابا لعواقب الأمور، وإنمــا تسيطر فيه على الشاب أو الشابة العواطف أكثر مما يسيطر عليه العقل. فــأخذت مــع نمــو ولدهــا، وطول عشرتها لزوجها ترى فيه الكهف والملجأ الحصــين لهــا حــتى إنها حينما زارت أهلها مع طفلها وبقيت عندهم عدة أيام شعرت بأنها غريبة في بيتهم، وأن مكانها الطبيعي هو بيت زوجها.

ولم تعد ترى في زوجها ذلك الكهل الذي أغتصب شبابها أو هو قد اشــتراه بدراهــم معدودة من أهلها، وإنما أصبحت ترى فيه رجلها ووالد طفلها، بل إنها أخذت تشعر بالمزيد من الحب له الذي أخذ ينمو في قلبها. ومبعــثه أنهــا قد فارقت مرحلة الشباب، وهو لم يدخل مرحلة الشيخوخة حــتى أصــبح كل واحد منهما في نقطة الوسط النسبية من عمره رغم ما بينهما من تفاوت في السنين.

ذلك بأن شباب المرأة كغمام الصيف الذي سريعاً ما ينقشع والمرحلة التي تلي الشباب هي مرحلة قصيرة جداً تصل بعدها المرأة إلي أن تصبح فــي نظر زوجها ونظر الناس مجرد صاحبة بيت يصبو نظر زوجها إلى أن يجدد شباب عواطفه مع زوجة أخرى أصغر منها.

حتى ضرتها (موضي) قد فترت شرة الغيرة والتنافس ما بينها وبينها.

فموضــــي قد كبرت سنها وتوالت عليها العواطف غير السارة حتى عرفــت قدر نفسها وسلمت بأنها قد أصبحت الزوجة الثانية في البيت بعد

أن كانت الزوجة الأولى، وسلمت أمرها إلى ربها فأخذت تكثر من الصلاة وتصوم بعض الأيام تطوعاً، وتستمع إلى بعض المواعظ التي تحث على عـــدم إلحاق الأذى والضرر بالآخرين، كما أن يأسها من إنجاب الاولاد، وزواج بـــناتها الكبيرات قد جعلها تشعر بضعف الإمكانات وقلة الأنصار ممـــا ساعد على الوصول إلى تلك النتيجة، وأقنعها بأن مقاومتها لضرتها إنما هي مقاومة لا نتيجة لها.

إضافة إلى أن (هيلة) جعلها طول الوقت وخلو البيت من أكثر بنات ضرتها تشعر بأن البيت هو بيتها لذلك تعمل فيه كل ما يستطيع جهدها أن يصـــل إلـــيه، وقد جعلها ذلك تكتسب مراناً وخبرة في الطبخ وفي تدبير شؤون المنزل. وجعلها تعترف بمكان ضرتها (موضي) المحدد فيه.

هـــذا إلى جانب كونها لم ترزق بمولود بعد ولادة (صالح) حتى هذا الوقت الذي أصبح له من العمر ما يزيد قليلاً على خمس سنين.

وقـــد حـــدث أثـــناء هذه المدة أن حملت إلا أن حملها سقط قبل أوانه بعد مشقة عظـــيمة قالـــت لهـــا العجائز ذوات البصر بهذه الأمور إن ذلك لكون الحمل قد صار عواراً، أي حصل عليه ما يؤذيه، حتى أصبح غير صالح للنمو، ولابد من سقوطه ولكن ســـقوطه يكـــون مصحوباً في الغالب بأوجاع وآلام مبرحة، وقد تكون له عقابيل توقف صلاحية إنجاب المرأة الأطفال فترة من الزمن.

موضي تودع الحياة:

أصيبت موضي بمرض حاد لم يعرف أهل بيتها ولا أقاربها باسمه ففارقـــت الحـــياة بسرعة، وقد بكاها أهل البيت، وبخاصة زوجها وبناتها بحـــرقة، حـــتى ضـــرتها هـــيلة، لم يكن موتها عليها هيناً، رغم ما بين الضرتين من بغض، لأن موضي بطبيعتها طيبة متسامحة، وكانت لا تزال حتى مرضت تقوم بنصيب كبير من عمل البيت.

الفصل الثامن والعشرون

صالح في المدرسة:

أصبحت سن (صالح) ست سنين وبضعة أشهر وكان بقرب بيتهم مدرسة هي كُتّاب يدرس فيه (المطوع) وهو معلم الصبيان وحده لا يساعده في هذا العمل معلم آخر لا لأنه لا يجد ذلك المساعد وإنما لأن ما تدره هذه المدرسة الخاصة لا يسمن ولا يغني من جوع له نفسه، فكيف بذلك لمساعده.

غير أنه لا يعدم وسيلة يجد بها من يساعده بالمجان، فهو يكلف الطلاب الكبار في المدرسة تدريس الطلاب المبتدئين، ويقتصر هو نفسه على مواصلة تدريس أبناء ذوي اليسار والوجهاء.

ولم يكن لهذه المدرسة برنامج دراسي مكتوب وإنما تسير الدراسة فيها وفق عادة اكتسبها معلمه (المطوع) من المعلم الذي تعلم عليه، وتتلخص في تعليم الأطفال مبادئ الكتابة والقراءة وإن كان تعليم القراءة يقتصر على تعليم قراءة القرآن بطريقة التلقين التي تعتمد على الحفظ أكثر مما تعتمد على الفهم، ولذلك لا يستفيد من هذه الدراسة إلاّ عدد محدود من الأطفال يكون السبب الأول في استفادتهم هو ذكاؤهم أكثر مما هو تعليم المعلم.

كان قرب بيت (زيد بن مقرب المطية) من هذه المدرسة هو سبب تبكيره بإدخال ابنه صالح إليها في وقت مبكر بالنسبة لما اعتادوه في هذا المجال وهو سن السادسة لأنه إذا كان مكان المدرسة بعيداً فإنه لابد من ترك الصبي يكبر أكثر من ذلك قبل إدخاله إلى المدرسة حتى يكون قادراً على الدفاع عن نفسه ضد الصبيان الآخرين الذين قد يخاصمونه أو يقارعونه.

ذهــب زيــد بابــنه إلى المدرسة، وقد ألبسته أمه قميصاً واحداً أبيض جديداً وطاقية وهذا هو كل ما كان يرتديه في هذا اليوم المشهود من حياته إذ الوقــت كــان صيفاً ولم تكن تلك المدارس تعرف العطلة الصيفية، أو غيرها مــن العطــلات، وحــتى لو كان الوقت شتاءً فإن ملابس الصبي لا تزيد إلاّ قميصاً إضافياً أو قميصين إضافيين يكون أحدهما خلقاً يلبس تحت الجديد.

وقــد اخذ زيد معه (الدّخالة) وهي الشي الذي يدفع لمعلم المدرسة عــند أول دخــول الطفــل مدرســته وهي ريال فضي واحد بالنسبة إلى ميسوري الحال.

قدم زيد ولده إلى (المطوع) قائلاً:

(يــا أبوصالح- وهذه كنية المطوع- هذا الولد صالح جايبينه نبيه يقرا عندك، الله يسلمك ويطول عمرك وهو صغير سن- وهنا دَسَّ في يد (المطــوع) الــريال الفضي وأراد أن يواصل كلامه، غير أن (المطوع) قاطعه وهو يأخذ الريال بيد مرتعشة قائلاً وهو يقبل الصبي:

(لا تكون بفكر من جهته، والله إنه عندي كنه سميّه ولدي صالح).

لــم يحمــل الصــبي معــه شــيئاً من أدوات الكتابة، ذلك بأن الأدوات المســتعملة موجودة في المدرسة وهي لا تزيد على كونها لوحاً من الساج يطلى بطــلاءٍ من الطين الأبيض، وتكتب فيه الحصة التي يراد من الصبي أن يعرفها أو أن يحفظهــا، أمــا القلم فإنه يكون من أغصان شجر العصفر اليابسة، و هي تســتنبت في بساتين البلدة وما حولها، وهو والدواة من المشاعات في المدرسة يحضرهما المطوع، يستعملها بإذنه من يشاء من الطلاب.

الفصل التاسع والعشرون

المطوع:

أمـــا بالنســـبة إلى صالح بالذات فإن (المطوع) أعطاه لوحاً صغيراً كتب عليه أربعة حروف هي (أ، ب، ت، ث).

وأمـــر أحـــد الصبيان الكبار أن يلقنها صالحاً وأن يحرص على أن يجعله يحفظها، ثم جعل (المطوع) يكرر مراقبته.

وقـــد صدع الصبي بالأمر فأخذ يقول بصوت مرتفع (ألف) ويطلب من (صالح) أن يتابعه على ذلك بصوت مرتفع أيضاً (ألف).

ولكن صالحاً صبي صغير وهو يدخل المدرسة لأول مرة، وقد منعه الخجـــل والهيـــبة إلى جانب الرهبة من الأصوات المرتفعة المتنافرة التي تنبعـــث مـــن حناجر الأطفال وهي تصم الآذان، إذ كل واحد من الأطفال يرفع صوته بأقصى ما يستطيع يحاول بذلك أن يسمع (المطوع) فيعلم أنه مجتهد ويسلم من عصا الخيزران الطويلة التي لا تفارق يده وما من طفل من الأطفال إلاّ وقد جرّب لسعها في جسمه مرة من المرات.

كما أن المطوع نفسه يحرص على أن يرفع الصبيان أصواتهم إلى أقصـــى مـــا يســـتطيعون لأن ذلك يعطي مدرسته مكانة عند الأهالي إذ يســـتدلون بذلك على أن (المطوع) يواصل تعليم الأولاد، ولا يهملهم حتى يشتغلوا عن الدراسة باللعب.

لم يستطع (صالح) أن يرفع صوته وراء معلمه الصبي فانتهره هذا ولكـــنه بـــدلاً من أن يخضع للتعليمات، ويرفع صوته كما يراد له أجهش بالـــبكاء فأسرع الصبي يقول للمطوع بصوت مرتفع- لأنه كان بينه وبينه عدد من التلاميذ يرفعون أصواتهم:

(يا المطوع تراه عيا يقرا، ويوم قلت له: اقر وارفع صوتك، بدا يصيح).

فنهض (المطوع) إليهما وهو يتحسس الريال الفضي الذي كان دسه زيـد بن مقرب المطية في يده هذا الصباح وكان لا يزال في جيبه، وقال للصبي الكبير:

(يا وليدي على هونك عليه هَذَيا توه بادي).

ثـم ذهـب وتـركهما إلاّ أن الصبي الكبير اعتبر هذا التوجيه من (المطـوع) في غير محله، بل اعتبره أنه يحله من تعليم الطفل بالطريقة التي اعتبرها ناجحة وهي رفع الصوت بالنطق، ومتابعته على ذلك.

كـان الحضـور إلى المدرسة يشتمل على فترتين الأولى من أول الصباح إلى ما قبل آذان الظهر بنحو ساعة، والثانية ما بين صلاتي الظهر والعصر.

وعـندما عاد (صالح) من المدرسة ضحى ذلك اليوم إلى بيته كان يحمل في يده ذلك اللوح الخشبي الصغير الذي كتبت فيه الحروف الهجائية الأربعـة (أ، ب، ت، ث) ولكنه لا يعرف من أمرها شيئاً، ولا يحسن أن ينطق منها حرفاً، بل إنه عاد إلى بيته وهو في ضيق شديد حتى إنه ما أن كلمته أمه حتى انفجر باكياً فأسرعت تمسح دموعه، وتحتضنه إلى صدرها ثم انطلقت به إلى والده وقالت:

(شف الولد وش صار عليه، من جيته من المدرسة وهو يصيح، أنا قايلـة لك إنه صغير ما يتحمل المطوع وهزره ونزره، ولا يتحمل عيال المدرسة وغثاهم).

فرد عليها قائلاً:

(انـــت وش يدريـــك عن المدارس؟ هذي هي العادة، الولد أول ما يدخـــل المدرسة لازم يصيح ويشبع صياح، الولد ما يدرس إلا إذا تعاونت المدرســـة مع أهله كلّ يأدبه من جهته. المطوع لابد من تأديبه ولو صاح الولـــد ما أوحيت المثل اللي يقول: (صياحه ولا صياح عليه؟) فأرادت أن تجيبه على كلامه غير أنه واصل حديثه قائلاً:

(انـــت مـــا تدرين عن المدرسة لأنك ما دخلتيها، ولا تعرفين تعلم القراية وش لونه، كم واحد طاع مرته، وحرم ولده من تعلم القراية، كل ما شاف الناس يقرون القرآن برمضان تقطع قلبه حسرة وحسوفة).

وقـــد جعلتها هذه الكلمات الغليظة المقنعة تسكت ولا تحير جواباً، و إنما تواصل احتضان طفلها.

كانت هناك أمور عدة جعلت صالحاً لا يحب المدرسة منها أنها في غـــرفة واحدة مزدحمة أمامها رواق ولا يسمح فيها للطفل أن يتحرك إلاّ بإذن من (المطوع) فإذا بدت له حاجة لابد من قضائها استآذن المطوع في أن يذهب إلى فناء قريب يقضي فيه تلك الحاجة، ولكن (المطوع) لا يسرع فـــي الاستجابة إلى تحقيق رغبة الطفل في الخروج لأن تجربته علمته أن كثـــيراً من الأطفال يستعملون ذلك ذريعة للخروج من المدرسة والإفلات من هذا المكان المزدحم.

ومـــنها أن الأطفـــال يضايقون في العادة التلميذ الجديد وبخاصة إذا كـــان صغير السن، ويكاد كل واحد منهم يجرب معه نوعاً من المضايقة تكـــون بمـــثابة جـــس قوته، ومدى دفاعه عن نفسه، وإن لم يقصدوا ذلك قصداً، وإنما هو حب الأطفال للسيطرة على الغير.

ومنها أن البقاء في المدرسة قد حَدَّ من حريته، ومنعه من الانطلاق طيلة ذلك الوقت الذي كان يقضيه- عادة- حراً طليقاً في البيت.

ولذلك امتنع في اليوم التالي عن الذهاب إلى المدرسة رغم ملاطفة أهله له.

غـير أن (المطـوع) افـتقده بسبب ذلك الريال الفضي الذي قبضه عند (الدخالـة) مما جعله يؤمل أن يحصل من والده على المبلغ الآخر الذي يقبضه (المطـوع) عادة الذي اسمه (حفاظة) لأنه يدفع عندما يقول المطوع: إن الصبي قد حفظ القرآن الكريم بمعنى استطاع أن يقرأ القرآن كله نظرا.

فسـأل والده في آخر نهار ذلك اليوم عن سبب تخلف (صالح) عن المدرسة أهو المرض؟ أم لسبب آخر؟

فأجاب زيد:

(لا والله مـا به خلاف، ما به لا مرض ولاشيء، ما به إلاّ العَطّله بس يقول: ما اناب رايح للمدرسة، ما أبي المدرسة).

فعلّقَ (المطوع) بشيء من الحدَّة:

(لا، لا، يـا أبوصـالح، أصـحو، لا يلعب عليكم الولد، تراكم إمَّا غصبتوه على المدرسة هالحين، ما قويتوه إذا كبر).

فقال زيد:

(والله صحيح يالمطوع أنا أقول كذا لكن أمه ما طاعتني) فقال المطوع:

(الحـريم مـا عندهن رأي، ولا عندهن قدرة على تربية الأولاد ما سمعت اللي يقول: فلان ولد مرة، إذا كان ما عنده رجل يربيه؟).

فقال زيد:

صحيح، صحيح، بس وش نسوّي؟

فأجاب المطوع:

(أنا أكفيك كل شي، أجي لمكم باكر الصبح، وآخذه)

فتساءل زيد:

تاخذه؟

فقال المطوع:

أي نعم، آخذه أنا.

فقال زيد:

(أخاف باكر يصير له هو وأمه صيحة تفزّع الجيران).

فقال المطوع:

(ابد، لا تخاف، أنا أساحره واشرط له، ولا يكون إلاّ خير).

وفي الصباح حضر (المطوع) إلى البيت وأحضر معه (شرْطاً) قرصاً من (الكليجا) فأعطاه الطفل ولاطفه فانقاد له طمعاً في القرص، وبدافع من الخوف من هذا الشخص الغريب الذي رآه بالأمس يفرض سلطانه على جميع الأطفال في المدرسة، حتى الأطفال ذوي الميول العدوانية الذين كان (صالح) يرتجف من مرآهم يخافون من (المطوع) وينصاعون لأوامره.

أخذ (المطوع) بيد الطفل فأوصاه والده بالرفق به، فوافق على ذلك ولكنه علق عليه بقوله:

(الولـــد صـــغير، ويبي اللي يرفق به، وعلشان كذا نبي نخليه مثل القعود أول ما أن الفلاليح يسنون عليه يصرُّون غَرْبه، ويخلونه يمشي بلا ما، حتى يتعود).

فاستفسر زيد من المطوع قائلاً:

(يعني ما أنتم مقرينه؟).

فأجاب المطوع:

(لا، نبي نقرّيه بس ناخذه شوي شوي، نبي لنا كم يوم ما نشدد عليه بالحفظ لما أنه يالف المدرسة).

فقال زيد:

(طيب، سواللي تبي أنت أعرف بالعيال منا، أنت مجرب أكثر منا).
فعلق زيد على ذلك بقوله:

(والمجرب أخير من الطبيب).

وهكـــذا ســـارت الأيـــام بالطفل صالح وهو يتردد على هذا الكتَّاب والمطـــوع يـــأخذه بالطاعة شيئاً فشيئاً حتى ألف المدرسة، وصار له فيها أصـــدقاء مـــن الأطفال كما صار له بعض الأعداء من الأطفال ايضاً كما يكـــون في أكثر الأحيان بينهم إلاَّ أنها عداوة (بريئة) فهي قصيرة المدى، سريعة الزوال.

أمـــا المطوع فإنه بعد أن عرف أن (صالحاً) قد أصبح من الأطفال المواظبين على الحضور ترك العناية الخاصة به، وأخذ يعامله كما يعامل الأطفال الآخرين.

فكـــان صـــالح يحضر معه إلى بيته لوحه الخشبي، وقد كتبت عليه

(خطّـته) أي: الحصـــة التي عليه أن يحفظها وقد تجاوز معرفة حروف الهجاء حسبما رأه المطوع.

لذلـــك أخذ يكتب له في لوحة قصار السور ابتداء من سورة الناس التـــي بدأ بها بعد الفاتحة، فكان يجعله يحفظها حفظاً وإن لم يفهم معانيها ولا تركيب حروفها.

وأحياناً يكلفه أن يكتب عليها، أي: يقلد كتابة (المطوع) للسورة في اللوح وإن لم يفهم حروفها.

ولم يكلف استمرار (صالح) في المدرسة أهله نفقات عينية، إذ جرت العادة على أن يكتفي (المطوع) بقبض (فطرة) الصبي وهي صدقة الفطر عـــنه التي هي صاع من طعام، وإذا كان أهل الطفل من ميسوري الحال فـــإن المطوع تتشرف نفسه إلى أن يعطوه العيدية وهي شيء من القماش تصلح لأن تكون ثوباً.

ولا شـــيء غير ذلك إلاّ بأن لا ينسوا (المطوع) في المناسبات التي هـــي نـــادرة عنهم مثل إرسال شيء من طعام الوليمة إليه، أو دعوته إلى الولـــيمة دون غـــيره ممن هم في مثل قدره، وحتى لو لم يكن من جيران الـــذي أقام المأدبة فإن مجرد كونه (مطوع) الولد أو الأولاد كافٍ لتبرير دعوته دون غيره.

وقـــد كادت الأيام تكون متشابهة بالنسبة إلى مقام صالح بن زيد في المدرسة إلا ما كان من أشياء غير جوهرية تحدث له فتبغضها إليه، وتكاد تمنعه من الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة، من ذلك أن (المطوع) شم يومـــاً رائحـــة كـــريهة فســـأل الصبيان بغضب (من هو اللي طلعت منه هالريحة الشينة؟).

فكلهم قالوا بصوت يكاد يكون واحداً:

(والله ما طلعت مني يا المطوع).

ولمـــا كان المطوع يرى أنه من غير المناسب أن يفلت الفاعل من العقـــاب وإلا لاجترا هو وغيره من الصبيان على تكرار ذلك الفعل حتى تصبح المدرسة مكاناً لا يطاق الجلوس فيه من الرائحة الكريهة لاسيما إذا عرفـــنا أن الـــتمر كـــان هو الغذاء الرئيسي لأهل البلدة، وأن كثيراً من الصبيان يكونون قد أكلوا منه قبل حضورهم إلى المدرسة.

لذلـــك كانـــت للمطـــوع طريقة يكتشف بها الفاعل، وإن كانت من الانحطاط في مستوى ذلك الفعل.

تلـــك هـــي أن يأمـــر أحد الصبيان الكبار بأن يتشمم داخل جيوب الصبيان فمن شم منه رائحة كريهة صاح بأعلى صوته قائلاً:

(يا المطوع، هذا هو، هذا اللي فسا).

ولا يكـــاد يـــنقطع صـــوته حتى تكون عصا (المطوع) الدقيقة قد سارعت إلى الصبي المتهم تلهب ما وصلت إليه من جلده.

ومـــن الطبيعـــي أن الصبي (المفتش) أو المتشمم- على الأدق- لا يكـــون دائماً متجرداً من الهوى والتحامل فإنه قد يتهم برئياً لهوى في نفسه، أو لغـــرض آخـــر مثل أن يبعد التهمة عن فاعل لا يريد له أن يضربه (المطوع) لســـبب مـــن الأســـباب كما فعل مع صالح في هذه المرة، إذ اتهمه زوراً بذلك الفعـــل فما كان من (المطوع) إلاّ أن عاقبه بالضرب الموجع المعتاد، مما جعله يشكو ذلك إلى أهله وإن لم يستطيعوا أن يفعلوا له شيئاً.

علـــى أن أيام المدرسة ليست كلها كئيبة ولا قابضة للنفس، فبالنسبة

لمـــا يســـمى اليوم بالواجبات المدرسية لم تكن ثقيلة على الصبي دائماً إذ يكفـــي لارضـــاء (المطوع) أن يواظب الصبي على رفع صوته بالقراءة والتهجـــي كلما فطن (المطوع) له، كما يكفي أن يحفظ كلمة أو جملة مما يكتب في لوحه ولو لم يفهم معناها.

وهـــناك لحظات بل ساعات من الهناء الصبياني الذي لا يكاد ينسى مـــثل أن يغيب (المطوع) عن المدرسة لبعض الوقت في شأن من شؤونه فينـــتهز الصبيان هذه الفرصة فيسرحون في المدرسة ويمرحون ويطلقون الســـنتهم بمـــا يـــريدون، وإن كـــانوا لا يستطيعون مغادرة المدرسة لأن (المطوع) إما أن يكون قد أغلق عليهم الباب، أو أن يكون قد وكّل به أحد الصبيان الأقوياء.

ومـــثل أن يكـــون (المطوع) لم ينم في الليل نوماً كافياً واحتاج إلى (تعسيلة) أثناء العمل، فإنه يأمر كبار الصبيان أن يعتنوا بصغارهم، ويضع (شـــماغه) على وجهه ويستلقي، و عندما يعلو شخيره يتأكد الصبيان من نومه فيبدأ كبارهم اللعب قبل صغارهم.

وكثـــيراً ما كانوا يتنادرون فيما بينهم على (المطوع) بعبارة "صكّ الدّكـــان" وهي كناية تقال لمن انكشفت عورته أو جزء منها وتعنى إصدار الأمر له بتغطية ذلك، لأنهم لم يكونوا يلبسون السراويل فإذا رفع الجالس أو الـــنائم ركبـــته ولـــو كان ذلك رفعاً خفيفاً أمكن الصبيان الأشقياء من الإصغاء إلى الأرض والتطلع إلى ما تحتها.

على أنهم كانوا يتفوهون بهذه العبارة فيما بينهم لأنهم لا يستطيعون مواجهة المطوع بها.

وأسعد أيام صبيان المدرسة على الإطلاق هي أيام (الزفافة) أو الزفة وهي الاحتفال الذي يقام لمناسبة حفظ القرآن الكريم الذين يريدون به إتمام الصبي قراءة القرآن على (مطوعه) نظراً، ولو كان ذلك دون معرفة للأحرف ولا إقامة للحروف الكريمة كما ينبغي أن يلفظ بها، بل إن أولاد بعض أهل اليسار قد يعمد (المطوع) إلى تقفيزهم بعض السُّور رغبة في الجائزة أو (الحفاظة) التي يرجو أن يحصل عليها. ورغبة في الشهرة والدعاية لمدرسته.

ذلك بأن زفة أولاد أهل اليسار تتألف من موكب طويل يضم صبيان المدرسة وصبياناً أكثر منهم أضعافاً مضاعفة من الفضوليين والفارغين الذين يتبعون الموكب رغبة في اللهو واللعب، وطمعاً في الأكلة التي ينهي بها الموكب تطوافه في البلدة حين يصل إلى بيت أهل الصبي الذي حفظ القرآن- على حد قولهم.

وإن (صالحاً) ليذكر من بين تلك (الزفّات) ما يذكره الصبيان الآخرون عن زفة أحد أبناء أهل البلد الأغنياء الذين لهم صلة بأمير البلدة، إذ إستطاع والده أن يحصل من الأمير على فرسين اثنتين مع سائسين لهما أركب أحدهما ولده الذي حفظ القرآن ومعه السائس يمسك به لئلا يقع على الأرض، وأخذ يركب اثنين من صبيان المدرسة على الأخرى بطريق التناوب وإظهاراً للاحتفاء بهذه المناسبة، وكان (صالح) أحد الراكبين في إحدى النوبات، وقد طاف الموكب شوارع البلدة وأزقتها تسبقه ضجّة هائلة من أصوات الصبيان، وتلحقه وترافقه سحابة هائلة من الغبار الذي تثيره أقدام المشتركين في الموكب، ولاسيما أقدام الأطفال العارية المهرولة.

وعـــندما انـــتهوا إلـــى بيت والد الصبي، وجدوا صحون الجريش الكبيرة قد أعدت للآكلين، غير أنها لم تكن كل ما نالوه من هذه الزفة وإنما كان مسك ختامها نثاراً من الحمص والملبس، والكسر الصغيرة من الأقط، وقد نثروا ذلك كله نثراً فوق رؤوس الصبيان على الأرض الترابية فأخذوا يلتقطونه من الأرض وينتهبونه فيصفونه بأيديهم مما علق به من التراب، ويلقون به في افواههم.

الفصل الثلاثون

الدكان:

بعد ثلاث سنوات قضاها (صالح) في التردد على المدرسة صباحاً وظهراً قال (المطوع) لوالده: إن أوان حفظه للقرآن قد آن، وهو بذلك يشير إليه لكي يخبره عما إذا كان يرغب في عمل (زفافة) له بهذه المناسبة كما يفعل ذوو اليسار من الناس لأبنائهم، إلاّ أنه لا يستطيع أن يكلمه بذلك بعبارة صريحة لئلا يسبب له الحرج فيجيب بما لا يحب.

أما زيد المطية فإنه لم يرغب في ذلك لما تسببه إقامة هذه (الزفة) من مصاريف، إذْ يتحتم عليه أن يعد طعاماً لأهل الموكب الذين لا يمكن حصرهم، لأن بعضهم وبخاصة من الصبيان والشبان، وغير ذوي المكانة من الناس قد يتبعون الزفة ويحضرون الطعام من غير أن يدعوا إليه على اعتبار أن العرف يوحي بأن ذلك من باب الدعوات العامة التي لا يحسب من يقيمها حساباً لعدد كبير من الناس الذين يكونون مثل زيد، يريدون أن يتفادوا ما تسببه الولائم الكبيرة من نفقة وتعب بأن يضعوا طعاماً بهذه المناسبة يكون محدود المقدار لا يدعى إليه إلاّ عدد محدود من الناس يكون على رأسهم (المطوع) واثنان أو ثلاثة من كبار التلاميذ الذين يساعدونه في المدرسة، وبعض الأقارب الأدنين من الأسرة.

وهكذا صنع زيد إلاّ أنه بعد أن حفظ ابنه القرآن آثر إبقاءه في المدرسة مدة أخرى حتى يرد بالقرآن أي: يعيد قراءته مرة أخرى حتى يكون ذلك أجود لمعرفته به. وليحصل على مران أكثر في تعلم الكتابة حتى يجود خطه.

وقد استغرقت هذه المدة الإضافية أكثر من الستة قليلاً.

وبعد ذلك أخرجه أبوه من المدرسة وسنه زهاء الحادية عشرة فجعله يساعده في حانوته (دكانه) في البيع والشراء، فكان يساعد والده في حضوره ويفتح الحانوت عوضاً عنه في غيابه.

وذلك له فائدة مزدوجة فهو إلى جانب مساعدة الوالد يجعل الولد يكتسب مراناً متزايداً على البيع والشراء حتى يستطيع أن يخلف والده فيه عند كبره وعجزه عن العمل.

وقد قطع كل صلة له بالمدرسة أو التعليم حتى إنه نسي أكثر ما كان قد حفظه من القرآن بطريقة التلقين.

غير أن معرفته بالخط والكتابة قد تحسنت بسبب مرانه عليها إذ أصبح مقصداً لجيرانه وجيران جيرانه من أهل السوق يكتب لهم رسائلهم، ويقيد بعض ما يبيعونه نسيئة في دفاترهم، وقد أصبح بذلك موضع فخر والده رغم رداءة خطه، وكثرة غلطاته الإملائية إن لم نقل إن الغلط في الإملاء كان القاعدة الغالبة على كتابته، وإن الصواب فيها هو الاستثناء.

ولم يكن تمرين (صالح) في الحانوت ليتم دون صعوبات رغم أنه عمل سهل.

ذلك بأن سياسة المشترين تحتاج إلى خبرة وحنكة، وبخاصة المشترين من الأعراب الذين لا يحسن اصطيادهم، والكسب منهم إلاّ خبير.

وكثيراً ما كانت معاملة (صالح) غير الحكيمة لهؤلاء الأعراب سبباً في نفورهم من حانوته، وحرمانه منهم، بل سبباً لكونهم يصبحون غنيمة سهلة لأصحاب الحوانيت المنافسة، مما جعل والده يعتب عليه بل يلومه ويوبخه على ذلك.

ولـــو شـــهد القـــارئ الكريم ما كان قد دار بين صالح وبين بعض الأعراب في الحانوت من حوار صعب، وجدال مُضنٍ حول جودة السلعة ورداءتهـــا، وما كان من مماكسة شاقة حول ثمنها لما كان قد لام صالحاً علـــى عدم تحمله أولئك الأعراب الأجلاف الذين يحتاج التعامل معهم إلى قوة في التحمل وسعة في الصدر، ما يُلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم في البيع والشراء.

كمـــا أن صـــالحاً قـــد حدث له أكثر من مرة ما يحدث لغيره من الصـــبيان والفتيان من محبة في مشاركة أترابهم في اللهو واللعب، وإيثار ذلك على أي شيء آخر ولو كان مهماً في نظر غيرهم من الكبار.

فكـــان والده إذا رآه في تلك المرات القليلة قد ترك العناية بالحانوت واشتغل باللعـــب مـــع الأحـــداث الآخرين اشتد غضبه، وربما ضربه ضرباً خفيفاً، فيسارع جار له حكيم في كل مرة يراه كذلك. ويمنعه من ضربه ويقول له:

(إحمـــد ربك يا زيد أن ولدك ماهوب مثل ولد فلان وفلان الفاسدين اللي يضـــرون أهلهم ولا ينفعونهم، ولدك يا زيد بشوفتك وإلى منه لعب أو غفل عن الدكان مرة أو مرتين فلا هو غريب من العيال).

فكـــان زيد في كل مرة يقول له ذلك يؤمن على كلامه، ويحمد الله على هداية ابنه له.

والواقـــع أن الأمر كما ذكر ذلك الجار الحكيم فلم يكن (صالح) من الصـــبيان الذين غلب عليهم السفه و الاستهتار حتى عصوا أوامر ذويهم وانقطعوا للهو واللعب.

وإن زيداً يذكر كلما رأى ابنه صالحاً يلعب لعباً بريئاً واقعة حصلت لـــبعض الصـــبيان الأشقياء، حيث ضبطهم رجل الحسبة على أمر شائن فـــأودعوا الســـجن، وكانوا سبة في وجوه ذويهم فيحمد الله تعالى على أن

عصـــم ابـــنه صالحاً من مثل هذه الأشياء الشائنة، وبذلك سلم هو من تلك المواقف الحرجة.

كـــان حـــانوت زيد المطية الذي يشتغل فيه ابنه صالح يشتمل على تشـــكيلة مـــن البضائع تكاد تكون متنافرة، ففيه القهوة و(الهيل) والقرنفل وثـــياب جاهزة قد خيطت خياطة رديئة وزينت جيوبها بخيوط حمر بشكل لا يـــتفق مـــع الذوق الذي يرضاه أهل الحضر، لأنها قد أعدت للأعراب الذيـــن لا يرقى ذوقهم إلى ملاحظة الدقائق التزينية التي قد يلاحظها أهل الحضـــر، وثـــياب جاهـــزة لنساء الأعراب إلى جانب نعال من إطارات السيارات، وأغطية للرأس وأقمشة جديدة بيضاء وحمراء.

هـــذا إلى جانب عقاقير تستعمل في الطب الشعبي المحلي مثل المر والحلتيت والحبة السمراء.

بل إن زيداً اشترى أدوية من أدوية الجرب عندما سمع بأن الجرب قد تفشى في إبل الأعراب، وتضم الزرنيخ والنورة والسم بنوعيه الأبيض والأصفر والتوتياء.

وكـــان زيـــد يفضل التعامل مع الأعراب على التعامل مع أهل الحضر، لأن الأعـــراب لا يعـــرفون أقـــيام السلع، ولا يميزون تمام التمييز ما يكون من الفـــروق بيـــن جيدها ورديئها، لأن (البدوي عقله في عيونه) كما كان زيد يقول لابـــنه صـــالح الـــذي لم يكن يشاركه هذا الرأي، بل هو يفضل التعامل مع أهل الحضر الذين يربح منهم التاجر ربحاً قليلاً ولكنه سهل مريح.

ولـــم يكن فتح الحانوت يستغرق كل اليوم، بل كان يتم على فترتين أحدهمـــا تبـــتدئ فـــي حـــدود الساعة الثامنة وتستمر إلى الحادية عشرة والنصـــف فـــي المتوســـط والثانية تكون بعد صلاة العصر إلى ما قبل غروب الشمس بنصف ساعة، أما في الليل فإنه لا يفتح فيه حانوت واحد في البلدة.

الفصل الحادي والثلاثون

العودة إلى التعلم:

توفى إمام المسجد الذي كان يصلي فيه زيد بن مقرب المطية فخلفه في الإمامة رجل من طلبة العلم، أكثر منه علماً وفهماً، ولديه إلى ذلك محبة للتعليم والإرشاد.

افتتح عهده بإلقاء النصائح والمواعظ على جماعة المسجد في مناسبة، وبغير مناسبة، فسر أكثرهم بذلك، واكتسب بسببه مكانة في نفوسهم، مما حمل أحدهم على أن يطلب منه أن يسمح لابنه بأن يقرأ عليه درساً في (الأصول الثلاثة) في التوحيد. فاستقبل الإمام هذه الرغبة بترحاب بالغ بل إنها صادفت هوى في نفسه مما جعله يقول:

أنا مستعد للجلوس للمتعلمين في المسجد في التوحيد والفقه حتى النحو، لكن أين الذين يحبون التعلم؟ ثم ضرب بيده على صدره وقال:

هذا الصدر فيه خير كثير من العلم لكن الرغبة بالعلم قلّت) ثم ضحك وأردف قائلاً:

لكن هذاما هو غريب. عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول في زماننا الذي ما هوب زماننا: إن في هذا الصدر علماً جمّاً لو أجد له حفظة.. يقول ذلك وهو يضرب على صدره رضي الله عنه.

لقد كان الإمام واسمه إبراهيم، ولكن الناس يسمونه الأخ إبراهيم قد أصبح من الناحية العلمية في منزلة بين منزلتين هما منزلة المطوع ومنزلة الشيخ، فهو فوق الأولى ودون الثانية، لأن مرتبة المشيخة التي يستحق طالب العلم أن يقترن اسمه بها لا يمنحها الناس إلا لم تولى

القضـــاء أو أصـــبح في مرتبة علمية تساوي مراتب القضاة العلمية كأن يـــتولى تدريـــس العلـــوم الصعبة في الفقه والفرائض ومذاهب الناس في التوحيد ويتخرج عليه أناس في هذه الفنون.

مع أنه ليس لرتبة القضاء أو المشيخة إجازة مكتوبة تمنح للشخص فيستحق بها ذلك الوصف، لأنهم لم يكونوا يعرفون في ذلك الوقت إعطاء أي نوع من أنواع الشهادات المذكورة، وإنما يكون استحقاق هذه المراتب بالتزكـــية العرفية التي تراقب سلوك الشخص ومنزلته في الزهد في الدنيا والرغـــبة في الآخرة والبعد عن كل ما يحوم حول حمى الدين فضلاً عن البعد عما يخدشه.

وتكـــون تلـــك المراقبة على مدى سنوات طويلة إلى جانب تزكية علمية غير مكتوبة من أحد المشايخ الكبار في السن الجليلي القدر.

كـــان (الأخ إبراهـــيم) يرمي من حديثه هذا إلى أن يزيد عدد الذين سيجلس لتدريسهم لأنه ليس من المناسب لمقامه أن يجلس لشخص واحد.

وقـــد فهـــم أحدهم وهو (أبوعلي) ذلك فأخذ يطوف على عدد من جماعة المصلين في المسجد ممن لديهم أبناء في سن مناسبة، وهي تكون في الغالب من الثانية عشرة إلى ما فوق العشرين بقليل، وإن لم يكن التقيد بذلـــك تقـــيداً كاملاً أمراً ضرورياً فكان (أبوعلي) يحثهم على انتهاز هذه الفرصـــة، واغتـــنام هـــذه النعمة التي رزقوها وهو وجود طالب علم في محلتهم ينبغي أن يستفاد منه.

وقـــد استجاب له اثنان اصبحوا مع ابنه ثلاثة رضي (الأخ إبراهيم) بالجلوس لهم في المسجد مرتين مرة بعد صلاة الظهر والأخرى بعد صلاة المغرب من كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة.

وكان أحدهم ضعيف المستوى فجعل له درساً في قراءة القرآن يفتتح بـــه الجلسة كل يوم من دون تفسير، أما الآخران فإنهما كانا يدرسان في- الأصول الثلاثة- في التوحيد.

وصـــار يحضر هذا المجلس العلمي المبسط طائفة من المصلين في المســـجد بعضـــهم يســـتمع ويستفيد، وبعضهم لا يؤهله فهمه، أو معرفته باصـــطلاحات الكتب من الفهم، ولم يكن الإمام يلقي إليه وإلى أمثاله بالاً فيبســـط عـــباراته، أو يشرحها بلغة قريبة من العامية التي لا يفهم العوام غـــيرها، فكـــان ذلـــك العامي وأمثاله يحضرون الدرس رغبة في ثواب حضور حلق الذكر والجلوس في المسجد، ليس غير، إلى جانب أمر مهم آخر قد يوحي به عقله الباطن، وإن لم يستطع التصريح بذلك، والإقرار به علناً، وهو الرغبة في أن يظهر عند الناس بالانضمام إلى موكب المتدينين المحترمين.

بعـــد أن لمس أهل المسجد بأنفسهم فائدة هذا الدرس سارع بعضهم إلى إلحاق أبنائهم به.

وكان منهم زيد بن مقرب المطية الذي ألحق ابنه صالحاً وطلب من (الأخ إبراهـــيم) أن يختـــبر معرفـــته بقراءة القرآن الكريم لأنه يظن أن (المطـــوع) لـــم يعلمـــه قراءة القرآن كما ينبغي بسبب كثرة الصبيان في مدرسته، واستعجاله الحصول على (الحفاظة) على حساب معرفة القراءة، فإذا كان يحتاج إلى مزيد من معرفة (القرآن) صار درسه في تلاوة القرآن وإلا صار في الأصول الثلاثة إذا كان مستواه في المعرفة يسمح له بذلك.

ولمـــا كـــان الأخ إبراهـــيم- إمام المسجد- محتاجاً إلى المزيد من

التلامـــيذ في الدروس التي يدرسها فقد رأى أن يضم (صالحاً) إلى الذين يقرءون عليه القرآن، وإلي الذين يدرسون التوحيد في آن واحد.

كـــان عمر صالح عند ما بدأ بتلقي هذه الدروس في المسجد يناهز الخامســـة عشـــرة، وكان إصغاؤه لما يقوله مدرسه (الأخ إبراهيم) أثناءها جـــيداً، فكـــان يقبل عليها رغبة في التعلم الذي بعد عهده به، ورغبة في الوقت نفسه في إرضاء والده إذ كان قد بدأ في تقدير طاعته بعض قدرها. ورغبة أيضاً في المحافظة على منزلة اكتسبها من هذه القراءة لم تكن له من قبل، وقد شعر بناء على ذلك، وعلى عبارات الثناء التي أصبح يسمعها بأنه قد أصبحت له أهمية لم تكن من قبل.

لم تكن هذه الدروس تعوق صالحاً عن عمله في الحانوت، فهي في وقتين ليس له فيهما عمل أصلاً.

ورغـــم إقباله واجتهاده النسبي في هذه الدروس؛ كان تحصيله منها محدوداً بسبب عقم الطريقة المتبعة في تدريسها.

إلاّ أنهـــا علـــى المدى البعيد فتحت له أبواباً إلى المعرفة يمكنه أن يســـلكها مـــثل معرفته ببعض الكتب، ومطالعة بعضها مما كان قد أعاره شيخه (الأخ إبراهيم) لعدة أسابيع، كما أنها جعلته يتعرف على بعض طلبة العلـــم المبتدئيـــن معـــرفة وإن كانت لم تفتح له الحلقات العلمية الصعبة، فإنها أخرجته فيما بعد من دائرة العوام الذين يتهيبون الحديث إلى طلبة العلم.

الفصل الثاني والثلاثون

التحول الكبير:

كانـــت الحياة تسير بصالح فتحوله من صبي يافع إلى شاب بالغ في الوقت الذي كانت فيه المملكة العربية السعودية تشهد بداية تحول اجتماعي ســـببه تحـــول اقتصادي عظيم كان يطل على الأفق نشأ من بداية تباشير إنـــتاج النفط في المملكة، ودخول أول العائدات النفطية إلى خزينة الدولة، وهـــي عائدات كان أثرها في أول الأمر ضعيفاً على أفراد الشعب، لأنها قليلة الكمية، وكان إنفاقها يتم في مجالات معينة لا تتسم بالشمول.

وكانـــت الحـــرب العالمية الثانية قد انتهت قبل أعوام قليلة، فكانت آثارهـــا لا تـــزال تفعل فعلها في اقتصاد البلاد الذي كان ضعيفاً جداً قبل الحرب، ولم تزده الحرب إلاّ ضعفاً على ضعف.

ولكن ذلك التحول الذي هو في بدايته لم يفطن له في ذلك الوقت ألا مَـــنْ كـــانوا قريبيـــن من مراكز الدولة، كما لم يتنبأ بآثاره المحتملة على مستقبل البلاد إلا أقل من القليل، إذْ كان فوق ما يظن الظانون منهم.

وبيـــنما كانـــت الحياة تسير معتادة أو شبه معتادة في بيت زيد بن مقرب المطـــية وبمـــن في بيته كان التحول الكبير في المملكة العربية السعودية الذي سببه اكتشاف النفط يسير بشكل غير معتاد، ويتوسع أكثر فأكثر على الأيام.

كمـــا بـــدأ مـــع هذا التحول إنشاء بعض المرافق ودوائر الخدمات الضـــرورية، مثل المدارس الابتدائية المحدودة العدد، والمستوصفات التي أخذت تقدم بعض أنواع العلاج البسيطة في المدن.

حـــتى كـــان في عام ١٣٧٠هـــ حين مرض زيد المطية بمرض لم يستطع طبيب المستوصف الموجود في بلدته أن يعالجه، فامتد به المرض

واشـــتد علـــيه، ولم يفد الطب الشعبي فيه أيضاً، ومن أهم ما في العلاج الشعبي الكي، ولكنه لا يكون العلاج الناجع في كل الأحيان بطبيعة الحال.

لقـــد امـــتد المرض بزيد بن مقرب المطية واشتد حتى صعب أمره علـــى أقـــربائه وأصدقائه ومنهم قاضي البلدة الشيخ إبراهيم الذي كان هو الأخ إبراهيم إمام مسجد الحي الذي يسكن فيه زيد المطية، وهو شيخ ابنه صـــالح علـــت منزلته في طلب العلم حتى عين قاضياً في البلدة بناء على طلب من أهلها، وإشارة من كبار المشايخ الذين استشارهم ولي الأمر في ذلك، فأخبروه بأنهم يعرفونه بالفقه والتدين.

وكـــان القاضي قد علم بأن الحكومة قد ترسل بعض المحتاجين إلى العـــلاج في الخارج ممن يقتنع من حاجتهم للعلاج، ويشفع له عندهم من تثق في شفاعتهم.

فســـأل طبيـــب المستوصف الموجود في المنطقة، وهو سوري الجنسية عن البلد الذي هو أحسن في العلاج في الخارج، فأجابه الطبيب بأنه باريس.

وهكذا أرسل القاضي إبراهيم إلى ولي الأمر برقية يشرح فيها حالة زيد المطية وأنه من أهل الديانة والأمانة، وممن لا يستطيعون العلاج في الخـــارج على حسابهم الخاص، و أن طبيب المنطقة قد أفاد بأن علاجه لا يكـــون مجديـــاً إلاّ في الخارج، والتمس أن يصدر الأمر بإركابه إلى هناك مع مرافقه وهو ابنه صالح، وإن يعالج على حساب الدولة في باريس.

وقـــد كانت استجابة ولي الأمر لطلب القاضي سريعة وإيجابية، إذ تلقى برقية بالموافقة على ذلك، وأن مديرية الصحة العامة قد أبلغت بذلك، وأن الســـفارة السعودية في باريس ستتولى الإشراف على علاجه. وهكذا أسرع الشيخ إبراهيم إلى زيد يزف إليه البشرى بذلك غير أن زيداً لم يكن يتصور أن العلاج هناك سيفيده مثل ما كان القاضي يتصور رغم ما يعانيه

مـــن الألم، ويحتسب الأجر من الله تعالى على آلامه تلك، ويلهج بالدعاء إليه تعالى أن يرزقه الصبر على ما ابتلاه به من مرض.

غير أن القاضي استعان ببعض الأصدقاء على إقناعه بالسفر وبأن العلاج في الخارج هو أمر مطلوب ومفيد.

كمـــا استعان على ذلك بتلميذه صالح بن زيد الذي كان قد بدأ يسمع عن عـــلاج الغربييـــن وطبهم المتقدم، ومدنيتهم التي تخالف مدنيتنا، بل التي ظن أن فيها ما لم يكن يخطر على باله هو وأمثاله من الذين نشأوا بعيداً عنها.

وقـــد ساعد على أن يعتقد ذلك ما كان قد علمه يقيناً من الذين كانوا قد ســـافروا إلـــى الظهران حيث يعمل الأمريكيون في صناعة الزيت، ثم عادوا يحدثـــون بني قومهم وذويهم بما شاهدوه لدى الأمريكيين من نظام في العمل ونظافـــة في المسكن والملبس، وأشياء أخرى من تقاليدهم الغريبة بعضها لا يذكـــرونه إلا بـــأن يشفعوا ذكره بالاستعاذة بالله منه في أول الجملة وآخرها مثل بروز النساء كما يبرز الرجال وعملهن كما يعملون.

ولكـــن الأخـــبار المثيرة سواء أكانت محبوبة أم مكروهة تسير في الناس وتجد منهم من يتناقلونها، بل ويبحثون عنها لينقلوها ويشيعوها، وهم إذا فعلوا ذلك لابد أن يضيفوا إليها من المبالغات والحواشي والتهميشات ما يجعلها أكثر إثارة، وأكثر دخولاً في النفوس.

وكان من الذين بلغتهم هذه الأخبار فعلقت في أذهانهم وتطلعوا إلى المزيد منها صالح بن زيد بن مقرب المطيبة.

ولذلك وجدت فكرة علاج والده في أوروبا ومرافقته إلى تلك البلاد هوى في نفسه، إضافة إلى ما يأمله من شفاء والده الذي يحبه ويؤلمه، بل يفـــزعه أن يـــراه يتألم، دون أن يكون بيده أن يفعل له شيئاً بعد أن عجز الطب الشعبي عن شفائه.

الفصل الثالث والثلاثون

السفر:

سافر صالح المطية بأبيه (زيد) على ظهر سيارة من سيارات النقل كانت قد مرت بقريتهم تحمل منها ومن المنطقة التي حولها تمراً وسمناً وأقطاً إلى مدينة جدة.

ولم تكن حالة زيد المطية تسمح له بأن يبقى في ظهر الناقلة جالساً طول الوقت ممسكاً بالجانب الخشبي من حوض السيارة طيلة الطريق، فلذلك وضع له ابنه حشية ووسائد كان ينام عليها حتى إذا ما أتعبته حركة السيارة غير المنتظمة في ذلك الطريق الذي لم يكن مزفتاً، بل ولا ممهداً، وإنما كان طريقاً أرضياً تسير عليه السيارة كما كانت الإبل تسير في الصحراء.

فهم في ذلك الوقت لم يكونوا يرون فرقاً بين البعير والسيارة من هذه الناحية، بل لو حدثهم محدث بأن الطريق التي تسير عليها السيارة ينبغي أن تكون غير الطريق التي يسير عليها البعير لم يصدقوا ذلك، لأنه عندهم كمن يقول إنه ينبغي أن يمهد الخلاء كله حتى تسير عليه الإبل، ذلك لأن البرية كلها طريق صالح للإبل.

وشيء آخر جعلهم لا يتصورون ذلك، بل لا يتطلعون إلى أكثر راحة من السير بسيارة نقل على طريق غير ممهد هو أنهم كانوا قد اعتادوا على قطع الطريق على الإبل ما بين المنطقة التي فيها قرية (العامرة) بلدة زيد وبين مكة المكرمة التي كانوا يقصدونها للحج أو للتجارة في عشرين يوماً مع ما ينالهم في تلك المدة الطويلة من تقلب الجو بسمومه وشمسه المحرقة في القيظ وزمهريره وبرده الشديد في الشتاء، وما يحفل به الطريق من دواب الأرض وهوامها.

وذلك إلى جانب ما كان يحدثهم به من كانوا قبلهم ممن قد عاشوا في أزمان انفلات الحكم، وعدم الأمن، فكان الأعراب واللصوص

والمنتهبون يترصدون لهم في الطريق، ويهجمون عليهم، وكان الذي يصاب بماله وتسلم نفسه ربما لا يعد ذلك مصيبة كبرى، رغمْ قلة المال، وندرة الثروة، ولكن (وَيْلاً أهون من ويلين) كما كان العرب القدماء يقولون.

فكان الواحد منهم إذا ركب في سيارة نقل وقطع المسافة إلى مكة المكرمة في ثلاثة أيام على طريق غير ممهد عد ذلك نعمة من نعم الله التي ينبغي شكرها حتى لا تزول.

ورغم ما في الطريق من محطات قليلة قد يجد فيها المرء ما يحتاج إليه من طعام أو قهوة، إلا أنهم حملوا ما يحتاجون إليه من مؤونة السفر، وما يحتاج إليه إعداد الطعام من أوانٍ وأوعية كان أحد رفقائهم المسافرين قد تكفل بإحضارها لأنه كان ينوي عودة عاجلة من الحجاز فكان يحتاج إليها في الإياب أيضا.

كان سفرهم في يوم من أيام الربيع المعتدل، وقد ابتدءوا السفر في أول النهار، فلما ارتفع الضحى كانوا قد وصلوا مورد ماءٍ في الصحراء ليس عليه أحد، فأوقفوا سيارتهم ليتزودوا من الماء لسفرهم، فأسرع الشبان منهم بالنزول من السيارة وأنزلوا الدلو وأخذوا يخرجون الماء من البئر ويملأون القرب حتى ملأوا أربعاً منها.

ثم واصلوا سيرهم إلى الظهر حيث اختاروا موضعاً في البرية ليس به أنيس وقد حملهم على اختياره كثرة الشجر الذي يأخذون منه الحطب.

فأوقفوا سيارتهم وأسرع بعضهم بإيقاد النار وأسرع الآخرون بجمع الحطب من الأرض يضعونه عليها لتزيد اشتعالا.

أما أحد الذين مرنوا على الأسفار فإنه قد نصب القدر، وملأ أباريق القهوة بالماء.

وكـــان ســـائق السيارة من أهل الحجاز الذين يستصعبون مثل هذه الأشياء، فأخـــرج (دافـــوره) أي: موقد الغاز يريد أن يصنع له الغداء، والشاي منفرداً، فامتنع الـــركاب مـــن ذلـــك ومـــنعوه مـــن أن يصنع لنفسه شيئاً خاصاً وقالوا: إن طعامنا وقهوتـــنا لكـــل مـــن في السيارة من (إخويانا) أي: رفقائنا حتى اثنين من الأعراب ليس معهما عدة ولا طعام كانا من بين الذين يشملهم هذا الأمر.

ولـــم يمـــانع السائق في ذلك غير أن الذي كدره وكدر أصحابه أنه عندما أراد أن يدخن في مجلسهم- في الصحراء- انتهره أحدهم وقال له:

(مـــا تستحي على نفسك إذا صرت ما كرمت نفسك من شرب هذا الدخان الخبيث، كيف ما تكرمنا حنا -ياريعك- عنه؟)

وكان السائق عاقلاً ومجرباً قد جرب أمثال هؤلاء فرأى أن المجاملة هي أفضل الطرق لمعاملتهم فأطفأ لفافته.

ثم غافلهم بعد فترة وأبعد في الصحراء، ودخن ما شاء له مزاجه أن يدخنه ثم عاد إليهم.

وصلوا إلى جدة بعد ثلاثة أيام بلياليها كاملة.

وقد عانى (زيد المريض) من السفر ما زاده تعباً إلى تعب، ومرضاً إلى مرض.

وكان الشيخ إبراهيم كتب معهم كتاباً إلى بعض من كان يعرفهم في جـــدة يحثهم على إنجاز ما يحتاج إليه السفر من أشياء كان هو لا يعرف تفصـــيلها حق المعرفة، إذ لم يسبق له السفر إلى خارج البلاد، وليس لديه أدنى معرفة بما يلزم لذلك مثل تأشيرة الخروج وإنجاز الجواز والحجز في الطائـــرة، وما يسبقه من إعداد تذاكر السفر، إلا أن صاحبه المقيم في جدة كفيل بذلك بحكم إقامته هناك وتجربته السابقة لمثل هذه الأمور.

الفصل الرابع والثلاثون

البرزخ:

بعـــد إقامـــة خمسة أيام في جدة في بيت ذلك الشخص حان موعد الســـفر بالطائـــرة، أو قل حان الوصول إلى البرزخ الذي هو بالنسبة إلى صـــالح بن زيد برزخ حقيقي فاصل بين حياة كان يحياها كما كان يحياها أســـلافه في بلدته (العامرة) وبين حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف في كل النواحي هو على وشك أن يحياها.

كانـــت شركة الطيران التي ركبا فيها هي الشركة الفرنسية، وكانت رحلـــتهم تقـــوم من جدة إلى القاهرة وتستغرق من الطيران ثلاث ساعات وربعـــاً، إذ كـــان ذلـــك قبل عصر الطيران النفاث، وإنما هي الطائرات المروحية، ومع ذلك فهي طائرة كبيرة ذات محركات أربعة.

وكـــان صاحبهم الذي في جدة يعلم من حال زيد المريض وابنه ما جعلـــه يطلب من ممثل الشركة أن يوصي بهم الملاحين في الطائرة لكي يســـاعدوهم أثناء الطريق الذي سيكون طويلاً، إذ سيسافرون بعد أن يلبثوا في القاهرة ثلاث ساعات إلى مدينة (أثينا) في أوروبا، ويقضوا فيها بعض الوقت، ثم يستأنفون سفرهم إلى باريس.

أما عند الوصول إلى باريس فقد اطمأن إلى أن وزارة الخارجية في جـــدة قـــد أبرقت للسفارة السعودية في باريس أن تستقبلهم وأن تهيئ لهم الوصـــول إلى الطبيب المختص إنفاذاً لأمر ولي العهد في المملكة العربية السعودية الذي كان قد أمر بذلك.

صعد صالح إلى سلم الطائرة فوافته على قمته مضيفة فرنسية كانت

تســتقبل الــركاب بابتسامة عريضة، إلا أنه لم يملأ عينه منها لأنها امرأة غــير متحجــبة، وإنما نظر إلى الأرض، وتعوذ بالله من الشيطانْ الرجيم الذي طالما سمع من الناس في بلاده أنه قد أغوى أولئك الكفار من الإفرنج حتى زين لهم أن تعمل المرأة كالرجل.

وعندما تجاوزها إلى داخل الطائرة وهو ممسك بعضدي والده وقف لأنه لا يدري كيف يتوجه فهذه أول مرة يرى فيها داخل طائرة، وربما لم يقــابل أحداً من أقاربه أو أهل بلدته سبق أن سافر على طائرة إلى خارج المملكة، لذلك لم يحدثه محدث عما يكون فيها.

عــندما رآه أحد المضيفين أسرع إليه وأمسك بعضدي والده وأشار إلى الابن أن يتبعه إلى حيث أجلس الأب قرب النافذة وإلى جانبه ابنه.

كان ما يفكر فيه صالح وهو منطلق بالسيارة من بلدته (العامرة) إلى جــدة هو ما قد يراه في تلك البلاد النائية من سيارات فارهة ومخترعات غريبة وآلات سمع بها من قبل.

ثــم كــان يفكــر في أن يرى قدرة أولئك الأطباء في الكشف على المريض والمعدات التي يملكونها دون غيرهم من الأمم.

أمــا مــا يتعلق بمظاهر القوم فإنه كان يحلم بأن يرى ما حدثه بعض الناس عن حمرة وجوه الإفرنج، وأن ذلك بسبب شرب الخمر كما قال له محدثوه.

إلا أنــه عندما جلس في مقعده في الطائرة أخذ يفكر في شيء آخر شــيء رآه أو علــى الأصح لمحه ولم يزه، لأنه لم يشأ ذلك رغم أنه كان بإمكانه أن يفعل، ألا وهو ذلك الشيء الذي بهره، إنه المضيفة.

وجعــل يســتعرض فــي ذاكرته ما كان سمعه عن نساء من نساء

الإفرنج رآهن بعض قومه في البحرين، أو في الهند، وحدثوا عنهن أنهن يخرجن كما يخرج الرجال ويعملن كما يعمل الرجال.

وتذكـــر أيضاً ما كان قد رأى وهو في دكانه من صور على البضائع المســـتوردة لوجـــوه فتيات حمر، ولكنه كان يظن أن ذلك إنما هو رسم من الرسوم لا حقيقة له، وإنما أراد راسموه أن يجعلوه علامة فارقة على السلعة.

وبينما كان مستغرقاً في تفكيره منكساً رأسه إلى الأرض إذ بإحدى المضيفات تمر بقربه، فلم يرفع رأسه لينظر إلى وجهها لأن ذلك إثم عظيم لا يجـــترئ عليه، فطأطأ رأسه إلا أنه أبصر جزءاً من ساقيها فبهره ذلك، وخيل إليه أنهما صناعيتان فلم يسبق له أن رأى مثلهما من قبل.

غـــير أن ورعـــه أسرع إليه فصده حتى عن التفكير في ذلك فأغمض بصره، وطرد التفكير فيها من رأسه وأقبل على والده يسأله عن حاله مزمعاً أن يظل غاضاً بصره منكساً رأسه إلى الأرض إذا مرت من أمامه إحداهن.

وأخذ يحدِّث والده بينما كان المضيفون والمضيفات يرشدون الركاب إلى أماكنهم ثم يغلقون الأبواب.

ثم يتأكدون من كون الركاب قد ربطوا أحزمة المقاعد، فكانت إحدى المضيفات هي التي تتأكد من الصف الذي هم فيه.

ولـــم يكن صالح أو والده بطبيعة الحال يعرفان أن هناك أحزمة في مقاعد الطائرة ينبغي أن تربط فضلاً عن أن يعرفا كيفية ربطها.

لذلـــك جاءت المضيفة وعلى فمها ابتسامة عمل لترشد صالحاً إلى ذلك غير أنه ما أن رآها مقبلة حتى تمعَّر وجهه، وصَدَّ عنها سريعاً.

لم تفهم المضيفة ماذا دهاه غير أنها فهمت أنه قد صَدَّ عنها قصداً،

وقــد حال بينها وبين والده لأنه هو الذي يليها، فوقفت لحظات تحاول أن تجعله يلتفت إليها راجية منه ذلك، إلا أنه لم يفعل، فهو لم يفهم ماذا تريد ولو فهم ذلك لما مكنها منه.

فأيســت منه وانتقلت إلى غيره، ثم تكلمت مع أحد المضيفين الذين يعــرفون شــيئاً من طباع الشرقيين، فجاء إليهما، وأفهم صالحاً بأن يربط الحزام، فلما لم يفهم ربط المضيف حزام الاثنين بنفسه.

كــنان كــل شيء حول صالح بن زيد غريباً، بل غير متصور، مما جعله لا يستطيع أن يهتدي إلى ما ينبغي له أن يعمله.

أمــا والــده فإن الأمر كان عليه أشد إذ ألح عليه المرض، وتعب الانتقال فشغله ذلك عن أن يحاول أن يكون لتلك الأشياء على غرابتها أي رد فعــل في نفسه، إلا الدعاء وأخذ نفسه بالصبر وترك كل شيء لابنه، لأنه- أي الوالد- لا يستطيع غير ذلك.

وبعد فترة من الوقت كانت المضيفات فيها يغبن عن ناظر (صالح) كان يجيل بصره في الطائرة فيرى المضيفين والركاب.

وســمع صــوت محــركات الطائــرة، فلم يدر ما إذا كانت الطائرة قد تحركــت مــن الأرض أم لا تــزال علــيها، ولكــن فكرة الطيران بين السماء والأرض أمر لا يكاد يصدق به هو وأمثاله رغم كونه سمع به كثيراً من قبل.

بل إنه كان قد قرأ عن أول طيران قام به إنسان ولكن القراءة أو سماع الأخبار شيء، ومعاناة الطيران شيء آخر.

اختلطت في نفسه زوح المغامرة مع رهبة الواقع الذي يقول له إنه ســيطير لأول مرة بين السماء والأرض وظلتا تتصارعان في ذهنه حتى

تغلبت الأخيرة على الأولى، ولكن ماذا يفعل؟

إنـــه يعلم أنه الآن مربوط إلى هذا الكرسي بقيد لا يعرف هو كيف يحله لو أراد ذلك، ثم ماذا ينفع التفكير في هذا الأمر والطائرة الآن تزمجر محـــركاتها بصوت يصم الآذان، إن هذا دليل على أنها قد نهضت بالفعل غـــير أنه لمح بعيداً عنه بناء في المطار مرتفعاً كان قد لاحظ وجوده قبل أن يركب الطائرة.

ثـــم شـــعر بجسمه وكأنه يستلقي على ظهره رغماً عنه، ونظر إلى جهة البناء الذي كان يعهده عالياً فلم يجده في مكانه، فأيقن بأن الطائرة قد طارت وتشبث بيدي المقعد بشدة حتى كادت كفاه تدميان.

وكان قد زايله الحرج في هذه الأثناء فلم يكن يرى المضيفات أمامه لذلك أخذ يمد بصره أمامه يسلي بذلك نفسه حتى يشغل باله عن هذا الذي يرج جسمه رجاً، ويزلزل ذهنه كذلك.

وبعـــد هنـــيهة من الوقت هدأ ذلك الشيء قليلاً ولم يبق إلاّ صوت مـــتماثل متناسب يشبه في رأيه صوت رحا كانت عندهم قديمة فهو شديد ولكنه متناسق ربما يحمل على الإغفاء.

وهـــنا عاد المضيفون إلى البروز بين الركاب ثانية، وعادت أقدام المضـــيفات بسيقانها التي تقرع أرض الطائرة بأصوات شبه موسيقية إلا أنهـــا موسيقى غير محببة لأذن صالح بن زيد، فهو في حقيقة أمره وفي داخل نفسه لا يريد أن يرى تلك المضيفات فضلاً عن أن يعجب بسيقانهن، أو يطرب لوقع أقدامهن.

إلا أنه لم يشاور في هذا الأمر كله.

وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم أكثر من مرة، وكانت قد سبقت له عدة تعويذات زادت على العشرات، بل كان أحياناً يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بطريقة لا شعورية، فأي مكروه يحس به يعتقد أن سببه من الشيطان فيستعيذ بالله بطريقة شبه آلية وإن لم يستحضر معنى الاستعاذة على حقيقته.

ومع كراهيته لمنظر هذه المضيفة التي هي كافرة أولاً، ومتبرجة بل مسترجلة ثانياً مما جلب له الغم والكدر، فإن الكدر قد يكون في طياته أحياناً شيء محبوب وفقاً للقاعدة العامة التي تقول: إن الخير المحض والشر المحض قليل جداً في هذه الحياة، وإنما الشر هو ما كان إثمه أكبر من نفعه والخير: ما زاد فيه الحسن على القبيح.

وهكذا تذكر (صالح) أن هذه فرصة طيبة لكي يرى- عن كثب- أجساماً كافرة مآلها إلى النار، ووجوهاً وإن كانت تبدو باسمة في هذه الدنيا فإنها ستكون عابسة في نار جهنم.

وراقته الفكرة، إذ كيف له أن يرى تلك الوجوه وهو في بلاده التي كل أهلها من المسلمين الموحدين الذين طالما سمع عنهم أنهم لولا الحسد الذي في صدورهم أو صدور بعضهم لإخوانهم المسلمين لكانوا من الذين يكاد المرء يقطع بأنهم من أهل الجنة.

ركان قد نسي أنه سيقدم على قوم كلهم من أهل النار مثل هؤلاء، وهنا كان أحد المضيفين الفرنسيين قد أقبل من مقدمة الطائرة، فأخذ يتأمله وأعجبه صحة بدنه، ونظافة ثيابه، وشيء آخر لم يستطع أن يحده بالضبط وهو الأناقة البادية على جميع مظهره وتناسب ملابسه، ثم لما رأى وجهه ينضح بماء العافية وليس فيه أي أثر لأي مرض من الأمراض التي تترك

سماتها على الوجه كالجدري والدمامل فضلاً عن آثار فقر الدم أو نقص التغذية التي تظهر في الوجه على هيئة صفرة في اللون. أو الآثار التي تتركها أمراض العيون من البياض في العين إلى ضيق الجفنين.

رأى صالح ذلك على وجه هذا المضيف الفرنسي فعجب منه، وأخذ يبحث عن سبب له فلم يعثر عليه إلاّ بعد جهد ذهني وهو أن هؤلاء لهم الدنيا وللمسلمين الآخرة.

بل إنه احتقر هذا الفرنسي في نفسه عندما ذكر قول بعض الزهاد القدماء: لا خير في نعيم بعده النار، والأثر الآخر: يجاء يوم القيامة بالكافر المتنعم فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ فيجيب: لا".

وبقدر ما أقنعه هذا التعليل فإنه جلب لنفسه الرضا عند ما طرأت على ذهنه فكرة مقارنة وجه هذا المضيف الكافر الذي يتألق صحة وحسن مظهر، بوجه جار لصالح كان وجهه قد تكالبت عليه عدة أمراض فترك كل واحد منها فيه أثراً لم يقتصر على صفحة الوجه، بل وصل إلى العينين والأنف والشفتين، وليس ذلك فحسب، وإنما تعاون أهله على نقش آثار أخرى تتمة لهذه النقوش الكثيرة فكووه كيات متعددة تركت فيه آثاراً أخرى ربما صح القول إنها مكملة للآثار التي تركتها الأمراض، إلا أن العلامات المميزة إذا كثرت في الوجه فقدت بعض أثرها، إذ الموضع السليم منه يكون هو النشاز لأنه الجزء الأصغر من الوجه.

عندما قارن (صالح) في ذهنه وجه جاره ذلك بوجه هذا المضيف الفرنسي هاله الفرق بينهما غير أنه عندما تذكر أن الفرق بينهما في الآخرة سيكون أعظم من الفرق بينهما في الدنيا وأن هذا الفرق هو في جانب جاره- بطبيعة الحال- لأنه الفرق بين النعيم والشقاء، إنه الفرق بين الجنة والنار.

كانت هذه المقارنات، بل هذه الأفكار تجري بسرعة في ذهن صالح بينما كان ذلك المضيف الفرنسي يذهب ويجيء بين الركاب.

وهـنا جـاءت إلـيه زميلة له مضيفة فوقفت تحدثه فأسرع صالح يخفض بصره عن وجهها غير أنه وجد أنه لم يخفضه كثيراً فما زال يرى سـاقيها لأنها غير بعيدة منه، فأسرع يطأطيء رأسه أيضاً، إلا أن خاطراً طـرأ على ذهنه فأوحى إليه بالا يبالغ في تجنب النظر إلى تينك الساقين لأنه في الحقيقة سينظر إلى وقود لجهنم.

هذا هو ما شعر به أو هذا هو الذي علل به كونه لا يتشدد في منع بصـره مـن أن يلـف حول هذين الساقين الغريبتين، وإن كان الأمر في حقيقته ليس كذلك من كل الوجوه، وإنما مرجعه إلى إحساس خفي لم يشعر به هو، إنه إحساس الرجل أي رجل نحو المرأة أو قل: إنه إحساس الذكر نحو الأنثى.

غـير أنـه لو كان يعرف هذا الأمر بالضبط لما تردد في الامتناع عنه، وراقت له الفكرة وارتضى هذا التعليل، وأخذ ينظر قليلاً إلى ساقين ملتفتيـن خيل إليه أول الأمر إنهما صناعيتان لأن لونهما لون غير مألوف له، ولأنهما تبدوان مكتنزين ، وفي الوقت نفسه غير ثقيلين.

ومع ذلك عاوده ورعه فنهاه عن التحديق فيهما فانصاع لذلك.

وكان موعد التخلص من أحزمة المقاعد قد انقضى منذ فترة إلا أن صالحاً ووالده لم يعرفا كيف يتخلصان منها، والمشكل في الأمر أن الأب أخـبر ابنه أنه بحاجة إلى الحمام، فلم يعرف الابن التخلص من الأربطة، كمـا لم يعرف الطريق إلى قضاء الحاجة، فنادى صالح مضيف الطائرة،

وحـــاول أن يفهمه الأمر، ولكنه لم يفهم، وكان صالح يتكلم بصوت مرتفع يريد أن يتغلب بذلك على صوت الطائرة فسمعه رجل مصري كان مسافراً معهـــم، فأســـرع ينجد هذا العربي الذي لا يفهم من اللغات غير لغته فحل حزامي المقعدين وأرشدهما إلى حمام الطائرة، وزاد على ذلك بأنه مستعد لخدمتهما فيما يتعلق بالترجمة.

وقد وفى لهما بذلك إذ ما أن حان موعد تقديم الطعام حتى بادرهما بالمساعدة على الترجمة.

وقـــد تكرر أثناء ذلك مجيء المضيفات وانصرافهن وصالح يسارق النظر إلى سيقان المضيفات لا لشيء إلاّ لينظر إلى شيء غريب من جهة وليستعيذ بالله من حال أهل النار من جهة أخرى.

هـــذا مـــا أقنع نفسه به غير أنه في مرة من المرات كان قد شغل بالحديث مع والده فرفع رأسه فجأة ينظر إلى الطريق الذي كن يجئن منه فلم يصادف منهن أحداً يراه فشعر كأنما كان قد نقصه شيء، بل شعر كما يشعر من ضاع منه شيء.

ولـــم يفطـــن إلى هذا الأمر إلاّ أنه بعد أن مَرَّتْ إحداهن ونظر إلى قدميها كما كان يفعل شعر بارتياح لم يدر مبعثه، ثم عاود هذا الأمر أكثر من مرة فزاد ارتياحه إليه.

هذا وكانت الطائرة تلجج في سماء البحر الأبيض المتوسط، وصالح يلجج في ذلك البرزخ الذي يفصله من حيث لا يدري عن حياة كان يحياها إلـــى حـــياة أخرى على وشك الوصول إليها وهي مناقضة تمام المناقضة لحياته الأولى.

وكان صالح بن زيد يلجج في شيء آخر بدون أي شعور منه بعاقبة

ما كان يفعل فهو لم يكن يتصور أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، وأن المـــرء وخصوصاً في مرحلة الشباب حيث فوران العاطفة وعنفوان الرغـــبات الجســـدية، إذا ســـمح لنفسه بالإقدام على شيء صغير ربما لا يستطيع أن يمنعها مما هو أكبر منه فيقع في سلسلة من المحظورات التي يتبع بعضها بعضاً بحيث لا تنتهي به إلا بالكارثة.

لقـــد تـــابع صالح نظره إلى أقدام المضيفات وهو في مرة يستغفر ويحوقل ويعرف أنه قد فعل ما لا ينبغي له فعله، ومرة يغفل عن ذلك أو يتغافل مستنيمة نفسه إلى دغدغات عاطفية خفيفة.

ومـــا أســـرع أن غرق في حميا تلك الدغدغات فانساق بسرعة إلى أمرين أولهما أنه أخذ يرفع بصره إلى ما فوق ذلك من أجسام المضيفات.

والثانـــي: أنه قد غفل عن مواصلة الحديث مع والده، وتسليته عن السفر لأنه شغل بالأمر الأول عنه.

والأمـــر الذي يكاد يكون ذا أثر خاص في نفسه ربما لا ينساه وإن نسيه فإنه لا يمكن أن ينسى أثره في نفسه ألا وهو أنه كان يسارق النظر إلى إحدى المضيفات ففطنت إلى أنه ينظر إليها من طرف خفي فلما التقت عيناه بعينيها ابتسمت ابتسامة عمل هي أمر معتاد، بل ربما ليس له معنى بالنسبة إليها لكنه أمر عظيم بالنسبة إليه.

فقـــد نبهـــته تلك الابتسامة إلى كونه انساق مع عواطفه، أو على الأدق مـــع آرائـــه لأنه كان يرى فيما يفعله شيئاً غير العاطفة، وإن كان الأمر في حقيقته عاطفة مفلسفة- إن صح التعبير-.

لـــم يصدق صالح في مبدأ الأمر أن تلك الابتسامة كانت له خاصة

فهو– في نظره– لم يفعل شيئاً يستحق أن تبتسم له المرأة من أجله ولذلك التفت خلفه ليتأكد مما إذا كان هناك شخص آخر ينظر إليها وأنها ابتسمت من أجل ذلك.

ولكن أياً كان الأمر فإن ذلك أمر كان يعادل في ذهنه وزراً عظيماً وإن كان قد خالجه شعور ارتاح له لفترة قصيرة من الوقت عندما تخيل أن ابتسامتها له كانت ابتسامة سخرية منه: من ملابسه ومن خشونة مظهره، ومن حالة أبيه التي يرثى لها، فارتاح قليلاً وتمتم بالآية الكريمة: ﴿**إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾.

وقد جعله شعوره بالذنب يستمر بالحوقلة والاستغفار والاستعاذة من الشيطان ويترك حتى تأمل سيقان المضيفات.

هبطت الطائرة في مطار أثينا وقال مكبر الصوت بالفرنسية إننا سنظل ساعة وربعاً في مطار أثينا نغادر بعدها إلى باريس وإنه يمكن الركاب أن يتركوا الطائرة إلى قاعة العابرين.

ولم يفهم صالح بن زيد ذلك بطبيعة الحال لأنه بلغة فرنسية، ولكن جاءت النجدة من ذلك المسافر المصري الذي ترجم ما بينه وبين المضيفين وأفهمهم أن والده مريض لا يسهل عليه الانتقال فتركوه في الطائرة، وكان الوقت ليلاً، وكان بإمكان المسافرين أن يستسلما إلى راحة لذيذة بعد تعب السفر والهبوط إلا أن الألم اشتد على الوالد مما حمل أحد المضيفين على إسعافه بحبة تخفف الألم، كما كان صعود خدم الطائرات ونزولهم يقطع عليهم لذة الاستمتاع بالهدوء.

على أن الحقيقة أن الهدوء الظاهر الذي كان عليه صالح بن زيد كان يخفي هيجاناً في ضميره حول ما فعله وما لم يفعله عندما رأى تلك

المضيفات الفرنسيات لأول مرة.

ولـــو كان الأمر مقتصراً على هذا الحد لهان في نفسه قليلاً، ولكن الأصعب من ذلك والأشد وقعاً على نفسه هو ما مر به من المفاضلة بين حال هؤلاء القوم الذين هم في غاية من الترف والمظهر الحسن وهم كفار، وبين ما يعرفه من حال أهل بلده من نقيض لذلك وهو مسلمون.

وانقضـــت المـــدة المقـــررة للبث الطائرة الفرنسية في مطار أثينا فطـــارت منه وحطت بعد ذلك في مطار ميلانو في إيطاليا، وقد ألهاه ما يشـــعر به من سهر، وما ألح على والده من تعب، وما اضطرم في داخل نفسه من أفكار عنيفة من مواصلة ما كان فعله في أول الرحلة.

الفصل الخامس والثلاثون

العالم الجديد:

حطت الطائرة الفرنسية في مطار أورلي الذي كان يسمى (مطار باريس) مع خيط الفجر الأول.

ولحسن حظ صالح وأبيه أنه كان يوجد في المطار موظف من السفارة السعودية مهمته استقبال القادمين من المملكة العربية السعودية سواء أكانوا مرضى يحتاجون إلى عناية خاصة، أم كانوا من ذوي المقامات الذين لم يكونوا يعرفون من لغة القوم شيئاً، ولا مما ينبغي لهم أن يفعلوه في تلك البلاد عندما يقدمون إليها.

وكان موظف السفارة أخبره بهذه الأمور لذلك أخبر المسؤولين في المطار فأرسلوا معه ممرضة مدربة كبيرة السن، وكرسياً متحركاً مخصصاً لانتقال المرضى من الطائرة إلى المطار.

لقد تولى الموظف كل شيء يتعلق بأمر الوصول والإجراءات الخاصة به كما تولت الممرضة العناية بأبيه حتى إنه لم يحتج إلى مساعدته.

فكان أول ما فعلته بالأب المريض أن احتضنته وساعدته على النهوض، ثم أخذت بعضديه وهي تسنده إلى جسمها في تلاصق جزع له ابنه صالح وكاد يمنع حدوثه بالقوة مدعياً أنه يستطيع أن يساعد أباه وحده، فلما لم يستطع قال لموظف السفارة:

(ما هنا رجل يعاون أبوي؟ ما هنا غير هالمرة؟).

ففهم الموظف بحكم تجربته أن ذلك كان كراهية منه لأن تمس والده

امرأة، كما كان قد واجه مثله من قبل، لذلك أجاب وهو يكتم ضحكة تهكم وسخرية بهؤلاء الذين يأتون إلى فرنسا وهم على غاية من التحرج من الموبقات، ثم لا يكاد بعضهم يغادر فرنسا إلا وقد حمل على عاتقه ذنوباً لا تحملها الجبال، معتقداً أن صالحاً قد يكون منهم.

ومع ذلك فإن الحكم ذلك ليس عاماً، وإنما له شواذ ونوادر لذلك قال لصالح:

(لا خليه معها هو اختيار وهي اختياره).

ولم يفهم صالح معنى كلمة اختيار فهي لم تكن موجودة في لهجة بلده، وإنما استعملها هذا الموظف لأنه كان سورياً حصل على الجنسية السعودية بسهولة بعد أن عمل في السفارة لفترة قصيرة.

لم يكن بيد صالح أن يفعل شيئاً لو كان بإمكانه أن يعرف ما ينبغي له أن يفعله، و إنما رأى في مطار باريس عالماً آخر جديداً عليه، بل هو بالنسبة إليه كأنه حلم من الأحلام.

فقد لاحظ أول ما لاحظ أن المضيفات اللائى رآهن في الطائرة لسن إلا أنموذجاً من هذا العالم الزاخر بما يبهر النظر من الأشكال والأزياء والألوان.

بل إنه رأى نساء عاملات في المطار هن في رأيه أغرب وأعجب من أولئك.

وكما بهره منظر الناس وأشكالهم بهره أيضاً منظر الأبنية في المطار، فلقد أذهله أن يكون الجدار أملس مستقيماً كأنما أخرج من قالب وتذكر عندئذ جدران بيته في قرية (العامرة) تلك الجدران التي لا يعرف

لهـــا شيئاً يشبهها إلا وجه المجدور الخارج لتوه من الجدري بعد أن حفر فـــي وجهـــه من النقر والحفر ما لا يستطيع أن يصفه إلا بليغ، ورأى من ذلك أمراً عجب له أشد العجب، ولم يكن يخطر في باله أو يدور في خياله أنـــه يمكـــن أن يوجـــد ألا وهو منظر أبواب الغرف والمداخل إذ رآها منسجمة مع الحيطان بشكل عجيب، بحيث لا يميزها عنا إلا خبير.

وذلـــك لكونـــه يعـــرف الأبواب في بلده من الخشب، قد ركبت في جـــدران مـــن الطيـــن وكان الفراغ بينها وبين الجدران يكون واسعاً غير متناسق، لا سيما إذا صارت قديمة قد تعرضت للعوامل الجوية من جفاف شـــديد فـــي الصـــيف إلـــى رطوبـــة كثيفة في الشتاء، فيلح عليها التمدد والانكماش على مر السنين حتى تشقق وقد تنكسر.

وذكر صالح بهذه المناسبة باباً على حوش رجل فقير في بلدته كانت القطـــط، بـــل والأطفال تدخل إلى الدار من الفراغ الذي بينه وبين الجدر وتخرج سواء في ذلك ما كان أعلى الباب وما كان أسفله.

كمـــا ذكـــر أيضاً زقاقاً في بلدته فيه باب قد رقعه أهله مرة رقعة كبيرة من الخشب فانخرقت تلك الرقعة فرقعوها أيضاً.

وقـــال فـــي ذهـــنه: أليس من العجب أن هذا الباب الذي هنا يسمى باباً وتلك الأبـــواب فـــي بلدتنا تسمى بالاسم نفسه، مع الفرق فيما بينها في الحقيقة، ولام بهذه المناسبة واضعي اللغة الذين يضعون اسماً واحداً لمسميين مختلفين.

ثـــم انتـــبه إلى أن الأمر هنا ليس مقتصراً على الأبواب والحيطان وإنما أيضاً على الناس كما سبق أن فكر به.

وكان ما ألح على فكره عند وصوله إلى هذه المدينة وهي عاصمة

فرنسا بلد الكفر والكفار أن الناس سوف يسيئون معاملته لكونهم يبغضونه كمـــا يبغضون أهل الإسلام كلهم، وطرأت على نفسه فكرة التقية وهي أن يظهـــر الإنسان للناس غير ما يبطن من الاعتقاد إذا خاف أن يؤذوه، وتلا الآية الكريمة:

﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾.

وأخـــذ يفكر في هذا الأمر الديني الهام، بل استغرق تفكيره إلى أن مر به رجل فرنسي كان يريد أن يمر من المكان الذي كان واقفاً فيه صالح لجهله بأنه ممر فابتسم له الفرنسي ابتسامة رقيقة وهو ينحني إلى الأرض قلـــيلاً ويشير بهذه إلى طريقه كأنما يعتذر لصالح عما سببه له من إزعاج في إزاحته من طريقه مسافة ذراع أو ذراعين.

وقـــد نبهته هذه الحادثة الصغيرة إلى ما كان بعض بني قومه يفعلونه عـــند الـــتزاحم فـــي الطريق أو عند المرور من الواقف إذ كان بعضهم فيما تذكـــره صالح - يسير بقرب الواقف الغافل فيضربه بجسمه على أحد كتفيه ضربة قد يستدير لها جسم الواقف فيصبح اتجاه وجهه إلى جهة قفاه.

وذلك من دون كلمة اعتذار واحدة ومن دون التفوه بكلمة أسف حتى مصطنعة، و قال في نفسه: وهذه! أهي من أخلاق الكفار؟

ثـــم أجاب نفسه بنفسه بقوله: لا، هذه من آداب الطريق التي يحث علـــيها الإســـلام، ثم إن الرجل قد اعتذر إليّ بقوله وفعله مع أنني مسلم، وهذا خلاف ما فهمته من عداوتهم لنا نحن المسلمين وبغضهم لديننا.

إلا أنه استدرك قائلاً في ذهنه: ربما كان هذا الرجل لا يعرف أنني مسلم وإنما ظن أنني واحد من قومه الكفار.

غـير أنـه استدرك على تفكيره ذلك وقال: أبداً، هذا غير صحيح، كيف يظن أنني منهم وأنا أشهب ألهب وهم حلس ملس؟

تسـلم مندوب السفارة أمتعة المسافرين وتقدمهم إلى بوابة الخروج تسـير بجانبه الممرضة الفرنسية التي تدفع بالكرسي الذي عليه المريض وهي تلتفت بين الفينة والأخرى إلى الشاب صالح لتتأكد من أنه لن يتأخر عنهم وكانت تبتسم له كلما وقعت عينها في عينيه.

ومـرة ضحكت ضحكاً عند ما رأت صالحاً وهو يقبل على جماعة كبـيرة من الواقفين وقد أخذ يمد يديه يميناً ويساراً كما يفعل من يريد أن يعـوم في الماء، وذلك لكي يستطيع أن يفرق بين الواقفين ليجد له طريقاً، لأنه هكذا كان يفعل عندما يريد أن يمر من بين جماعة كبيرة في بلده، هذا مـع أنه كان قد انتقد في نفسه قبل قليل مثل هذه التصرفات، ولكنها العادة المستحكمة التي لا تزول إلا بعد وقت طويل ومران متكرر.

إلا أن كلمـة رقيقة من هذه المرأة الفرنسية لم يفهم من معناها شيئاً، بل إنـه عجـب مـن القوم كيف فهموها لأنه كان يشعر أنها أشبه بنغقة من نغقات الطـيور الكبيرة وهي صوتها، لولا أنها كانت في غاية الرقة واللطف حتى في مخـرجها الـذي كان فيه غنة محببة، مع كون الغنة في بلاده غير محببة، لأن أكـثرها يحـدث بسـبب مرض في الأنف، وقد كانت تلك الكلمة كافية لتفريق القوم بحيث أفسحوا الطريق للمرور وهم يبتسمون.

وأعـاد صالح بن زيد يديه إلى مكانهما حول جنبيه، ولاحظ صالح أن عـدد القـوم كبير في هذا المطار، بل إنه جمهور كثيف قد ازدحم به المكان فتتمتم بقوله: (وما يعلم جنود ربك إلا هو).

وبخاصـــة عندما رأى في الموجودين عدداً قليلاً من السود فأسرع يلحق بمندوب السفارة السعودية وهو يقول له:

هذولا عندهم عبيد متلنا هم ما يتطنزون بهم؟

ولـــم يفهم المندوب ما قصده صالح فقال موضحاً: أقول هالحمران العطراس هم ما يعيرون السود بالسواد؟

فقال المندوب: لا، هذي فرنسا فيها من كل شكل ولا أحد يقول لأحد شيء. هذي بلاد ديمقراطية.

وفي هذه المرة لم يفهم صالح كلمة ديمقراطية.

ولكـــنه واصـــل ســـؤال مندوب السفارة بقوله: وها الحريم اللي ما يستحن ورا ما تنهاهن الحكومة.

فأجاب المندوب: هذي فرنسا بلاد الحرية.

وهـــنا فهـــم صالح العطية كلامه فهماً عميقاً لأنه كان قد سمع عن الحـــرية الموجودة في بلاد الكفار وحتى بلاد المسلمين التي استولى عليها الاســـتعمار وهو أن كل شخص يستطيع أن يفعل ما يشاء من المحرمات لأن البلاد حرية.

فتعوذ حقيقة وتكراراً بالله العظيم من الشيطان الرجيم.

في مدينة باريس:

أقلت سيارة السفارة القادمين مع مندوب السفارة والممرضة وسارت مخـــترقة شوارع باريس وصالح في ذهول ودهشة لم يملك معهما حينما راجع نفسه إلا أن يقول: إنه في أحلام منام وليس في واقع الحياة.

فالشـــوارع التي تسير عليها السيارة لم يكن قد دار في مخيلته أنها يمكن أن توجد، فضلاً عن أن يتصور صورتها.

فهـــي مـــبلطة وذات أرصفة وهو أمر لم يخبره به مخبر من قبل، وبخاصة وجود الأرصفة في الشوارع.

الشوارع المبلطة، رآها أنظف من قاعات الجلوس في منازل بلاده، والسيارات الكثيرة اللامعة التي كأنها اخرجت لتوها من أوراقها كما كان والـــده زيد بن مقرب المطية يقول في الأشياء الجديدة قياساً على البضائع الأجنبية، التي تأتي إليهم وهي مغلفة بالأوراق فيخرجونها منها صقيلة بل لامعة، ولا تبقى كذلك إلا مدة يسيرة قبل أن يتكالب عليها الغبار والإهمال فتعود كدرة المنظر، خشنة الملمس.

وهالته كثرة السيارات وكان يعهدها قليلة، بل نزرة ولم يكن يتصور أنها توجد بهذه الكثرة.

وأمـــا هيـــئة المـــنازل والأبنية التي يكون الواحد منها قطعة فنية من أعلاها إلى أدناها قد بنيت وفق هندسة فنية وقيست زواياها وأبعادها بمعايير دقيقة حتى حلى له أن يسمي أحدها بالعلبة الكبيرة لأنه كان يعهد البيوت من الطيـــن وبخاصـــة إذا كانت كبيرة مرتفعة تكون زواياها متنافرة، وحيطانها غـــير مستقيمة، بحيث يكون أسفل الحائط مثلاً داخلاً جهة الدار وأعلاه بارزاً جهة الشارع، وقد يكون أعلى البيت أضيق من أسفله أو بالعكس.

وخـــيل إليه أنه في عالم من السحر ولكنه كعادته جعل يفلسف هذه الأشـــياء فتذكر أن هؤلاء القوم هم الذين يصنعون البنادق ويرسلونها إليهم وهم الذين اخترعوا الأشياء النافعة من السيارة إلى الطيارة.

بل حتى الآلات الصغيرة كانت تأتي إلى بلادهم منهم، وإن من هم كذلك لا يستبعد عليهم أن يبنوا مثل هذه الأبنية أو ينشئوا هذه الشوارع، إلا أنه لا يزال يعجب من كيفية استطاعتهم ذلك كله.

وأمـــر آخـــر مهم هو أن هذه المدينة الكبيرة باريس كان قد سمع بها ولكـــنه لم يكن يتصور أنها على عشر ما هي عليه من الضخامة والاتساع، وقد عرف سعتها مما رآه منها مع أنه لم ير منها حتى الآن إلا القليل.

وغلـــبه الذهول وتنازعته الأفكار، و لم ينبهه من غفلته إلا وقوف السيارة أمام فناء كبير قد جللت أرضه الأشجار وانتشرت فيها الأزهار.

الفصل السادس والثلاثون

عالم الآلام والأحلام:

دخلت السيارة بركابها إلى ذلك الفناء الذي عرف بعد ذلك أنه المستشفى الذي سيعالج فيه والده، هكذا أخبره مندوب السفارة.

ووقفت السيارة عند بناء لم يستطع أن يجد له (صالح بن زيد) تسمية في نفسه تستحق أن يوصف بها، فهو ليس داراً كما كان يعرف الدور، ولا قصراً كما كان رأى القصور من الطين ولا يدري بم يسميه إلا أنه بناء مع أنه تذكر أنه حتى هذه الكلمة لا يمكن أن تعبر عن اسمه الصحيح لأن البناء- فيما يفهمه- هو الذي يبني شيئاً فشيئاً باللبن والطين، أو حتى بالحجارة وهذا ليس فيه شيء من ذلك فيما يشاهده من مظهره.

وأسرعت الممرضة تتقدمهم عبر ممرات المستشفى الذي تبرق أرضه وتكاد قدما صالح بن زيد تنزلق عنها، لاسيما أنه لا يزال يلبس نعالاً نجدية مفتوحة وقد كاد مرة يقع على الأرض إذ انزلقت رجله، ولكنه تمالك نفسه ولذلك صار حذراً وهو يسير فيه، بل إنه صار وهو يمشي كأنما يمشي على شوك.

وقد سبب له الخجل والارتباك كون كل الذين في المستشفى إذا رأوه ووالده نظروا إليهما كما ينظرون إلى شيء غريب، وإن لم يعيدوا النظر إليهما بعد أن كانوا قد أبدوه.

وأدخلوهما غرفة كل ما فيها جميل نظيف، بل إن (صالحاً) كما قلنا وصفها بهذا الوصف من باب المجاز ولكونه أعجزه أن يجد لها وصفاً آخر وإلا فإنها في نظره فوق النظافة والجمال.

بـــل إنـــه طـــرأت على خاطره فكرة أسرع يستعيذ أيضاً بالله من الشـــيطان الرجـــيم ويطـــردها عن فكره، وهي أن هناك أشياء يسمع بها الناس ولا يعرفون كنهها، ومن ذلك كل ما في الجنة من النعيم من منازل وقصور وأنهار وحور، وإن كان ذلك كله شيئاً مختلفاً عما في الدنيا.

ثم سأل نفسه قائلاً: لم الاستغراب من هذا الذي رأيته في باريس مما لم أتخيله من قبل، و لماذا لا يكون من هذا القبيل؟

ثـــم فطن إلى أنه فكر فيما لا يجوز التفكير فيه وقارن من حيث لا يـــريد- بين ما لهؤلاء الكفار في هذه الحياة الفانية، وبين ما للمؤمنين في الجـــنات الخالدة، ولم يكتف هذه المرة بالحوقلة والاســـتغفار، وإنما تفـــل أو على الأدق نفث عن يساره ثلاث نفثات يطرد بها الشيطان الذي أوحى إليه بهذه الفكرة.

الفصل السابع والثلاثون

المنزل الجديد:

قال مندوب السفارة لصالح بن زيد: هذه الغرفة التي يبقى أبوك فيها طول مدة العلاج وتبقى أنت معه.

وكـــان العجـــب أو قل: الذهول قد ملأ ذهن صالح قبل دخول الغرفة من منازل هؤلاء القوم قبل دخولها فلم يبق فيه مكان لما رآه من العجب فيها.

وهـــي غـــرفة تـــبدو معـــتادة لنا في الوقت الحاضر، بل إن أهل (العامـــرة) قرية صالح لو رأوا تلك الغرفة الآن لم يروا فيها شيئاً غريباً علـــيهم بعـــد أن تبدلـــت بهم الحياة، وعم الرخاء بلادهم، وتغيرت أنماط المعيشـــة كلهـــا بـــل انقلبت رأساً على عقب بسبب كثرة إنتاج الزيت في بلادهـــم، ووفـــرة الأمـــوال التي يملكونها حتى صار أهل أوروبا ومنهم الفرنسيون يتفننون في عرض أسباب الرخاء، و أدوات العيش الرغيد التي لا يستطيع أكثرها العامة من بني قومهم.

كان في الغرفة سريران نظيفان بأغطيتهما ووسائدهما مما ابتهج له صالح إلا أنه عندما رأى والده ممدداً على أحدهما ذكر شيئاً انقبضت له نفسه وهو أن هذا السرير يشبه المغُسّل وهو نعش له أربع أرجل مثل هذا الســـرير يوضـــع عليه الميت لتغسيله قبل أن ينقل إلى النعش الذي يحمل علـــيه إلى المقبرة، ولم يكن صالح مثل سائر قومه في ذلك الوقت يعرف النوم على السرر، وإنما كانوا ينامون على المضربات، أو الفرش فوق الأرض.

وقال مندوب السفارة وهو يوضح بعض الأشياء في الغرفة لصالح كلاماً كثيراً لم يستوعبه ذهنه، ولكنه فهم منه قوله:

هذا الجرس تضغط عليه وتجيك الممرضة إذا احتجتوا شي.

إلا أن كلمة (تضغط) عليه لم يفهم صالح معناها حتى أراها المندوب له بأن ضغط على الجرس فعلق صالح على ذلك بقوله:

قل ترصه، يعني تهمزه، ولم يعرف مندوب السفارة معنى تهمزه، ولكن صالحاً فهم معنى حضور الممرضة على وجه آخر فقال في ذهنه: هالعقلية، لو إن واحد (همز) ها لجرس، وهو ماله شغل، وجت المرة وكان فهم معنى الممرضة من صحبتها له في المطار قال يكمل هواجسه:

وجت المرة ومسكها الرجل يبي يسوي بها شيء بها الغرفة اللي هو فيها لحاله؟!

ولم يجد في ذهنه جواباً لهذا التساؤل، ولم يرد أن يسأل المندوب الذي أضاف قائلاً:

إصح يا سيد صالح تعطون أحداً في المستشفى أي شيء يعني من المصاري، فأسرع صالح يستفهم عن معنى المصاري.

فقال المندوب: يعني الفلوس، لا تعطون أحد شيء لأن كل المصاريف على حساب الحكومة، حكومتنا السعودية الله يطول عمرها.

ولم يكن صالح بحاجة إلى هذه الوصية لأنه كان قد فهم أن علاج والده وإقامته معه هما على نفقة الحكومة.

الفصل الثامن والثلاثون

الحمام الأفرنجي

قال مندوب السفارة لصالح وهو يفتح باباً صغيراً في الغرفة: هذا هو الحمام، ولم يعرف صالح معنى وجود الحمام هنا لأن الحمام الذي كان قد سمع بأنه يوجد في الأمصار، وإن لم يكن قد رآه لأنه غير موجود في بلادهم هو بيت يحمي عليه بالنار يدخله الناس ليعرقوا ثم ليزيلوا الأوساخ عن أجسادهم ولم ير شيئاً في هذا المكان الذي فتحه له المندوب يقرب من ذلك، بل رأى فيه مكاناً أنظف وأفضل في المنظر ألف مرة من أنظف مجلس تخيله قبل أن يصل إلى هذه البلاد.

فقال للمندوب: وين الحمام اللي تقول؟

فأجاب: هذا هو يعني بيت الراحة، هذا هو المرحاض قال ذلك وهو يشير إلى شيء في عين صالح وذهنه أقرب ما يكون إلى الصندوق الجميل النظيف الذي عليه غطاؤه.

ففغر فاه واستغلق ذهنه، بل إنه بدلاً من أن يتهم نفسه بعدم الفهم أخذ يتهم مندوب السفارة بخلل العقل، أو بأنه أراد أن يسخر منه لعدم معرفة مثله بهذه البلاد.

ولكنه تمالك نفسه قائلاً: وين المرحاض؟

فأشار إليه المندوب، وكان صالح في هذه اللحظة قد تمثل المرحاض الذي يعرفه في بلادهم وهو بناء من الطين فيه ثقب يسقط منه البراز وليس عليه باب، وليس فيه ماء وهو أقذر مكان في البيت على الإطلاق.

غير أن مندوب السفارة أسرع ينزع غطاء هذا الصندوق الصغير

النظـــيف الـــذي فوجئ صالح بأن فيه ماء قد بلغ منتصفه فأراد صالح أن يغرف بيده من هذا الماء ليختبره إلا أن مندوب السفارة أمسك بيدهُ بسرعة ومنعه من ذلك قائلاً مكرراً قوله:

هذا المرحاض.

وطـــال بينهما الكلام قبل أن يفهم صالح معني كلمة مرحاض هنا، ولكـــن الصـــعوبة التـــي لم يرد تفاصيلها لنا راوي القصة أن صالحاً لم يســـتوعب كيف يستعمل هذا المرحاض وأن مندوب السفارة حرص أشد الحرص على ألا يتركه حتى يفهم ذلك فهما كاملاً لأنه سبق له أن وقع في أمـــر محـــرج مـــن أناس جاءوا للعلاج لأول مرة مثل صالح ووالده ولم يستطيعوا معرفة ذلك فاستعملوه استعمالاً خاطئاً.

إلا أن الراوي ذكر أن المندوب قام- في النهاية- بتمثيل دور الذي يستعمل المرحاض حتى ظن أن صالحاً قد فهم، ثم أغلق عليه الباب وقال لصالح: يا الله، إعمل مثل هيك.

وخرج من الحمام فقال صالح ما بي شيء.

فقال المندوب: ولو حاول.

وحاول بالفعل حتى نجح قليلاً.

وكـــان فرحه بالنجاح في هذه العلمية المعقدة ممزوجاً بالدهشة، إذ أسرع يخبر والده بالأمر ويقول له وهو يضحك.

يابه: ... يعوم في الصندوق وشي يسون به.

غـــير أن المندوب لم يتركه أيضاً إذ رأى مسرح العملية ففطن إلى

أنه لم يستعمل المسيل للماء فأراه كيف يفعل وضحك صالح كثيراً- رغم مـــا هو عليه من اضطراب ذهني- عندما رأى ذلك الشيء يعوم فعلاً في هذه الصندوق قبل أن يبتلعه الصندوق ويعود إليه الماء الصافي الذي تخيل صالح أنه نظيف وأراد أن يجرب نظافته بيده في أول الأمر.

وأمـــا المغطس فإنه عندما رآه تذكر أن الأغنياء المترفين في بلاده يغتسلون في الأواني الكبيرة التي لا تبلغ مثل هذا المبلغ وتذكر آنذاك بيتين من الشعر العامي في هذا المعنى:

الله كِـــــريم رزق منصـــور منصــور ولد الفـعيليـة
عقب المناحي وكنس الـــدور اليــوم يســـــبح بصينيــه

وقال في نفسه أين الصينية من هذا المكان الأملس الواسع؟ وبخاصة عــندما رأى الماء ينزل إليه من صنابير في الجدار لا يدري من أين يأتي إلا أنه سأل نفسه قائلا:

كنا نعرف أن الماء ينبع من الأرض والآن هو ينبع من الجدار.

الفصل التاسع والثلاثون

رجوع الشيخ لطفولته:

بعد أن انتهى حديث الحمام الإفرنجي من لسان مندوب السفارة ومن تفكـير صالح بن زيد بسبب وجود أشياء كثيرة في هذه الغرفة تحتاج إلى تفكير وليس لكونه قد نفدت عجائبه عاد إلى والده يسأله عن صحته فشكا إليه الوالد أنه يجد آثاراً من التعب وسأل ولده صالحاً عن المسافة من جدة إلى هذه البلاد وعما إذا كانت تبلغ مسافة يومين للإبل؟ فأجاب الابن: بأنها أكثر من ذلك لأنها بعيدة حسب ما نعرفه عنها ولكننا لا ندري المسافة.

كما كانت هناك أحاديث متقطعة واستفسارات عديدة من الأب لابنه عما رآه هنا لم يستطع الابن أن يجيب عليها، لأنه هو نفسه كان في دهش واضطراب ذهني.

وقطـع الحديـث بيـنهما عـن هـذا الموضوع دخول اثنتين من الممرضـات تدخلان وهما تتبادلان كلمات أشبه ما تكون بنغمات الطيور الجميلة، أو هكذا تخيل صالح ذلك في ذهنه.

ووجهـا إليهما التحية بالفرنسية (بونجور) ولكنها ذهبت دون صدى لأنهمـا لا يفهمـان شـيئاً، بـل لا يفهمان حتى أن تحيي المرأة الرجال الأجانـب، ثم وجهتا إليهما كلمات أخرى بل كلاماً متصلاً لم يكن له أي صدى لديهما أيضاً.

وهـنا أسـرعتا إلـى نزع ملابس الأب كلها حتى لم يبق عليه إلا السـروال وذلـك وسط ممانعة ضعيفة منه لمرضه، ومحاولة متصلة من الابـن لأنهمـا لـم يفهما المقصود من نزع الملابس حتى تعاونت الممرضتان علـى إسـناد الشـيخ المريض على جسم كل واحدة منهما من جانبيه، وأدخلتاه

الحمام في حركة قسرية أغلقت أحدهما باب الحمام من الداخل.

وأجلستاه في المغطس وبدأتا تتعاونان على تنظيف جسمه بالصابون والمـــاء الدافئ مما جعله يستتيم إلى الأيدي الناعمة التي كانت دافئة أيضاً كهذا الماء الدافئ.

وأخلد شعوره إلى إغفاءة ناعمة أعادته إلى طفولته عندما كانت أمه تغسل جسمه بالماء وهو طفل إذا تراكمت عليه الفضلات والأوساخ.

وكان يكفيه من أي شيء من ذلك أن يشعر بأنه قد تخلص- ولو في الأوهـــام- من أعباء الشيخوخة والمرض وعاد إلى عهد الطفولة البريء المليء بالمتعة والعافية.

وواصـــلت الأيدي الناعمة مرورها على الجسم الخشن حتى كادت تخلع عليه من صفاتها نعومة لم يعرفها من قبل.

وألبسنه ثياباً نظيفة ثم أعدنه بين أحضانهن برفق إلى سريره.

ولـــم يستطع أن يخبر ابنه بكل ما شعر به لأنه أمر عاطفي يخجل هـــو وأمـــثاله من الحديث عنه، وبخاصة مع ابنه، إلاّ أنه قال: يا وليدي: بنات ها الأجاويد سون بي شي ما سوته بي أمي وأنا صغير.

وكاد أن يقول: ولا سوته امرتي بي إلا أنه تذكر أن كلامه قد يمس مشاعر ابنه لأنه يتكلم عن أمه.

غير أن ابنه قاطعه يقول له:

يبه، لا تقول الأجاويد، هذولا كفار.

فقال الأب: كفار؟ هو صحيح أنهم كفار؟ والله أنا ما أدري عن دينهم لكن هالحريم بنات حلال.

وعاد الابن يقول:

يابه، الله يهديك، هذولي ماهمب بنات حلال هذولي كافرات.

فقال الأب:

علـــى هونك علي يا وليدي، انا رجس كبير مريض ولا أعرف الناس لكن ما سون هالسواة بي إلا أنهن محتسبات وإلا ما جاهن منا شي.

وعـــاد الابـــن بلهجة أشد يقول لوالده: من أين لهم الاحتساب يا أبه هذولي ما عندهم دين ماهمب مسلمات.

وسكت الأب على مضض إلا أنه أخذ يحدث نفسه بما تفوه به أمام ابنه حيث لا يستطيع ابنه أن يقاطعه وهو يقول في نفسه.

عز الله انهم أجاويد وش ها المروفة وها اللين؟ وش ها السماحة؟

ثـــم يقـــول في نفسه- أيضاً-: (بعد وش ها الملاسة والزين بياض وعـــيون وســـاع وعنق الوحدة كنه عنق الريم) ثم سخر من نفسه عندما وصفها بالريم فقال: (الريم وش يصيرن عند ذولي، هذولي أزين من الريم مـــا يخسن الريم والظبا عندهن) ثم ألح عليه الألم الذي كان يشعر به من مرضـــه بعـــد أن كـــان قـــد اســـتنام قليلاً بدافع شعوره بعودته بين يدي الممرضات إلى طفولته، فشغله الألم عما كان فيه.

أمـــا الابـــن فإنه وإن كان قد اعترض على نعت والده للممرضات بأنهن بـــنات حـــلال وأجاويد فإنه أخذ يشعر بشيء غريب بدأ على شكل تساؤل ملح عـــن صحة ما كان يعتقده هو وبنو قومه من أن الكفار يبغضون المسلمين وأن فعلهم هذا وأمثاله هو فعل الشخص لمن يحبه لا لمن يبغضه.

الفصل الأربعون

العيش الرغيد:

عـــاش صـــالح مع أبيه بضعة أيام أخرى في هذا المستشفى عيشاً جديـــداً رغيداً بالنسبة إليه، لأنه بين أكل وشرب وتمتع بالنظر والإطلاع على الجديد.

ولم يكن يكدر ذلك إلا صعوبة التعايش معه لأول مرة، فقد كان من المشـــكلات الكبـــيرة أن يعرفا كيف يستعملان أدوات الأكل من الملاعق والشـــوك والســـكاكين، وكيف يصنعان في ترتيب الأكل إذ كان صالح لا يرى فرقاً مثلاً بين أن يأكل الحلوى والفاكهة في أول الطعام أو في وسطه حـــتى الشاي والقهوة وهما مشروبان معروفان لهما، بل ليس في بلادهما مشـــروب ثالـــث مـــثلهما كان تناولها مشكلة في أول الأمر، فكان صالح يشرب الحليب وحده والقهوة وحدها.

أما والده فإن الممرضة كانت تساعده على الأكل في بعض الأحيان، فكانـــت تضع الطعام والشراب في فمه كما كانت أمه تفعل به وهو طفل صغير.

وأحياناً كانت تلاطفه وربما تخيل أنها تلاطفه لكي يأكل من الطعام أكثر مما أكله.

وذلك في مجاملة فعلية ظاهرة.

وكانت آلام المرض قد خفت على الأب بعد أن كان الطبيب المعالج قد كشف عليه، وأعطاه أدوية مهدئة وعلاجاً مبدئياً.

الفصل الحادي والأربعون

جوزفين:

تعددت الممرضات اللاتي يترددن على غرفة زيد بن مقرب المطية لمعالجته، وذلك بحكم تعدد تخصصهن، ومناوبة بعضهن، ولقد كاد يصير منظرهن مألوفا في عيني صالح ، ولم يعد يؤثر في نفسه أثرا يذكر فضلا عن كونه يفعل كما كان يفعل من الحوقلة والاستغفار، بل إن النظر إليهن والتمتع بما رآه من محاسنهن قد قل إلى درجة معينة.

إلاّ أن واحـــدة منهن اسمها (جوزفين) كانت تأتي إلى الغرفة لتقوم بواجبها في معالجة الأب في فترة من الفترات قد لفتت نظره بشكل لم يجد لـــه تعلـــيلا، فهي ليست أكثرهن بياضا، وإن كانت بيضاء صافية الأديم، وهـــي ليست أطولهن قامة رغم كون البياض وطول القامة هما مثل أعلى في مقاييس الجميل عنده.

بل إن شعرها قصير قد قصته حتى لا يتعدى شحمة الأذن، وليست مـــثل بعضهن اللاتي قد أرخين شعورهن حتى تصل إلى ما تحت الكتفين فـــي انســـياب عجيب طالما عجب له وتعجب منه صالح، إذ كيف ينساب الشـــعر هكـــذا دون أن تكون فيه عقد أو تجعد كما يكون في شعر النساء اللاتي يعرفهن في بلاده؟

كانـــت جوزفيـــن في أول مرة لفتت نظره مصغية تنظر إلى والده وصـــالح واقف حوله فاحتاجت لشيء من الأشياء فرفعت وجهها إلى وجه صالح ووقعت عينها في عينيه فشعر بشيء عجيب تحرك له شعوره، بل أحـــس بأن ذلك الشيء قد سرى في قلبه بلطف كما يسري شيء لم يعتده من قبل ولذلك لا يستطيع وصفه.

وعـــندما رأت وجهه وقد ركزت فيه عينيها فرأته يبادلها النظرات حارت نظراتها فيه فوقفت عن عملها قليلاً تنظر إليه وينظر إليها.

فرأت فيه رغم خشونة منظره، وعدم معرفته بقواعد معاملة الناس هنا فضلاً عن النساء المهذبات شيئاً آخر غريباً ربما كان منظر الصحراء التـــي يشـــتاق إلـــيها مـــن يعيشون في بلاد خضراء مضافاً إليه غموض الصحراء، وبساطتها التي يصعب تعليلها، ربما كان هذا هو شعورها نحوه لأول مـــرة،وإن كانت خبيرة بنجوى القلوب، بل بأحوالها وتقلبها، بخلاف صالح الذي جرب ذلك مرة واحدة، وإن لم تذهب به تلك التجربة إلى أبعد مـــدى مـــن العاطفة الغامرة عندما أحب (مزنة) بنت جارهم سليمان ولم يتمكـــن من المضي في حبه، غير أن حبه لمزنة كان من نوع آخر مبعثه أنهمـــا كانـــا تربيـــن متلازمين فشب معهما الحب هادئاً كما يكون النسيم العليل.

لم تكن (جوزفين) قد رأت في صالح من قبل أي عامل من عوامل الإثـــارة، بل إنها كانت رأت فيه عندما رأته لأول مرة مع والده الفرصة للحصول على معرفة من المعارف الجديدة، لأنها أول مرة تقابل فيها شاباً صـــحراوياً فـــيه شيء من الوسامة قد طمره الإهمال في المظهر، وأخفاه الجهـــل بالمعاملة في مثل هذه البلاد الغربية، إلا أن الواقع أن الإنسان في جوهـــره هو الإنسان، بخاصة إذا كان إنساناً قريب الشبه بك فإنك لابد أن تجـــد فـــيه ما يشدك إليه إذا كان هو نفسه قوي الشخصية، وذا شكل يتسم بالجاذبية في أي حال من الأحوال.

وحتى (جوزفين) الفرنسية الخبيرة بتقلب القلوب لم تكن تتصور أن نظـــرتها الأولى إلى صالح التي كانت كما قلنا نظرات استطلاعية سوف تتحول إلى نظرات ذات معنى.

والمعـــنى هـــو في قلوب الفرنسيات الرقيقات الفاتنات، اللاتي هن أيضاً يصبحن مفتونات في كثير من الحالات.

عندما وقعت هذه النظرات على وجه صالح، ونفذت إلى أعماق عينيه أحست هي أنها لن تكون عاقبتها عاقبة النظرات الأولى الاستكشافية البرئية.

فرأت في عينيه وفي وجهه، بل وحتى في شكله كله الذي لا يعجبها لو تحدثت عنه مجرداً مثل عدم المبالغة في النظافة، وعدم ترتيب الهندام- علـــى حـــد تعبـــيرها في نفسها- وكيفية لبس النعلين فضلاً عن تصرفاته تجاه الأخـــريات مـــن عدم المبالاة أحياناً، إلى الزيادة المفرطة عن ذلك أحياناً أخـــرى، وعدم أداء التحية للجنس اللطيف، بل حتى الرد على التحية من إحداهـــن التي وإن كان الرجل لا يعرف لغتها، فإنه على الأقل يفهم لفتتها التي تتمثل في غمزة بالعين أو إيماءة من الرأس، أو نحو ذلك.

ولذلـــك تأملـــت وجهه وعينيه وابتسمت ابتسامة عفوية في ظاهرها لكنها كانت في الواقع مظهراً من مظاهر عاطفة الإعجاب، أو العجب من الشيء الحسن في بعض الأحيان.

أمـــا صـــالح فإنه بعد أن انتقل شعوره بسرعة من نظر العينين الساحرتين- كمـــا صـــار يقـــول بعد ذلك في وصفهما- إلى منظر الشفتين اللتين افترتا عن هذه الابتســـامة العفويـــة الصـــادقة شـــعر بأن قلبه كأنما فتحت فيه نافذة على عالم من مشـــاعر لـــم تمـــر به منذ سنوات وأحياناً شعر بأن قلبه قد أغلق على تلك المشاعر فلم يعد يميز ما إذا كان ما أصابه قد فتح باباً أو أغلق أبواباً.

لذلك ظل متحيراً لا يدري ما أصابه وإن كان يعرف أنه قد اصابه أمر غريب.

حـــتى إنه نسي في تلك اللحظة أدوات الإصابة تلك فلم يكن قد بالى بالعينين الســـاهمتين العميقتيـــن اللتين هما في لون مياه البحر العميق بين الخضرة والسواد،

ولا بالخديــن الأســيلين الذين حلف صالح في نفسه لنفسه ثم لصديقه الجديد (سعد) بعــد ذلك أنه لم يمر بهما جدري أو حصبة، ولم يقع عليهما ذباب أو بعوصة، بل لم يلفحهمــا ســموم، ولــم يصل إلى قبل صاحبتهما هموم. ولا بالشفتين الحلوتين التي كساهما الشباب صبغة هي (صبغة الله) أغنتهما عن الإصباغ.

والشيء الذي أدهشه هو الطريقة في انفراجهما عند الابتسام، حيث تــم ذلــك بطريقة هي في عينه- السحر ذاته- لأنهما انزلقتا إلى الجانبين انزلاقاً دون أن تكون هناك عملية فتح في الفم أو إغلاق له.

هكذا قال:

وأما الثغر الذي تحت الشفتين فإنه صفان من اللؤلؤ الصافي، بل إنه ســخر في نفسه من اللؤلؤ حينما شبهه بهما أو شبههما به فهما أصفى منه لوناً رغم كونه صافياً.

لاسيما أن اللؤلؤ حجر ميت وهذا الثغر الفتان جزء من حياة ساحرة فاتنة، وقد رأى ماء الشباب الصافي يجري فوق السمطين اللؤلوين في فم جوزفيــن، فحلــف فــي نفسه أيضاً لنفسه أنها لم يعرفا السعال ولا بقية الأمراض التي تسبب السعال.

ثــم تــأمل قوامها الرشيق المتناسب فعجب من ذلك رغم كونها غير طويلة، وقــال لنفســه: حــتى ثيابها كأنها جزء من جسمها فهي بيض ليس فيها زيادة ولا نقص، وهي مثل جسمها أيضاً في كونها خالية من الطيات أو الانثناءات.

جرى ذلك كله خلال اللقاء الأول الذي زاد عن الرؤية الأولى التي لــم تكن إلا إلمامات خفيفة لم يقصد بها أحدهما أن يرى الآخر فضلاً عن أن يتأمله أو يحادثه.

وقالت له في آخر هذه النظرات (بارليه فرانسيه، أي: اتتكلم الفرنسية؟)

فلـــم يدر ما تقول غير أنه طرب طرباً عظيماً لسماع صوتها الذي وقـــع علـــى أذنـــه وقوع مجموعة الأصوات المحببة من غناء البلابل، وخرير الجداول، وتعانق الزهور عندما يهب عليها النسيم.

وكـــان أعظم من ذلك في عينه فتنة انفراج شفتيها المرنتين اللدنتين عن هذه الكلمات القصيرة بابتسامتها الساحرة.

ولـــم يجـــد جواباً لقولها إلا قوله: هاه، مصحوبة بابتسامة لم يقصد منها الإجابة على الكلام، وإنما الإعجاب الفوري العفوي لابتسامتها العذبة.

وهـــنا سكتت اللسانان وتحرك القلبان، وارتعشت الشفتان، وأطرقت العينان لحظة في اغفاءة النشوان ثم قالت جوزفين:

وهي تهم بالانصراف: (ارفوار)!

ولـــم يـــدر صالح أيضاً معنى (أرفوار) وأنه الوداع بالفرنسية ولذلك أخذ يقلب في ذهنه الأمر ويقول: أيكون معناها أنا فار لأنها فرت بعدها بالفعل؟

ولكنه استدرك قائلاً: هذا غير جائز في اللغة لأن القياس أن نقول: أنا فارَّة.

ثـــم ضحك في نفسه من سخافة تفكيره عندما تذكر أنها تكلمت بلغة غير عربية.

ولكـــن ضحكته كانت قصيرة أعقبها وجوم مبعثه أنه سأل نفسه، بل سأل جوزفيـــن من خلال صورتها في ذهنه عن كونها تذهب بهذه السرعة، ولماذا لم تتمهل، وتتلبث في الغرفة بعض الوقت، وماذا يضيرها لو فعلت ذلك؟

الفصل الثاني والأربعون

الغرام:

الـتقى قلـب صالح وقلب جوزفين رغم قشف الصحراء ومدنية الأرض الخضـراء كمـا تلتقـي حبوب اللقاح رغم ما يغلفها أو يحيط بها من قشور بل سدود، إذ تكررت رؤية أحدهما للآخر، بل تكرر ذلك أكثر مما كان عليه في أول الأمر، ربما لكون جوزفين قد اختارت أن تكون حصتها في العمل في المنطقة التي فيها المريض زيد بن مقرب المطية وصار صالح يترقب مجيئها كما تترقب الأرض العطشى نزول ماء السماء.

وفـي يوم من الأيام تأخرت عن موعد مجيئها اليومي المعتاد، فاستطير فـؤاده وجـن جـنونه، وغشيه من المشاعر ما لا يستطيع أن يصفه، حتى إن والـده وهو المشغول بمرضه عن ملاحظة مثل هذه الأشياء الخفية قال له وهو يحادثه! وش اللي بك يا صالح؟ أشوفك ما تلقين بال.

وكأنمـا كان قد انتبه من سبات عميق فيه من الأحلام الحلو والمر فقال لوالده بعفوية:

لا، أبداً يا بيي، بس أفكر.

قـال: هـذه الكلمـة من دون أن يفكر فعلاً في معناها الدقيق لذلك فوجئ بوالده يسأله عما يفكر فيه.

فأجاب وقد عاد إلى كامل إدراكه:

(أفكـر يـا بيي بها الدنيا اللي جابتنا من ديرتنا لها الديرة اللي ما نعرف حتى هرج أهلها، والله ما كنهم إلى بدوا يحكون عندي إلا طيور تناغق!)

فضحك الوالد من هذا التعبير وقال:

(والله أنا يا وليدي إني اتعجب كيف بعضهم يفهم بعض من هرجهم اللي ما كأن فيه كلام).

وفـــي هـــذه الأثناء القصيرة كانت مشاعر الشوق إلى جوزفين قد عـــادت إلى الاستيلاء على تفكير صالح بسرعة، بل إنها لم تكن قد زايلته من قبل، وإنما كان قد استيقظ منها لحظة.

ولذلـــك عـــندما اســـتأنف والـــده الحديث معه قائلا: هات (رياض الصالحين) يا وليدي اقر علينا فيه شوي.

وكانـــا قد أحضرا معهما مصحفاً كريماً وكتاب (رياض الصالحين) في الحديث للنووي.

مد صالح يده بصورة آلية فالتقط الكتاب، وفتح إحدى صفحاته بدون عناية.

ثـــم ابـــتدأ بالقـــراءة على عادتهم: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

وهـــذه جملة محفوظة تقال قبل البدء بقراءة الكتاب، ولا تحتاج إلى تفكـــير ثم ابتدأ بقراءة الحديث غير أن صورة جوزفين تمثلت أمام عينيه بإغرائها الذي يعرفه، وسحرها الذي لا يعرفه، وحالت بينه و بين القراءة، فتلعثم ولم يستطع الاستمرار فسأله والده قائلا:

(وراك يـــا صالح هو النور ضعيف؟ الكتاب حروفه كبار ما يخالف لو النور ماهوب قوي!).

وهـــنا تنبه صالح إلى خطورة ملاحظة والده التي قد تفضح سره، فحـــرك رأسه يميناً ويساراً كمن يحاول أن يلقي من فوق رأسه شيئاً كان يؤذيه يريد من ذلك أن يسقط من ذهنه ذلك الشيء الذي شغله.

ولكـــن العواطـــف فـــي الشعور ليست كالأشياء المادية التي تكون على الـــرأس ويمكن إسقاطها بحركة كهذه وإنما الحركة هي في الواقع تنبيه للشخص ليعود من إصغائه إلى شعوره وإخراجه من ذلك إلى عالم الظاهر.

واســـتطاع أن يقرأ حديثاً واحداً قراءة صحيحة لتعود جوزفين مرة ثانية وتتراءى له أمام صفحات الكتاب.

ولـــم يســـتعذ هذه المرة بالله من الشيطان الرجيم كما كان قد فعل مراراً عندما ألم بأصغر من ذلك بكثير وهو رؤية سيقان المضيفات في الطائرة.

وذلك بأنه قد وقع في مستنقع قد ابتلت فيه قدماه وهو على وشك أن يغرق فيه، وهذا شأن من يكون على وشك الغرق أو حتى الغوص في مثل ذلك الأمر إلى أذنيه ألا يبالي بالرشاش الذي يصيب ثوبه.

ولم يستطع الاستمرار في القراءة وإنما أطبق الكتاب معتذراً لوالده بأنـــه يعاني من صداع، وهو في الحقيقة يعاني من صداع عاطفي هو في كثير من الأحيان أعظم ألماً أو قل: أعمق في تحريك المشاعر من الصداع وغيره من الأمراض.

لأن مـــن يصاب بهذا الصداع العاطفي يصبح في حالة بين حالتين من الرضا به و الكره له، فهو لا يدعو الله أن يرفعه عنه، ومع ذلك يكون دائم الشكوى منه.

وكأنما كان قد حصل على فرصة لم تحصل له من قبل عندما استلقى على سريره وأخذ يتأمل في ذهنه صورة (جوزفين) بقوامها الانسيابي اللدن، وشعرها الذي لا ينزل عن مستوى عنقها ولكنه يؤلف شبه حلقات جميلة غير متكاملة إلا في البهاء والرونق.

وابتسامتها التي هزت كيانه، ولا تزال موجات هذه الابتسامة بل الابتسامات تتردد فيه، ثم إنه نسي أن يصف شيئاً في جوزفين وهو مشيتها التي لم يستطع تحديد ما يعجبه فيها، ولذلك خاطب نفسه قائلاً: (كلما مملوحة وشو الشي اللي بها ماهوب مملوح؟).

وأغفا الأب، وتظاهر الابن بأنه في إغفاءة أيضاً مع أنه لو تمثلت المشاعر التي يضطرم بها كيانه أصواتاً لزلزلت منها الأجواء المحيطة به.

والأدهى في الأمر أن صالحاً عندما توجه إلى القبلة يؤدي الصلاة بعد ذلك شعر بأن (جوزفين) تتمثل له أيضاً، بل شعر كأنما هي تقف حائلاً بينه وبين القبلة.

وهذه المرة تعوذ- صادقاً- بالله من الشيطان الرجيم، وجزع لما وصلت إليه الحال بالنسبة له، إذ لم يكن يتصور أن يحدث له ما يمنعه من استحضار الخشوع في الصلاة.

وقال في نفسه: الحقيقة أن هذه المرأة هي شيطان رجيم، فهي كافرة وهذا ما أملى عليها أن تفعل به ما فعلت، لتفتنه عن دينه.

وتلا شيئاً من القرآن الكريم وسبح وحوقل وفعل ذلك بصوت مرتفع ليعلو على أصوات المراجل التي تعتمل في كيانه حتى إن والده الذي لم يعتد منه سماع ذلك انتبه من غفوته وأظهر لابنه سروره بسماعه يستغفر ويحوقل ويهلل ويسبح.

وكان لهذه الأذكار فعل ظاهر إذ خف ما كان يعانيه قليلاً واعتقد أن ذلك بسبب طرد الوساوس الشيطانية، فارتاح لهذا الخاطر، واطمأن قليلاً، غير أنه اشتاق إلى تذكر تلك المشاعر العميقة، بل إلى تمثل صورة (جوزفين) بالذات.

وحاول إقناع نفسه بأن (جوزفين) ليست إلا امرأة جميلة لم تفعل له أي فعل ينتقد، و برر بذلك أن يستمر في تذكرها، بل أن يستمر في عدم طردها من ذاكرته.

وبات ليلته تلك ليلة عجيبة مليئة بالأحلام اللذيذة، المشوبة بالآلام الشديدة التي يبثها ضميره في كيانه ويؤنبه عليها.

ولو كتبنا كل ما جرى له في تلك الليلة لأشجينا القارئ الكريم، وربما أثرنا أحزانه، أو حتى نفاد صبره على متابعة تلك المشاعر.

لذلك رأينا أن نطوي عنها صفحاً لننظر إلى الصفحة التالية عما جرى له في اللقاء التالي.

حضرت (جوزفين) هذه المرة بنية أن تقابل صالحاً ولذلك كانت قد تهيأت لهذا اللقاء وتزينت بما تتقنه المرأة الفرنسية من فنون تجميل الجمال، أو لنقل من التصرف في عرض الجمال وخاصة الجمال الذي وهبه الله للإنسان.

وجاءت قبل الموعد المحدد تطل في الغرفة لتشير لصالح مباشرة من دون أن تمر على والده أولاً كما كانت تفعل من قبل أنها ستأتي إليهم بعد قليل، مع أن الأمر لم يكن في السابق يستدعي ذلك، لأن المرور بالمرضى أمر طبيعي لا يحتاج إلى تمهيد.

وكـــان صالح لم يفارقه خيالها، غير أن رؤية المحبوب هي كشرب الخمـــر كلمـــا زاد الإنســـان من شربها زاد عطشه إليها، بل رأى أنه لن يستطيع الفكاك منها إلا بها، كما قال أبو نواس:

وكأسا شربت علـــى لـــذة وأخـــرى تداويـــت منها بها

وقـــد جـــاءت إلـــيه محبوبته التي لم يصفها حتى الآن بهذه الصفة وســـحبت كرســـياً بعـــيداً عن سرير والده على خلاف ما كانت تفعله في السابق حيث لم تكن تجلس إلا عند والده للكشف عليه أو لعلاجه.

وجذبـــت صـــالحاً بعينيها للجلوس بجانبها وحاولت أن تقرأ أفكاره عـــنها في عينيه، وفي الانفعالات التي تظهر على وجهه، ولم تكن بحاجة إلى جهد لمعرفة ذلك، فقد كان كله مثالاً على الحب بل الذوبان بها.

أمـــا هي فإنها قد أحبته، إلا أنه حب يحجز دونه- في نظرها- هذه المظاهـــر مـــن عـــدم الأناقة في الملبس، والعناية بالهندام التي لم تألفها، والأهم من ذلك هو الحاجز الثقافي.

وقالت في نفسها: لو لا ذلك الحاجز لكان هذا الشاب قد دعاني إلى حفلة عشاء أو غداء وكنت صحبته في نزهة على معالم باريس أكون فيها له رفيقة رقيقة وأمتع نفسي بصحبته.

ومـــع معرفـــتها بعـــدم فهمه لأية كلمة باللغة الفرنسية فإنها جعلت تلقي إليه بكلمات من الفرنسية لمجرد أن تعبر له عما في نفسها وليس لأجل أن يفهمها.

وكدت ذهنها فاستخرجت منه كلمات بالإنكليزية ألقت بها إليه ولكنها كانت أكثر غرابة على سمعه واستعجاماً في ذهنه من الكلمات الفرنسية، إذ كان يرى في الكلمات الفرنسية نغمات حلوة، تدغدغ مشاعره حتى وإن لم

يعــرف معناها وبخاصة حرف اللثغة الرائية التي سمعها من الممرضات الباريسيات وهن يتناغمن بها فيما بينهن.

ثــم قامت عند سرير والده لتفحصه كالمعتاد ولكن كانت نظراتها لا تزال متجهة إلى الابن وكان الابن نفسه لا يزال متجها بكليته إليها.

واقترب منها بطريقة عفوية عندما أراد أن يمر فالتفتت إليه فاقترب الوجهــان اللــذان لــم يكونا بعيدين وجدانياً من قبل، ورأت هي بطبيعتها الفرنسية وتربيتها المتحررة أن تقرب شفتيها من شفتيه، ولكنه لم يفهم لهذه الحركة أي معنى وظن أنها عفوية بل ظن أنه قد أخطأ في الاقتراب منها فكاد يعتذر عما بدر منه لو لا أنه لا يستطيع الاعتذار.

وكــان صــالح فــي قرارة نفسه يشعر بأن هذه الفرنسية لا تبادله العاطفــة، بــل يشعر بأنه أخطأ حتى في حبه لها هذا الحب الذي لا يزال بالنسبة إليه مكتوماً، إذ لم يكن يخطر بباله أنها قد تبادله الإعجاب، فضلاً عن الحب وهو على ما هو عليه من الخشونة وعدم التحدث وهي على ما هي عليه من عكس ذلك.

وذلك من واقع عدم معرفته بخبايا النفوس، وبتجارب الحياة.

وقد زادها ذلك الذي ظنه تمنعاً من صالح إعجاباً به وتخيلت أن ذلك كان اعتزازاً منه بشخصيته، وبأنه قد يكون على ثقة من أنه سيجد غيرها ممن يبادلهن الإعجاب إن لم يكن الحب.

وسمع منها بعد ذلك هذه الجملة التي سماها المشئومة وإن لم يعرف معــناها وهــي (أورفوار) أو (أنا فار) كما ترجمها خياله لأنها تدله على الفراق.

وتكررت رؤيته لها وتكررت مصيبتها به، فلا هي تستطيع أن تسير معه شوطاً أبعد، كما تفعل الفرنسيات مع الفرنسيين، أو مع الذين يقلدونهم، ولا هي تستطيع أن تسلاه فضلاً عن أن تنساه.

بل إنها زادت علاقتها- في هذه الحدود- معه.

ومن ناحيته فإن جنونه بها قد زاد واستولت على تفكيره كله حتى لم يعد يفكر في غيرها.

وكـــان ما أفزعه أن صحة والده قد تحسنت وهذا أمر يسره بطبيعة الحال وكان يستعجل ذلك ويدعو الله تعالى ألا يكون بعيداً، إلا أنه بعد أن هـــام بجوزفين قد صار لا يسر بتقدم صحة والده لأن ذلك يعني أن يشفى وأن يغادر باريس عائداً معه إلى بلاده وبالتالي يكون معناه أنه سيحرم من رؤية جوزفين.

وهالـــه مـــا وصلت إليه مشاعره، وكيف أنه صار يتمنى أن يطول المرض بوالـــده، ولـــم يخفـــف عنه من ذلك إلا تعليله الأمر نفسه، بأنه ليس رغبة في عدم شفاء والده، وإنما رغبة منه في ألا يحرم من رؤية (جوزفين).

وكانت مشكلة صالح الرئيسية أنه كان يجتر مشاعره بنفسه ولم يجد من يصلح أن يفضي إليه بسره.

فمـــندوب الســـفارة الذي اعتاد على زيارتهم بين الفترة والأخرى، وأحـــد الســـعوديين الذين شفوا من مرضهم كان يزور والده ولكنه أسرع العودة إلى البلاد.

الفصل الثالث والأربعون

الانقلاب:

امـــتد العلاج بالوالد واحتكاك الابن بهذه الحياة الجديدة وسط عيش رغيد لا تعب فيه ولا نصب، و في جو ملئ بالسحر والجمال بالنسبة لمن لا يحملـــون هماً أو غماً في تحصيله، لاسيما من كانوا مثل صالح بن زيد ليس لهم هم إلا الأكل والجلوس.

وتعرف صالح على فتى من البلاد السعودية كان يعالج قبل فترة في هـــذا المستشـــفى وخـــرج مـــنه، غير أن الأطباء أشاروا عليه بمراجعة المستشفى بين الفينة والأخرى.

فكان ينتهز الفرصة ويبحث عن السعوديين الذين جاءوا للعـــلاج أو لصحبة المعالجين، يتعرف عليهم، ويبذل لهم ما عرفه من كلمات قليلة من الفرنســـية، في مقابل أن يحصل منهم على نقود أو على الأقل على نفقته حين يرافقهم.

عرف (سعيدان) وهذا هو اسمه بمجيء صالح مع والده ففرح بذلك لغرض في نفسه، وفرح صالح بلقائه، لأنه وجد فيه من يستطيع أن يتكلم معـــه بالعربية ووجد فيه شيئاً أهم من ذلك وهو أنه يستطيع الإجابة على تساؤلاته الكثيرة عن أشياء يرى مظاهرها ولا يعرف ما وراء ذلك.

وربما كان من أهم تلك الأشياء ما يتعلق بالعواطف التي لابد من أن يفكـــر بها شاب مثله في عنفوان شبابه، وكمال صحته وبخاصة مشاعره تجاه (جوزفين).

لاســـيما بعـــد أن أخذ ورعه من كثير من الأشياء هنا يخف، ومنها

الـــنظر في وجوه النساء، بل وغير الوجوه، وكان يود أن يتحدث في هذه الأمور مع شاب مثله.

قال له سعيدان:

(وش انت تسوي كل هالمدة؟).

وكان مضى له نحو أربعة أسابيع في باريس.

فأجاب صالح:

أبـــداً، قاعد عند أبوي بالمستشفى، تعرف أنه ما يجيه أحد ويحتاج لمن يوسع صدره.

فقـــال سعيدان: لكن يا صالح، أبوك المريض وأنت صحيح وشاب، وهذي باريس مدينة النور مدينة الحرية.

وهـــنا تنبه صالح إلى المعنى السيئ لكلمة الحرية الذي كان يعرفه من قبل، وكان يسارع بالإنكار الشديد على من ينطق بهذه الكلمة من دون أن يقرن ذلك بالاستعاذة والدعاء بإبعاد تلك الحرية عن بلدان المسلمين إلا أنـــه هـــنا لم يفعل، وإن كان حتى الآن لا يستسيغ هذه الحرية، بل إنه لم يعرفها حق المعرفة.

ولذلك حول حديثه مع سعيدان وجهة أخرى فقال:

أنـــا يا خوي يا سعيدان مصكوك علي بها الحجرة كل الوقت، ولا أدري ولله الحمد عن أي شيء.

فاســـتنكر سعيدان قوله وقال: كيف تصير ببلاد النور وترضى أنك تحبس نفسك؟

فقال صالح:

وش لـــون اطلع من المستشفى وأنا ما أدري وين أروح ولا أعرف هرجهم؟

وهـــنا واتـــت الفرصة سعيدان فقال بحماس ويتظاهر بالطيبة: (من جهة هالموضـــوع لا تهتم أنا أخوك وأعرف هالديرة وأعرف هرجهم أروح أنا وإياك نتفرج وأوريك اللي فيها، أنت أخوي ولا بيننا وبينك تكليف).

ووافـــق صالح على الخروج مع سعيدان لمدة حددها لا يكون والده محتاجاً إليه فيها.

وقال له سعيدان ببراءة مصطنعة: خذ فلوس معك يمكن تحتاج لهن، ولـــم يكـــن صـــالح قد فكر في هذا الأمر لأنه ظن أن الخروج هنا مثل الخروج من البيت في بلاده لا يحتاج إلى نقود إذا كان المراد بذلك مجرد الخروج، وفهم سعيدان ذلك فقال:

(هالديرة ما هي مثل ديارنا الله يعمر ديارنا هذي ما تروح من محل إلـــى محل إلا بقروش لأنها كبيرة لابد تركب، ولا تشرب إذا احتجت إلى شرب إلا بالقروش).

وكـــان صـــالح يتسلم مصروفاً للجيب مقرراً من السفارة للمرضى الذين ترسلهم الحكومة السعودية للعلاج هنا، فأخذ معه شيئاً منها لم يرض (سعيدان) في أول الأمر غير أنه لم يشأ أن يصدمه بطلب المزيد في هذه المرحلة من صحبتهما أو على الأدق من استغلاله لتلك الصحبة.

العالم المفترس:

شـــق على سعيدان أن يسأله (صالح) عن كل شيء رآه، بل وعن تفسير

بعـــض الأشـــياء التي يرى مظاهرها ولا يعرف حقيقتها، ولكنه لم يشأ -أيضا- أن يصدمه بأن ينهاه عن الاستفسار وكثرة السؤال طلبا لعدم تنفيره.

ولقـــد تذكر (سعيدان) أنه عندما رأى باريس على حقيقتها كان مثل صـــالح في كثرة استفساراته عن الأشياء التي كان راها لأول مرة، ومع ذلك لم يعذر صالحاً فيقلل من لومه على كثرة أسئلته التي شملت الركوب فـــي حافلة امتطياها إلى طريقة الجابي في استخاص الأجرة وكيفية نزول الناس وركوبهم فيها.

والأكـــثر فضولاً قوله: ماذا يفعل هؤلاء الناس الذين يصعدون وينزلون في هذه الحافلة؟

كانت الأسئلة أكثر، والفضول أعظم وإن لم يكن في الواقع فضولاً بمعـــنى هذه الكلمة الصحيح وإنما هو طلب المعرفة بأشياء من عالم كله مجهـــول لديه، ولذلك عندما دخلا مشرباً صغيراً بعد تمشية قصيرة ورأى صالح رواده يشربون أشياء لا يعرفها، بعضهم واقف وبعضهم جالس على كراس فيه معدودة.

كـــانوا كلهم يشربون مشروبات مسكرة في أصلها بعضها خفيف كالجعة (البيرة) وبعضها ثقيل ولكنهم لا يكثرون منه إلى درجة أن يسكرهم.

وسأل صالح (سعيدان) ببراءة ساذجة عما يشربه هؤلاء القوم؟

ولم يشأ سعيدان- كذلك- أن يصدمه بإخباره بالحقيقة، فقال:

هـــذا شـــيء يشـــربونه مثل (الشربيت) اللي يباع بالخارج، وطلب سعيدان لنفسه كأساً من الجعة (البيرة) ولصالح كأساً من عصير البرتقال.

شرب صالح كأس البرتقال وهو يتفرج برؤية الداخلين والخارجين

والمتحدثين اللابثين في المشرب، وهم من أصناف من الناس مختلفة.

وســـاورته الشكوك عندما رأى بعض الشاربين يرفعون أصواتهم، ويكادون يخرجون عن أطوارهم في الحديث فقال في نفسه:

يعني هم يشربون خمر؟

وكان يرغب في قرارة نفسه أن يرى الخمر المحرمة، وإن كان من أبعد الناس في هذه المرحلة عن مجرد الاقتراب ممن يشربها، ولكنه يريد أن يراها من باب المعرفة.

غير أنه أجاب نفسه بنفسه على تساؤله بقوله:

أبداً هذي ماهيب خمر، الخمر اللي يشربها يسكر، وهؤلاء ما همب سكرانين.

انشـــرحت نفس (سعيدان) بعد أن انتهى من تناول كأسه الثاني من الجعـــة وبخاصة أن القيمة كانت من جيب صالح دون أن يشاوره أو دون أن يعلم حتى مقدار تلك القيمة.

وانشـــرحت نفس صالح حينما دخل في قلب عالم باريس المفترس الـــذي لم ير منه في هذا اليوم إلا الجانب البراق الذي قدر له أن يظل في اخـــتراقه لمدة أيام قبل أن يصل إلى حقيقة هذا المجتمع الذي هو أشبه ما يكـــون فـــي داخلـــه بالغابـــة التـــي لا يصمد فيها إلا القوي في مشاعره وتصرفاته، أو الضعيف الذي يتقوى بضعفه الأقوياء.

الفصل الرابع والأربعون

الصاحب السوء:

قال (سعيدان) لصالح:

تعـــال أوريـــك الشانزليزيه، أعظم شوارع باريس وأفخرها فركبا حافلة أوصلتهما إلى مكان بالقرب من هذا الشارع الذي هو أشبه بمعرض للأزيـــاء والألـــوان المـــترفة فـــي باريس التي هي قمة القمة في الأناقة والبهرجة في العالم.

وســـارا في أرصفة الشارع العريضة وسعيدان يصفر ويكاد يطير مـــن فرحه بهذا الصيد السمين الغرير (صالح) الذي هو أيضاً يكاد يطير مـــن فـــرحه باستجلاء هذا العالم الساحر الغريب الذي لم يكن يتصور أنه ســـيكون له بمثابة الغراء الذي تصطاد به الطيور، أو الوحل الذي تتمرغ فيه الدواب مكرهة، وإن كانت قد استسهلت الدخول فيه في أول الأمر.

رأى صـــالح واجهـــات المـــتاجر المترفة، والأرصفة العريضة والسيارات الفارهـــة، ومقاهـــي الرصيف المحجوزة بالزجاج عن لفح البرد، ولكن ذلك لم يؤثر فـــي نفســـه كما أثر فيها منظر الحسناوات المتأنقات سواء في مناظرهن أو في تصرفاتهن، حتى في المشية التي هي إغراء في إغراء.

ورأى في بعضهن من الجمال الظاهري أكثر مما رآه في جوزفين غـــير أن (جوزفيـــن) كانت حبه الأول في باريس، وقد دخلت قلبه بالفعل واستأثرت به دون غيرها من بنات هذه البلاد.

وقـــد أعجب بهذه الجولة وطلب المزيد منها عندما عاد به سعيدان

الـــذي كان أكثر إعجاباً بها لأنه ضمن أن حيلته قد فعلت فعلها في صالح وأنـــه قـــد وقع في شباكه، كما وقع فيها غيره من الأغرار الوافدين إلى بـــاريس، الذيـــن كان يحتال عليهم ويزعم أنه يحتال لهم ليدلهم على خفايا هـــذه المديـــنة الكبيرة المختلفة، وهو في الحقيقة يعيش طفيلياً على حياتهم، كما تعيش الجراثيم على جسم الإنسان ولا تكتفي بذلك وإنما تسعى في تدميره.

عـــاد صالح متأخراً إلى والده فوجده قلق عليه قلقاً عظيماً، لأنه لم يكـــن قد اعتاد أن يبتعد ابنه عنه مثل هذه الفترة وخاف أن يصيبه مكروه كمـــا كان يخاف عليه ذلك وهو طفل، وبخاصة أن العالم الذي يقع خارج المستشـــفى هو بالنسبة إلى الأب عالم مجهول لا يأمن المرء فيه مكاره لا يستطيع حتى تحديدها.

فعلق والده على ذلك بقوله:

(يـــا ولـــيدي وش لـــنا لهم؟، ديرتهم لا تصلح لنا ولا نصلح لها، الله يعـــيدنا لديرتنا اللي ما نصلح بلاها، والله – ياوليدي- إني أعد الليالي والأيام لنا بهالديرة وش يقول الدكتور عن العلاج؟ متى يقضي ونرجع لأهلنا؟)

فقـــال صالح: وش يعرفني بكلامه يا ابه لازم إذا جا راعي السفارة اللي يعرف هرجهم يسألهم ويخبرنا.

وجـــد صـــالح في هذه الجولة راحة عظيمة لأنها أنقذته من البقاء حبيساً فـــي المستشـــفى ولأنهـــا أتاحـــت له فرصة لإطلالة على هذا العالم الباريسي الغريب بحيث اصبح يتطلع إلى تكرارها.

حتى إن جوزفين التي لم تكن تفارق ذهنه قد غابت عنه لفترة من جولته.

وبعد يومين من ذلك زارهم (سعيدان) بحجة الاطمئنان على صحة

المـــريض، وإن كانت الحقيقة أن ذلك كان من أجل الاستئثار بنقود صالح وجره إلى أن يكون آثماً مثله.

وكانت الخطة تقضي أن يكون الخروج في هذه المرة بعد المغرب، وهي فترة يكون الوالد فيها على وشك النوم، ويمكن أن ينام في أول الليل دون أن يشعر بفقد ابنه، كما هي عادته في التبكير في النوم.

وقـــال سعيدان لصالح: كثّر من الفلوس معك لأننا الليلة نبي نروح لمحل بعيد.

وذهب به إلى شارع (بيغال) زاعماً أنه سيريه باريس في الليل.

وبـــالفعل قصـــد به ذلك الشارع وتناول (سعيدان) العشاء في أحد مطاعمـــه الفاخرة، أما صالح فقد طلب له شراباً من عصير الفاكهة، لأنه كـــان قد تناول عشاءه في المستشفى، وبعد العشاء طاف ببعض المحلات الموجودة في شارع (بيغال) وما تفرع منه من شوارع ضيقة.

فـــرأى صالح فيها أشكالاً من النساء لم ير مثيلات لهن في المستشفى ولا فـــي شارع الشانزلزيه ولفت نظره خاصة منظر الواقفات في الظلام أو الأنوار الخافتة، فسأل (سعيدان) عن ذلك فذكر أنه لا يعرف من أمرهن شيئاً.

فعل ذلك رفقاً بصالح من أجل أن يستدرجه إلى الشَرك شيئاً فشيئاً.

ثـــم رأى امرأتيـــن تنطلقان من أحد المحلات في الشارع إلى مكان مجـــاور وهمـــا على حالة من التبرج ليس بعدها إلا العري الكامل، وذلك لكونهما من القبيحات الوجوه المتقدمات في السن اللاتي أردن أن يعوضن بإظهار ما تحت الثياب تعويضاً عن شباب قد ذاب، وذر الرماد في عيون الذيـــن لا ينظرون ببصائرهم، وإنما ينظرون بشهوتهم، وقد استنكر صالح

منظرهن، والح على سعيدان أن يخبره بأمرهن.

فقال سعيدان: هذولي من الساقطات.

فتعوذ صالح بالله العظيم من شر الشيطان الرجيم الذي لمرهن بما ضرهن، وفهم من كلمة الساقطات أنها تعني الساقطات الأدب لا المومسات، وإلا لكان جن جنونه، وتكدر صفو سعيدان معه.

ثم انتقل به إلى حي مونبارس ومر به على مواخير اللهو وأراه الغانيات وقد جلس خلف الواجهات الزجاجية يعرضن الرذيلة ومعها السقوط في الأمراض والأعراض الشريره الفاسدة، وذلك مقابل أن يدفع الرجل نقوده ويدفع معها صحته وطهارته،وذلك حين يعاقر ابنة الحان التي يقرنها الشيطان بالعاهرات في هذا الميدان، بحيث يصدق على حاله، وربما جاء في مقاله قول الشاعر:

غدوت عليل العقل والدين فالقني

لتعرف أنباء الأمور الصحائح

ورأى صالح في هذه الليلة عالماً لم يفهمه، وكان غموضه بالنسبة إليه سبباً في أن يمضي في السعي إلى اكتشافه رغبة في اكتشاف المجهول، وفراراً من بقائه حبيساً في المستشفى.

وقد عادا مع منتصف الليل فوجد صالح والده نائماً فارتاح لذلك ورجا في ذهنه أن لا يكون قد استيقظ أثناء غيابه وافتقده.

وكان من عادة صالح أن يستيقظ مع الفجر فيؤدي الصلاة في وقتها مع والده الذي كان يصلي أحياناً واقفاً وأحياناً جالساً، إذا أعجزه المرض عن الوقوف فلم يستيقظ في تلك الليلة للصلاة، حتى أيقظه والده وبالغ في ذلك.

فقام للصلاة متأففاً لأنه لم يحصل على كفايته من النوم وإن كان قد شعر في نفسه أنه قد ارتكب إثما عظيماً بنومه عن الصلاة، كما يفعل من يأتي خطيئة لأول مرة أو يترك واجباً يتحتم عليه القيام به.

وجـــاءت (جوزفين) في الصباح، وكانت تتطلع إلى أن تلقي صالحاً مـــتلهفاً للقائهـــا كما كان كل يوم غير انه لم يكن كذلك في هذا اليوم فإن الســـهر وكونـــه رأى عشرات، بل مئات من النساء بعضهن فيها شبه من جوزفيـــن قـــد فعل فعله في نفسه، وإن لم يقلل ذلك من حبه لها، أو من منزلتها في مشاعره.

وتذكـــر شيئاً كان غائباً عنه وهو أنه لم يسأل سعيدان عن جوزفين ومشاعره نحوها، فاعتزم أن يفعل ذلك في خروجه التالي معه.

الفصل الخامس والأربعون

الغوص في الوحل:

كان الخروج في هذه المرة أسرع، وكان مع ذلك أخطر من الأول.

فقد أراد (سعيدان) أن يخطو بصالح الخطوة التالية في طريق الضلال، أو النقل: إنها الدركة الثانية من دركات الهاوية، وكان قد مهد لذلك تمهيداً في الخروج الثاني.

قال سعيدان لصالح وهما ينزلان من الحافلة في أحد الشوارع الضيقة في باريس.

ما تخبر الرقص اللي عندنا من أول؟

فأجاب صالح: بلى، اللي يرقصنه البنات؟

فقال سعيدان: نعم بس اللي يرقصن هنا حريم كبار يورون الناس رقص بلادهم فرنسا.

ولم يكن رقص البنيات الصغيرات في بلادهم يدل على ما يدل عليه الرقص في هذه البلاد من مخاصرة للنساء، و تعرّ للراقصات، فضلاً عما يتبع ذلك من ضرب المواعيد وما يترتب عليه من معاقرة الخمور، والانغماس في الفجور.

وقال صالح لسعيدان مستفهماً: يعني اللي يرقص حريم ولا يستحن؟

فضحك سعيدان ضحكة سخرية من صالح وقال:

كل شيء موجود بها الديرة إلا الحيا، المرة مثل الرجل تطلع وتروح وتجيء وتشتغل وتصادق الرجال.

فـــأجفل صـــالح مـــن قوله خاصة: إنها تصادق الرجال، ولم يكن يتصـــور قبل ذلك إلا أن هذا السفور والظهور للنساء في باريس مرجعه إلى دينهم المسيحي الذي لا يحرم ذلك كما يحرمه الدين الإسلامي الحنيف، وقـــد ظـــن لسذاجته أن هذا السفور لا يترتب عليه فجور، وإنما هو أمر اتخذوه من دون أن يكون فيه ما يتعارض مع بقاء المرأة لرجلها إذا كانت متزوجة أو لنفسها إذا لم تكن كذلك.

لذلك علق على قول سعيدان متسائلاً:

(يعنـــي أن المرة بها الديرة تروح للـيّ تبي من الرجال، وتقعد معهم ولا تقول حكومتهم شي ولا يقولون أهلها شيء؟).

فأجاب سعيدان بتهكم ظاهر:

(إيـــه، إيه، المرة هنا حرة تروح لرجل أو رجلين حسب مزاجها، المهم عندهم أنها تحب الرجل.

والـــرجل اللي ما يلقى مرة تحبه يقدر يروح لمحلات خاصة يلقى فيها حريم بفلوس).

فازداد جزع صالح وقال: أعوذ بالله، أعوذ بالله، أنا ظنيت إن المرة عندهم ما تغطي وجهها بس مثل بعض البدو عندنا.

فعلق سعيدان بصوت منخفض سمعه صالح بقوله:

(ليا مسيكين، نحسب المرة عندهم مثل المرة عندنا محبوسة بالبيت، واللـــي مـــا تزوج منهن تقعد بلا شي هي محرومة من الرجال والرجال محرومين منها؟)

فقال صالح بعصبية ظاهرة:

(أعــوذ بــالله منهم، حريمنا أحسن ألف مرة منهم المرة عندنا تقعد بدارهــا لا تفتــن الرجال ولا تتفتن بهم إلى ما يجيها ابن الحلال اللي ما يشــوف غيرها ولا تشوف غيره ماهيب مثل حريم هالديرة اللي يشوفون الرجال كلهم، ويشوفونهن الرجال كلهم.

وش لــون أنا إلى صرت ما أناب مزيون، وإلاّ كبير السن وامرتي مــزيونة أو صــغيرة وهــي تشــوف اللي أزين مني، لابد أنها تحقرني ويفسدونها الناس عليّ.

الزين – ياخوي يا سعيدان– إن المرة ما يشوفها إلا زوجها وأهلها!)

ولــم يعلــق ســعيدان على هذا الكلام الذي لم يؤثر فيه في قليل أو كثير لأنه كان قد فتن بهذه الحياة الفرنسية الغربية، بل غرق فيها إلى أذنيه.

لكنه علق على ذلك في نفسه بقوله:

(يبــي ها المغفل حريمهم يصيرون مثل حريمنا حتى إننا ما نشوف منهــن ولا وحــدة. يبيهم يصيرون مثل هالبدو– يقصد قومه الحضريين– الذيــن يذبحون الرجال اللي يناظر حريمهم؛ حتى إنه إلى صار في داره فــتحة أو شق في جدار قاموا عليه وسدوه يقولون: لا تناظر حريمنا، وين هم وهالأجاويد اللي تتفرج على أجمل حريمهم بلا شيء، وإلى بغيت أكثر بس خل معك فلوس!)

دخــلا مرقصــاً كبــيراً كانت على مسرحه فرقة موسيقية تعزف موسيقي هادئة يبدأون بها قبل الموسيقى الراقصة الصاخبة التي لا تعزف إلا لقــوم نشاوى من نشوة الشرب، وربما أيضاً من نشوة الحب على حد

قول الشاعر:

سكران: سكر هوى وسكر مدامـــة

ومـــتى إفاقـــة مـــن به ســـكران

وجلسا حول مائدة صغيرة علـــيها أربعة مقاعـــد، وجـــاء النادل أو خـــادم المـــائدة وهـــو ينحني بأدب مصطنع ويستفهم عن المشروب فقال سعيدان (بيرة بورموا).

أي لي جعة و(اورانجوز بور مسيو) أي وعصير البرتقال للسيد.

وجـــاء المشـــروب وظـــلا قليلاً يتحدثان في حديث لا يخرج عما قصصناه سابقاً من استنكار صالح لكل ما في هذا المكان، وتبرير سعيدان لـــه بأن قصده أن يريه شيئاً جديداً من حال القوم، لأن هذا هو الأمر الذي سمعه من صالح نفسه مبرراً لقبوله الدخول إلى هذه المحلات.

وطلـــب سعيدان لنفسه كأساً آخر من الجعة دون أن يطلب لصالح شـــيئاً، وكانت الموسيقى تعزف هادئة فأخذ سعيدان يتمايل برأسه وبجسمه يمـــنة ويسرة كما يفعل الطرب، ولم يخطر ببال صالح أن سبب طربه هو ما شربه من الجعة لأنه لم يكن يظن إلا أنها (شربيت) أي شراب حلو.

ولكن الذي عجب منه صالح هو أن يطرب سعيدان لهذه الموسيقى التـــي تصدع رأس صالح ولا يفهم منها شيئاً مع كونه أيضاً لا يفهم شيئاً مـــن الموســـيقى العربـــية لأنه لم تكن الإذاعة قد افتتحت عندهم في ذلك الوقت، ولم يكن المذياع موجوداً لديهم، فقال لسعيدان.

(هاللي يدفون عليه ورا ما يوقفونه أو ذانا بحسه؟).

فقال سعيدان هازئاً:

هــذي الموســيقى، وكان صالح قد قرأ عن الموسيقى في معرض الكلام في بعض الكتب عن اليونان وتعلم علمائهم الموسيقى وكان يلفظ بها بكسر القاف قبل الياء.

وكرر صالح ذلك على سعيدان فأجابه سعيدان ليوقفه عن ذلك قائلاً:

يقولون عندنا بالامثال: (إلى جيبت قوم فخذ سلمهم، وإلا رح وخلهم..)

فانتهز صالح الفرصة وقال: أي والله نروح ونخليهم ولكن (سعيدان) لا يــريد ذلك، بل يريد أن يورطه حتى ينال منه ما ينال من مال، وحتى يكون مثله في الحال.

لذلك قال له: لا، مانروح إلا عقب ما يرقصون.

وبعد قليل اعتلت المنصة إحدى الراقصات، وأخذت ترقص وغيرت الموســيقى عــزفها فصــارت موسيقى راقصة كانت تتمايل على ايقاعها رؤوس الشــاربين الطربيــن مــع جسد الراقصة التي ذكروا أنها ترقص رقصاً شرقياً.

ولــم تكن بالغت في التعرى من الملابس، إلا أن تثنيها وما يصحب ذلــك مــنها مــن غنج ،وتظاهر بالدلال جعل صالح يتقزز من المنظر، وينهض قائلاً لسعيدان:

(مشــينا الله يخزيها، ما شفت وش تسوي بنفسها ما تخاف الله، لكن ماهيب الشرهة عليها الشرهة على اللي يجيء يشوفها) وكان هذا غمزاً في سعيدان عن غير قصد.

ولكـــنه غمـــز لم يبال به لأنه كان قد غرق في حمأة هذا المجتمع الغربي إلى أذنيه فصار حاله كقول الشاعر:

أنا الغريق فما خوفي من البلل؟

وتثاقل (سعيدان) في مقعده وهو يقول لصالح: ما نروح وهم آخذين ثمن قعدتنا!

ولـــم يتصـــور صـــالح أن الجلوس في هذا المكان له ثمن، ولم ير سعيدان نقد ثمناً له لذلك قال:

وش هو الثمن اللي دفعناه لهم؟

فأجاب سعيدان: هالشراب اللي شربناه بالدكان بريال وهنا بعشرة.

فهاله الفرق في الثمن وتصور أن دفع عشرة أضعاف الثمن إسراف لا يجوز.

فنهض ثانية من مقعده وكان قد جلس فيه من قبل فأمسك به سعيدان وقال:

(يا أخوي إقعد أنا أبي أشوف وإن كنت أنت ما تبي تشوف هالمرة التي ترقص لقها قفاك أو غمض عيونك عنها).

فـــألقى إليها صالح قفاه بالفعل، ولكنه لم يستمر على ذلك إذ حدثته نفسه الأمـــارة بالسوء أن يرى الراقصة وبررت ذلك له بالعذر المعهود وهو أنه يريد أن يـــرى دون أن يســـتمتع، وكانت هذه هي حاله بالفعل في أول الأمر غير أن الاستتامة للمحظور والركون إلى صغيره تجر إلى الوقوع في كبيره.

إذ أخذ يخالس النظر إليها في أول الأمر حذراً من لوم سعيدان له،

ثـــم أخـــذ يـــنظر بالفعل وفي آخر الأمر صار يعجب من فعلها بجسدها ويعجب للدونته.

لاســـيما مع الموسيقى الراقصة التي يشبه إيقاعها إيقاع دف كان قد سمعه في بلاده في إحدى مناسبات وهي زواج وجيه من الوجهاء.

وبعد أن اطمأن سعيدان إلى أن صاحبه (صالحا) قد زايله النفور من المكان قال في نفسه.

هـــذي حالـــه وهو ماذاق بس شاف، وش لويذوق كان على ما قال القايل:.من ذاق عرف.

وهـــنا اقتربـــت إحـــدى الفـــنانات العاملات في الحانة (البار) من الجالســـين وعرضـــت على صالح أن يطلب لها كأسا من الشراب تشربه معه، ولم يفهم بالطبع ما طلبته ورجع إلى سعيدان يستفهمه عن ذلك.

وكانت اختارت صالحا لأنه أجمل طلعة وأكثر وجاهة من سعيدان، بل إنه يبدو وهو بجانبه كأنما هو السيد معه خادمه.

وأجابها (سعيدان) بقوله بالفرنسية:

(ميرسي) السيد لا يعرف الفرنسية، وليس لديه استعداد للشرب مع أية امرأة.

وخـــرجا من الحانة غند منتصف الليل وعجب صالح أنهما تركاها وهـــي حافلـــة بالـــناس، رغم هذا الوقت المتأخر، وقد أبدى هذا لصاحبه (ســـعيدان) الذي لم يشأ أن يخبره بالحقيقة، وهي أن جنود الليل هؤلاء هم نشـــأز فـــي المجـــتمع الفرنسي الأصيل، وأنهم لا يمثلون الأكثرية الجادة

العاملـــة مـــنه التي تحيا حياة طبيعية وإنماهم من الشاردين الضالين المنكوبين عاطفـــياً مثل (سعيدان)، أو من الغرباء الأغرار الذين غرر بهم أصحاب أشقياء مـــثله. وإن بعضـــهم من الوافدين إلى باريس لوقت قصير يريدون أن ينتهزوا الفرصة فيه فيتذوقوا من لهوها ما يعلمون أنه بهم لن يطول.

وقال سعيدان لصالح:

(هـــذولا الفرنسيين مثلما شفتهم من حصل له قرشين ضيعهن بالطرب و الكـــيافة أهـــم ما عليهم أنفسهم، حتى العيال بعضه مالهم حريم و لا عيال، وبعضـــهم له ولـــد واحـــد ومرته تشتغل وتعاونه على البيت، ماهمب مثلنا الواحد بصير له عشرة بالبيت وهو لحاله اللي يشتغل والباقين يأكلون عليه.

حـــتى البنت تشتغل إلى صار لها ثمان طعش سنة، قالوا أهلها لها تـــراك مســـئولة عن نفسك اشتغلي وأنفعي نفسك، وإلاّ إقعدي، حنا تعبنا عليك وكدينا عليك هالسنين ولا يمكن نستمر نكد عليك.

والغريب يا أخوي يا صالح إنها إذا اشتغلت ما نفعت أهلها بشي ما تعطي أبوها ولا أمها شي).

فقال صالح: وين تشتغل؟ ووش تشتغل البنت؟

فقال سعيدان:

تشتغل كل شيء يشغله الرجل مثلما شفت من الممرضات اللي في المستشـــفى إلـــى ها اللي يشتغلن بالمحلات، إلى هالراقصات اللي شفت بالقهوة، وكان يسمي الحانة لصالح بالقهوة لئلا ينفره ذكر اسمها الحقيقي.

فقـــال صـــالح: طيب وإلى فسدت البنت؟ وش لون أهلها يسمحون تروح عنهم وتفسد؟

فقـــال سعيدان: تفسد أو تصلح هي حرة، ما يهمهم هذا، حتى إلى بغوا يمـــنعونها عـــن الشـــغل وشكتهم على الحكومة تجبرهم الحكومة على أنهم يخلونها تسوي اللي هي تبي ما دام أنها رشيدة بالغة ثمان طعش سنة، .. و..

فقاطعه صالح قائلاً:

رشـــيدة؟ ويـــن هي والرشد، والله إنه مفارقها وهي مفارقته، ولكن هذولا كفار الله يعيذنا من حالهم وهنا قاطعه سعيدان قائلاً:

كفـــار أو ماهمب كفار هذولا اللي منظمين حياتهم شف هالشوارع والحدائق والصناعات وحتى المستشفى اللي هنا، الله يرحم حال ربعنا اللي ما عندهم شيء.

فعلق صالح على ذلك بقوله:

لكن ربعنا لهم الجنة، لهم الآخرة، في الأثر (لهم الدنيا ولنا الآخرة).

فلم يصبر سعيدان على سماع ذلك كما كان يفعل مع صالح من قبل وإنما قال:

(يعنـــي نخلـــيهم يصـــلحون الأشياء الزينة بها الدنيا وحنا نقعد مثلما حنا علـــيه مـــن قلة العلم والثقافة، وكان قد عرف هذه الكلمة دون أن يعرفها صالح ونقول: لنا الآخرة وحنا ما ندري هي تحصل لنا أو لا، فتكون مثل الدنيا).

وهنا زجره صالح مستنكراً ما فهمه من كلامه من شك في الآخرة ففطن سعيدان إلى أنه قد اندفع بالكلام أكثر ما ينبغي فقال:

أنـــا أعني أننا ما ندري وش موقفنا يوم القيامة يمكن الله لا يقدر أن بعضنا تلحقه ذنوبه ويدخل النار، ماهنا أحد يضمن أنه من أهل الجنة.

فأمن صالح على قوله وقال:

صـــدقت، الله يعفو عنا ويسامح ماهنا أحد يدخل الجنة بعمله، وإنما يدخلها الإنسان بعفو الله ومغفرته.

وحـــتى الحديـــث عن الآخرة وما يصحبه من الحديث عن الأمور الدينية قد كرهه سعيدان لأن التفرنج والزيغ عن الدين قد ران على قلبه.

وعـــاد صالح متأخراً إلى المستشفى أكثر من المرة السابقة والأشد مـــن الأمر عنده أنه وجد أنه قد صرف نقوداً أكثر، فقد كان سعيدان ينفق مـــن مـــال صـــالح لأنه أي سعيدان يبدد ما يتلقاه من نفقة مقررة له من السفارة في فترة قصيرة على الأمور المضرة بدينه ودنياه، حتى أصبح قد خســـر الاثنيـــن والأدهى من ذلك أنه أصبح حتى فيما يشعر به بينه وبين نفسه لا يستطيع أن يعيش الحياة التي كان يحياها في بلاده.

وتكرر مع صالح النوم عن صلاة الفجر، وكان أسفه على ذلك في هذه المرة أقل مما كان في المرة السالفة.

حتى عندما عاتبه والده وجد عتابه ثقيلاً على نفسه.

الفصل السادس والأربعون

استمرار السقوط:

تكـــرر خـــروج صالح مع سعيدان وتكرر به التدرج من سيء إلى أســـوء حيث كان يمهد له لما هو أسوء حتى وصل به الأمر إلى أن جعله يـــتذوق الجعة التي نفر منها في أول الأمر كعادته ثم أغراه صديق السوء سعيدان هذا فجعل يتدرج به في النزول من منزلة إلى ما هو أنزل منها.

حتى أهمل أمر والده وصار لا يلبث عنده في الحديث والمؤانسة إلا قلـــيلاً لأنه قد صرف وقته ما بين الخروج في الليل والنوم في النهار مما جعـــل والده يحزن لذلك وإن كان لا يدري ما الذي دهاه، لأنه لم ير العالم الفاسد الذي رآه ابنه، ولم يجرب الدخول فيه وهو شاب مشبوب العواطف تخلـــى عـــنه التوفيق بسبب عدم قهره لعواطفه من أول الأمر ثم انسياقه وراء هـــذا الفســـاد الـــذي جره إلى مستنقع الحضارة الغربية التي يشكو المفكرون من أهلها أنفسهم منه.

ومـــن المحـــزن أنـــه هو وأمثاله لا يرون في هذه الحضارة الغربية الطاغـــية إلا هـــذا المستنقع وأمثاله، أما الأمور النافعة من العلوم التجريبية وإتقـــان العمـــل والحرص على المصالح العامة فإنهم لا يرونها، بل إن هذا الإهمـــال والانسياق وراء الشهوة دون العقل الذي يراه القريب الضائع ثقافياً فـــي هذه البلاد يقابله عند أكثر الناس الانضباط في العمل، وتحكيم العقل في تحمل المشقة مما لا يستطيع أن يتحمله أمثال أولئك الضائعين المهملين.

كـــان أول من شقي بصالح عند نحرافه أباه الذي هاله ما حل بابنه من التغير وإن لم يدر سببه.

المصيبة الكبرى:

ليست المصيبة الكبرى في صالح انسياقه وراء شهوته وإهماله أباه المريض مع أنها مصيبة كبيرة وإنما المصيبة الكبرى ذلك المسخ الثقافي الذي أصيب به حتى أصبح في فترة قصيرة لا يرى إلا ما تراه الحياة الغربية.

وما إهماله لأمر والده الشيخ المريض إلا واحداً من مظاهر هذا المسخ الثقافي الذي أصابه فقد علم أن الفرنسيين ليس عندهم من البر بآبائهم شيء وأن الابن لا يمرض أباه فضلاً عن أن يلازمه في كل وقت ويقضي له كل ما يريد وأنه علم ثم اقتنع بأن الابن إذا مرض والده وكان حفيا به فإنه يدخله مستشفى من المستشفيات، أما إذا أسن ولم يستطع القيام على نفسه بنفسه فإنه يدخله في ملجأ من ملاجئ العجزة أو كبار السن!

وهكذا صار يعامل والده من هذا المنطلق، بل انه صار يمن عليه بما كان قد قام به نحوه من بر وحفاوة ناسياً أو متناسياً ما كان قد قام به والده نحوه من تربية وما ناله من تعب ومشقة في توجيهه وتأهيله للحياة في ذلك الوقت.

وذات مرة جاء ذكر هذا الأمر بين الأب وابنه فانبرى الابن بسفه رأي أبيه، ويذكر أنه لم يعلمه ولم يثقفه وإنما أدخله عند المطوع ثم أمره بالأخذ عن المطوع إبراهيم الذي صار قاضياً للبلد بسبب عدم وجود من هو أعلم منه فيه، ولأنه قاضي جاهل لقوم جهلة- على حد تعبيره.

والذي كدر على الأب المريض عيشه أكثر أن ابنه صار يخالفه في كل شيء فكري كما أنه لاحظ أنه لم يعد يقوم للصلاة إلا إذا أمره والده بذلك، وأنه ما من مرة أمره فيها بالصلاة إلا ذكر له أنه قد صلى من قبل.

أمـــا كيف تحول صالح هذا التحول الذي هوى به إلى هذا المستنقع الثقافـــي الغربـــي، وكيف صار خدناً فاسداً للمومسات والعاهرات، وكيف عاقـــر الجعـــة ونحوها فإن راوي القصة لم يشأ أن يسرد لنا تفاصيل ذلك مكتفـــياً بمـــا ســـبق أن قصه من أمره في تجرئه على ارتكاب الصغائر، وكيف كان جليس السوء (سعيدان) هذا السبب المباشر في أن يخطو صالح الخطـــوة الأولـــى في الطريق المعوج إلا أنه بعد ذلك صار حتى سعيدان يعجب من سرعة انزلاق صالح في الهاوية، حتى إنه مرة حاول أن يسأل صالحاً عن ذلك ولكنه قلب السؤال إلى صفة أخرى فقال:

وش لـــون يـــا صالح أشوفك غلبتنا في علوم هالديرة على ما قال المثل: (علمناهم الطوافة وسبقونا للبيبان الكبار).

ولم يجب صالح على هذا السؤال لكونه يعلم أن سعيدان يعرفه وأنه كان السبب الأول له.

وتخيل راوي القصة أن لسان حال صالح ينشد مع الشاعر:

وكنت أمراءً من جند إبليـــس فارتقـــى

بي الحال، حتى صار إبليس من جندي

لقد انفق صالح كل ما كان أحضره معه من نقود وكل ما وصله من المخصصـــات من السفارة، وباع حتى ساعة والده الأثيرة لديه، ولم يكتف بذلك وإنما اقترض من أحد الموظفين بالسفارة مبلغاً من المال ذكر له أنه ســـوف يرده عليه ولكنه لم يفعل حتى صار لا يجد من يقرضه لأنه يتلف أي شـــيء منه يصل إليه وينفقه في سبيل الشيطان حتى هداه تفكيره إلى الكـــتابة للمملكة وطلب إرسال شيء من المال من والدته فأرسلت إليه ما استطاعته ومما حصلت عليه من والدها.

الفصل السابع والأربعون

العودة إلى الوطن:

حسنت حال المريض، ورأى أطباء المستشفى أنه لا ضرورة لاستمراره عندهم فأعطوه أدوية يستعملها في بلاده.

وكان أصبح يسير على قدميه دون مساعدة وصار يتناول طعامه بهيئةٍ معتادة.

وأعد مندوب السفارة كل ما تحتاجه عودة المريض وابنه وكان صالح لا يريد العودة بطبيعة الحال ولو كانت عودة حميدة لوالده لأنه كان قد أغرم بهذه الحياة الفرنسية اللاهية، أو النقل إذا أردنا الإنصاف: إنها الحياة على هامش الحياة الفرنسية الجادة، ولكنه لم يكن بيده إلا الرحيل، لأنه أولاً لم يستطع أن يحصل على أي مبلغ جديد من المال، ولأنه لا يمكنه البقاء مهما عمل، لأن مندوب السفارة ذكر له- من باب التخويف عندما رأى منه التسويف بالرجوع للبلاد- إنه بإمكان السفارة أن توعز إلى الشرطة الفرنسية فتسجنه أو تبعده بالقوة كما فعلت ذلك مع غيره من الأجانب غير المرغوب في بقائهم في بلادهم.

وطارت الطائرة من مطار أورلي في باريس قاصدة القاهرة عكس ما كان من اتجاهها في القدوم وهذا وحده هو الذي تغير فيها، أما صالح فإنه عاد بشخصية أخرى كان حملاً وديعاً قد هذبه الدين، وغذته التربية الصالحة فصار ذئباً أغبر يؤذي ويهاجم حتى عندما لا تكون هناك حاجة للهجوم، وإنما محبة في الإيذاء كالذئب الذي يقتل أكثر من شاة مع أنه لا يحتاج إلا إلى لحم شاة واحدة.

وحـــتى مظهـــره قـــد تغير فقد أصر على البقاء باللباس الإفرنجي بالطائرة وعندما قال له والده:

يا وليدي، إلبس هدومك أنت تبي إن شاءالله تاصل لأهلك. رد على والده بعنف قائلاً:

اســـتحي ألـــبس هالخلقان ولم تكن ملابسه العربية خلقاناً، بل كانت نظيفة صالحة وغسلها له أهل المستشفى وكووها كما هي العادة.

وكانـــت الشـــهور الستة التي قضاها في باريس مع والده قد أكملت هـــدم كـــل ما كانت بنته السنوات السابقة من طفولته حتى شبابه، وذلك لكون الهدم أيسر من البناء، لاسيما إذا كان قد تعاون على هدم البيت أهله مع الأعداء.

وأهل البيت الذين تعاونوا على هدم صالح هم نفسه الأمارة بالسوء، وعزيمته الخوارة، وتفريطه بما كان قد تعلمه من أمر دينه.

ثم جهله بالمصير الأسود الذي ينتظر أمثاله حتى لو بقي في فرنسا، لأن الذي يشغل وقته كله في اللهو ولا يعمل عملاً جاداً ليس له مكانة في الحياة هناك، وإنما ينتهي به طريقه المعوج لنهايتين لا ثالثة لهما وهما:

مستشفى المجانين، أو سجن المجرمين.

لقـــد اصبح صالح غربياً في تفكيره كله، وإن شئت قلت (مستغرباً) فـــي كـــل ذلك، لأنه لو كان غربياً كالغربيين المثقفين لكان للأمور الجادة المادية مكان من تفكيره وتقديره كما كانوا يفكرون.

والأدهى من ذلك أنه لا يشعر – الآن – حتى مجرد الشعور بأنه كان خاطـــئاً، فضلاً عن أن يكون نادماً على ما فعله بنفسه، لأنه قد أصبح كما

قلـــنا مَسْـــخاً، والمسخ لا يشعر أنه ممسوخ، وإنما يرى أن هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه، وأن هيئته الأولى هي التي كانت خطأ.

اســـتقبل أهـــل الدار عائليهم زيد بن مقرب المطية وابنه صالحاً استقبالاً حنـــافلاً عـــبرت عـــنه الدموع والشكوى من طول الفراق، بعضها دموع فرح وبعضـــها دمـــوع شوق دفين. أما الفرح فإنه كان لمظهر الصحة والعافية التي جاء بها الأب المريض ومظاهر الصحة الظاهرة على وجه صالح.

وأما الشوق الدفين فإنه شوق أهل الدار إلى عائلهم.

وكانـــت (هيلة) زوجة الأب وأم صالح أكثرهم فرحاً لأنها استقبلت زوجها وابنها بخير.

إلا أنه كان بالنسبة إلى ما رأته من علامات التغير على صالح كان فرحاً ممزوجاً بالدهشة إذ لم تفهم شيئاً منه بحكم تربيتها التي لم تسمع فيها حتى في الحكايات عما في تلك البلدان البعيدة.

الفصل الثامن والأربعون

انطباع الشيخ:

وأخـذ (زيـد بـن مقرب المطية) يحدث أهل بيته عما شاهده في المستشـفى وفـي الطائـرة من أحوال أولئك القوم الكفار مما كان أكثره يصعب حتى تصوره بالنسبة إليهن فضلاً عن تصديقه، وعندما وصل إلى ذكر ما كانت الحريم اللاتي يسمين ممرضات يفعلنه به خاصة من حفاوة وعـناية حتى إنهن كن يساعدنه على غسل جسمه عندما كان عاجزاً عن القـيام بذلـك، فغفرت أفواه السامعات من أهل بيت زيد المطية وقريباته وقالت ثلاث منهم من فم واحد:

(هوه! أجل شفتهن، هن كاشفات وجوههن ما يستحين على روحهن؟)

وتحركت غريزة الغيرة عند المرأة في نفس زوجته فقالت:

(عسـاهن بالنار، الكلبات ،وش لون يقربن من رجال ما همب من رجالهن).

فرد زيد على ذلك كله بصوت رزين بقوله:

(هذولـي الله يهديـنا وإيـاكم كنهن رجال لا بسات لباس الرجال الأبيض، ويشتغلن مع الرجال، بس انهم جابوهن اشتغلن بالصحية اللي أنا فيها علشان انهن ألطف للمرضى من الرجال).

وكـان قد سمع هذه العبارة بالذات من مندوب السفارة في باريس، فأسرعت زوجته تقول:

(الشـرهة عليك أنت- يا أبوصالح- اللي تخليهن يكشفن وجوههن عندك

ورا ما نهيتهن وقلت: خافن الله وغطن وجوهكن إلى بغيتن تجن لي).

وفهم ما رمت إليه، وما تحرك في نفسها وقال: الله يهديك، لا تغلطين، هذولي ما كشفن وجوههن لأجلي أو لأجل غيري هذولي طول عمرهن كاشفات لأنهن كافرات، ما يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولو قلت لهن: غطن وجوهكن ما طاعن، وبعد يمكن ما عندهم غداف سود، ما شفت ولا وحدة منهن عليها غدفة.

فاطمأنت زوجته لكلامه بعض الاطمئنان، وقالت:

(وراهن يخلن كذا ورا رجالهن ما يغصبونهن على الغطا والستر المرة ما لها إلا الستر؟).

فعلق ابنها صالح على ذلك وهو يكتم غيظه من تفكيرهن وتفسير والده لحال الممرضات، وقال:

(هذولي- يا امه- متعلمات فاهمات، ما أحد يسوي لهن شيء أو يضحك عليهن، هن حرات ما همب مثل بعض حريم أهل ديرتنا يضحك عليها أي رجل.

هذولي ما يقدر عليهن إلا الرجال اللي هن يحبنه)، وهنا انزعج النساء فتلافى تأثير ذلك عليهن بقوله:

(يعني ما تتزوج المرة إلا رجل يدخل نظرها ماهوب مثلنا تدخل المرة على الرجل وهي ما تدري وش ها الرجل اللي دخلت عليه، مثل اللي يدخل لحجرة مظلمة، أو مثل اللي يدس يده بالجحر ما يدري وش الذي فيه).

وتذكرت أمه أنها بالفعل كانت قد تزوجت من والده زيد دون أن تراه، أو توافق على زواجها منه، ومع ذلك فإنها رأت أنه زواج موفق لذلك قالت:

(ولـــو، يـــا حليلـــنا وحليل عاداتنا- يا أهل نجد- تدخل المرة على الـــرجل وهي ما تعرفه، وعقب مدة تصير أم عياله وهو يصير أبوعيالها وما تطيق فراقه، ولا يطيق فراقها).

لقـــد وجـــد صالح أن كل شيء في بلدته قد تغير في عينه، فذكرته بـــيوت الـــراحة بالحمامـــات الإفرنجية في باريس ورأى في شارع بلدته المغبر غير المزفت صورة مناقضة لشوارع باريس.

وحـــتى جـــيرانه والذين كان يعرفهم قد تغيروا في عينه فرأى في وجوه بعضهم وعيونهم وبشراتهم ما سماه المرض، وأرجع ذلك كله إلى الـــتخلف ونقـــص التعليم، لذلك كان ينادي في كل مجلس حل فيه بالتعليم فكان الذين لا يقرأون ما وراء السطور من كلامه يردون عليه بأن التعليم موجـــود – ولله الحمـــد- فـــالمدارس يـــريدون بها الكتاتيب هي موجودة والمطاوعة يعلمون الصغار، ومطاوعة المساجد يعلمون الكبار، والبلد فيها عدد من القراء والكتبة يفوق حاجتها منهم.

حتى إن واحداً منهم قال له:

يـــا صـــالح يـــا وليدي، ديرتنا فيها علم كثير، وتعليم كثير، أنت ما تـــدري أن القـــرية الفلانية يوم جاءهم خطٌ من ديرة ثانية مالقوا من يقراه وأرسلوه مع رجال إلى قرية غيرها يقراه ويخبرهم باللي به وأنت نسيت- يا صالح- قصة القرية الفلانية التي ضيع أهلها الجمعة فلم يدروا أهو غداً أو بعد غد حتى أركبوا إلى المدينة راكباً يأتيهم بالخبر اليقين.

ولم يكن صالح قد نسي قصة القرية التي نسى أهلها يوم الجمعة فلم يعرفوا في أي يوم من أيام الأسبوع هم.

ولكـــنه كان يريد تعليماً آخر أراد أن يشرحه لمحدثه ولكن صاحبه

بادر بقوله:

وهـذاك أنـت – يا خوي يا صالح- لله الحمد والشكر تقرأ وتكتب وفيك البركة.

فترك صالح أيضاح ما كان أراد أن يقوله لأنه وجد أنه لا فائدة من الشرح لصاحبه.

كـان صـالح ينادي بالتعليم المدني الموجود مثله في فرنسا، وبأن يصحب ذلك تغير اجتماعي وسياسي يقوم على هدم القديم كله وكان الهدم عـنده يسبق البناء، فقد سيطرت على ذهنه فكرة تقول: إن مرجع كل هذا الـتخلف الموجود وسيطرة الجهل والمرض هو التمسك بالعادات والتقاليد الموجودة سواء منها ما كان صالحاً أم غير صالح.

وكان هذا أيضاً سبب شقائه لأنه لم يجد من يوافقه عليه ولذلك كان يزداد لجاجة وتشبثاً برأيه بدلاً من أن يلين لآراء الآخرين.

أما زوجته المسكينة التي لم يكن يحبها من قبل كما لم يكن يبغضها لأنه لم يكن فيها ما يسبب أحد هذين الأمرين.

فإنـه كـان يقارن بينها وبين الباريسيات اللاتي عرفن فتتمثل له زوجته بجسـمها الجـاف الخشـن وبخاصـة أطرافها ورجليها اللتين لم تعرفا النعلين ورأسها الذي تفوح منه رائحة السمن المتغير، لأنها كانت تدهنه بسمن قديم.

وأشـد ما عليه ثوبها الذي لا يعرف الصابون قط، وإنما كان يرى الماء في أوقات متباعدة.

ثـم طـريقة كلامها وقسوة حديثها، واستهزاؤها من كلامه عندما تسمعه يتحدث عن نساء الإفرنج الكافرات.

الفصل التاسع والأربعون

التخلص من الماضي:

تخلص صالح من أشياء كثيرة كانت تربطه بماضيه، أو شعر بأنها كذلك ومنها أنه باع فور عودته جميع الكتب الدينية الموجودة لديه، وكان يعجب من أن يجد لها مشترياً، بل كان في قرارة نفسه يقول:

عجل بعها- يا صالح- قبل ما يهونون الناس عنها مثل ما هونت أنت، وباع- ولكن بدون ثمن- أصدقاءه القدامى ومنهم شيخه الشيخ إبراهيم الذي كان قد تعلم عليه وهو مطوع ثم صار شيخاً أي قاضياً للبلد،وكان سعيه سبباً في إرسال والده زيد للعلاج في الخارج على نفقة الحكومة، والحقيقة أنه لو كان يعرف ما سيحصل لصالح من هذا التغير والتبدل لما أشار بسفر والده للعلاج، بل ترك ذلك لله الذي لم ينقطع لطفه عن العباد، وقد وسعه ما وسع آباءه وأجداده من قبل.

والأدهى من ذلك عند الشيخ إبراهيم أنه رأى أن صالحاً لم يكن يقترب من الصلاة في الصف الأول كما كان يفعل من قبل، وإنما كان يأتي متخلفاً حتى تفوته ركعة أو ركعتان من الصلاة.

وكان صالح يذهب للمسجد لدواع اجتماعية وليس من أجل التقرب إلى الله بأداء الصلاة: لأن الذي لا يصلي في المسجد يكون ساقطاً في أعين الناس وترد شهادته عند القاضي، بل إن معاملاته في البيع والشراء تتأثر بذلك.

وذلك لأن الذي لا يصلي لا يخاف الله، و(اللي ما يخاف الله خف منه) كما يقول مثلهم العامي.

الفصل الخمسون

زيد بن مقرب المطية يودع الحياة:

سارت الحياة بهذه الأسرة مدة ثلاث سنوات سيراً معتاداً ماعدا ما ذكرناه من حال صالح الذي لم يزده الزمن إلا مضياً في تغربه بل استغرابه أي تشبثه بالغرب، وأنكاراً لماضي قومه وحاضرهم وبخاصة عاداتهم وأعرافهم المرعية الحميدة.

وفي آخر السنوات الثلاث المذكورة حدثت أحداث ذات بال منها أن (سلمى) صغرى بنات زيد قد تزوجت من شاب من الأغنياء، ولكنها كرهته وعادت إلى بيت أبيها مغاضبة لزوجها، لا تريد أن ترجع إلى بيتها.

وقد حملها والدها زيد حملاً على الرجوع لزوجها لأنه لا يريد لهاأن تفقد زوجها، ولأنه كان يعلم بخبرته وعادات قومه أن الفتاة كثيراً ما تكره زوجها أو تكره فيه أشياء في أول عهدهما بالزواج ما تلبث أن تعتاد عليها، وتذعن بحكم القدر المفروض عليها إلى أن تشعر مع مضي الزمن أنها لم تعد تلك الفتاة التي تدل بشبابها وإغرائه على زوجها، بل هي تصبح- بعد ذلك- احرص منه على استمرار بقائها لديه حذراً من أن تحدثه نفسه بالزواج من فتاة صغيرة تنسيه اياها.

ولو ألقينا نظرة على بيت (صالح بن زيد) في آخر السنوات الثلاث وقبيل وفاة والده لوجدنا فيه أمه قد أصبحت نصفاً مجربة وأباه العليل الذي انتكس مرضه فعاودته الآلام ولكنه لم يحدث نفسه بأن يعود للعلاج للخارج، رغم كون ابنه صالح يشير عليه بذلك وكان زيد يقول:

يـــا وليدي، خلوني بلله سبحانه وتعالى رحام المساكين، والى رحتوا بي للمقبرة ولا لقيتوا فيها غيري فرجعوني!

يريد أن هذه هي سنة الحياة في موت الشيوخ المرضى وهذا منطق لا يرضي ابنه صالحا.

الفصل الحادي والخمسون

بنات زيد بن مقرب المطية:

أما بنات زيد الأربع فقد تزوجن كلهن ثلاث منهن تزوجن قبل سفر زيد إلى فرنسا للعلاج، والرابعة وهي سلمى الصغرى بعده.

وفاة الوالد:

ودع زيد بن مقرب المطية الحياة، وعينه قريرة بما كان قد تحقق من آماله وهو أن يكون له ولد ذكر يظلل على بناته بعد موته، تتجه إلى داره من تفقد زوجها بطلاق، أو موت أو حتى نتيجة فرارها من ظلم يلحقها من زوجها.

وتلوذ به مع أولادها من لا تجد غير داره ملاذاً وقد فكر فيما طرأ على صالح من التغير فذكر في نفسه أنه ليس إلا سفاها من سفاه الشباب الذي يذهب عندما يعقل الشاب ويمتد به الزمان.

أما البنات الأربع فإن كبراهن وهي (طرفه) كانت قد تزوجت من رجل ثري صالح أحبها وأحبته، ولم تكن له أم حية، ولا قريبات من النساء، فكانت له الزوجة والقريبة، والمدبرة لبيته وماله وكان كريم المعاملة لأصهاره كثيراً ما يهدي إليهم الهدايا في المناسبات، أو يبعث إليهم مما يحضره إلى بيته مثل أن يذبح خروفاً من أجل أن يقسم لحمه في أقاربه، فيعطي أصهاره نصيباً وافراً منه، وكان زيد صهره يذكر له بالامتنان مرة جاء إليه في شهر رمضان ودس في يده نقوداً قليلة قائلاً:

(يا خال هذولي القريشات الشويات من الزكاة لأني أشوفك ما أنت على شيء من الدنيا ها لأيام).

فنفر زيد المطية من ذلك لأنه لم يكن سبق له أن أخذ الزكاة من قبل التي هي أوساخ الناس، ويريد أن يخرج من الدنيا قبل أن تمتد يده إلى أخذ شيء منها.

ولكنه شكره أولاً قائلاً:

يـنا وليدي- يا عبدالله- وهذا هو اسمه- الله سبحانه وتعالى مغنينا طول حياتنا الله يكثر خيرك، وعادة الله الحسنى والجميل إن شاء الله يغنينا لما نفارق ها الدنيا ومش مدتنا بالحياة؟

فقال عبدالله: لكن أنا سمعت أن صالح ماهوب على شيء يكفي في الدكان وأنت مقتصر بالبيت ما تطلع منه.

فأجابه قائلاً:

ياولـيدي على ما قلت لكن ما وصلت الأمور إلى الأخذ من الزكاة الله يكثر خيرك.

والأخـت الثانـية وهي (قوت) تزوجت من رجل ميسور الحال وكان زواجهـا موفقاً فقد عاشا منسجمين متفاهمين وولدت له أولاداً كانوا موضع فخـره واعـتزازه. ولـم يكدر صفو حياتها إلا هذا التقتير في الرزق الذي يعـيش فيه حتى إنهما يعيشان في بيت صغير مستأجر ويخجلان من صغره وبخاصة إذا قارنته ببيت أختها الكبيرة ذات الزوج الثري السخي كما تنعته.

وأمـا الثالثة: وهي (جوزا) فإن زواجها يصح أن يقال إنه كان زواج مصـلحة فقد زوجها والدها من ابن لأحد الميسورين كان الابن عسر الخلق كمـا ينعـته أي عصـبي المـزاج بلغة هذا العصر، وكان بيت والده مليئاً بـالإخوان والأخـوات، والأحفاد فضلاً عن أم الزوج وجدته اللتين تريد كل

واحـــدة منهما أن تكون زوجة الابن خادمة أو بمثابة الخادمة، تقول لهما في كل شي:

(ســـمي، وش تبين يا خالة الله يطول عمرك ويخليك لنا! حتى ولو كانـــت في وضع نفسي سيء كأن تكون على أثر مشادة مع زوجها الذي كـــان كثـــير المخاصـــمة لها، بل إنه كان في بعض الأحيان يضربها مما استدعى أن تهرب منه إلى بيت أبيها عدة مرات، ثم يعيدها أبوها إلى بيت زوجهـــا بعد أن ينصحه ويلتمس منه أن يحسن معاملة زوجته، ولا ينسى أن يوسط أبا الزوج وأخاه الكبير في هذا الأمر.

وأخـــيراً اضطر إلى أن يرسل زوجته أم صالح إلى أهل الزوج من النســـاء في هذا الأمر أما الرابعة وهي (سلمى) فإن زواجها كان صعباً إذ لم يكن تقدم لها من يرضى عنه الأب فاضطر إلى تزويجها من (حامد) مع أنـــه لـــم يرض منه شيئاً من أخلاقه إلا ما كان يظن أنه سيفعله من كفالة ابنـــته الصـــغيرة التـــي يريد أن يزوجها قبل أن تداهمه الوفاة التي كان المرض ممهداً لها.

فلـــم يكن (حامد) ذا مال ولا كان له والد له قدره وقيمته وإنما كان يعيش مع أمهِ كما كان زيد يعيش مع أمه عندما تزوج لأول مرة بزوجته (موضي) ولكن شتان بين أخلاقه وأخلاق حامد، وشتان ما بين معاملة أمه لزوجة ابنها زيد ومعاملة والدة حامد لابنته. مما جعل الشقاق والخلاف هو طـــابع هذا الزواج من أول وهلة ولكن الظروف المحيطة بمنزل زيد لم تكن تسمح له بأن يبت في الأمر وإن يقطع حبل الصلة مع حامد لأن ذلك يســـتدعي منه إذا طلبه أن يعيد لحامد جميع المهر الذي كان دفعه صداقاً

لابنـــته، ولم يكن بمقدوره أن يدفعه، هذا إذا وافق خامد على تطليقها بهذا الشـــرط لأن بعـــض الأزواج كثـــيراً ما يمتنعون عن الموافقة على فسخ الـــزواج مقابل إعادة ما دفعوه من المهر نكاية بزوجاتهم فيتركون الزوجة (معلقة لا متزوجة ولا مطلقة) كما يقول المثل، وذلك حتى تذهب نضارتها ويغيب شبابها، وتصبح من سقط المتاع.

الفصل الثاني والخمسون

التنكر للأعراف الطيبة:

كان (صالح بن زيد) قد حل محل والده في (الدكان) يبيع ويشتري، ولكنه لم يكن بالمنزلة التي كان عليها والده من الصدق والأمانة والمثابرة على الجلوس فيه.

لذلـــك كانت تجارته متوسطة أو أضعف مما كانت عليه أيام والده غـــير أنها على أية حال كانت كافية للنفقات الضرورية على البيت حسب مســـتوى المعيشة في ذلك الزمان، وقد خف تمسك صالح بحكم الضرورة بأســـاليب المعيشـــة التي كان قد فتن بها في فرنسا، وذلك لكون ذات يده تقصر عن ذلك، ولكن الشيء الذي لم يتغير فيه هو الاستغراب، أي الفتنة بالحضـــارة الفكـــرية الغربية، فذلك قد تمكن منه لشقائه وسوء عمله في فرنسا ولأنه لا يتطلب منه نفقات محسوسة.

وبعـــد وفاة زيد أسرع ولده صالح باقتسام الميراث القليل الذي خلفه وكان أهمه بيته الذي يملكه فباعه الابن فيمن يزيد، واستولى على حصته وحصة والدته بحجة أنه سيتاجر بهما في حانوته (دكانه).

واستأجر بيتاً سكنه هو وأمه وزوجته، وساءت معاملته لوالدته بعد أن سكن هذا البيت الذي أسماه بيته لأنه كان يكرر كثيراً أنه كان قبل ذلك ساكناً في بيتكم أما الآن فإنه ساكن في بيته.

ولـــيس ذلـــك فحســـب، وإنما أغضب والدته ثم أزعجها أن إحدى أخواته زارتهم لمدة ثلاثة أيام فجعل صالح يتأفف من هذه الزيارة، ويقول: هـــذا فعل المتخلفين تقعد عندنا ثلاثة أيام، تأكل وتشرب هي وعيالها ولا يدفعون شي!.

فنهرته أمه قائلة:

يـــا صالح، هذا بيتها عسى الله يخليك لها، ماهوب بيت أجانب، أنت أخوها اللي مالها عنه غناة.

فلما أصر على كلامه قالت له بغضب:

(أجل باكر إلى جت حدى خواتك تبي تولد عندنا وتقوم أربعين يوم للنفاس تبي تزعل؟).

فبادرها قائلاً:

(أجل، أبي أزعل وأكثر الزعل، ولا يكفي الزعل، والله لاطلعها من البيت اطلاع).

فقاطعته قائلة:

وين تروح؟

فأجاب: تروح لبيت رجلها اللي يكدها يوم هي قوية، وهو اللي حط بها الولد.

فانخرطت أمه بالبكاء وقالت:

الله يـــرحمك- يا زيد- اللي موسع الدنيا علينا ولو هي ضيقة، ليته يجي يشوف ولده اللي فرح به من أجل البنات وش هو يقول.

فلم يلن هذا الكلام من قناته.

وكان هذا بداية جفوة بينه وبين أمه.

أمـــا قمـــة الأزمة فحدثت عندما جاءت بالفعل ولادة أخته الصغيرة (سلمى) فقالت له أمه:

(سلمى عقب يومين أو ثلاثة تبي تجي تلد عندنا نبي نجهز لها محل ولولدها الأول محل ونبي لها أغراض، الله يعين).

فانبرى صالح يقول:

لا، لا، لا تجيء عندنا، تولد في بيت رجلها ليش صار رجل لها إلا لهذا أو مثله، هذا واجبه، أنا ما عليَّ منهم!

وانخرطـــت أمه في بكاء مرير وهي تسمع منه هذا التصريح عن موضوع حاضر، وقالت:

يا صالح، أبوك فرح يوم ولدت له لأجل هالساعة وأمثالها وإلا فهو بقبره ما هوب محتاج لك بشيء.

فقـــال: أبـــوي الله يرحمه فرح بي أو ما فرح هذا شغله هو، أنا ما يهمنـــي، لكن أنا ما أناب ملزوم بالناس، كل ما بغت الوحدة تولد جت لي وكديت عليها وهي عندها بيت وأولاد، و... فقاطعته أمه قائلة:

(لكن يا صالح أنت تعرف بيت سلمى إنه ما فيه أحد يتفرغ لاختك أو يطـــبخ لها أكل النفساء وكلهم ما يبونها يهزرونها وينزرونها، المخافة من الله يا صالح).

ولم تستطع أن تقنعه فقالت بحرقة:

يا صالح تراك إن عصيتني هالمرة تراى ما أقعد في بيتك! وقال في نفسه:

هذا شيء لا يدعونني للأسف!!!

ذهبت الأم إلى بيت سلمى للاطمئنان عليها فأخبرتها بما قال أخوها، فقالت سلمى:

يا أمه، أنا أعرفه، وأعرف أني إلى جيت لكم في بيته ضاق صدره وصار إما ما يكلمني وإلا يكلمني بزعل وهو ليوم أو يومين وش لون كان إلى صرت أبي أقعد عنده كل النفاس؟

ثم ذهبت الأم إلى البنت الكبرى (طرفة) تشكو إليها ما صدر من ابنها صـــالح، وكـــيف أنها لا تدري ماذا تفعل؟ ولا أين توجه سلمى بعد أن انغلق بيـــت أبيها بسبب موته، ثم بيع البيت نفسه، واستئجار صالح لبيت له خاصر به لا يريد أن يستقبل فيه أخته في هذه المناسبة المهمة وهي مناسبة الولادة.

فقالت (طرفة):

يـــا أمـــه، وراها ما تجي عندي، الحمد لله بيتنا كبير، وأبو محمد- تعني زوجها- خيره كثير، ويحب أنه يتصدق على الناس.

ففوجئـــت الأم بهـــذه الفكـــرة التـــي لم تخطر لها على بال، وسرت بها سروراً عظيماً، إلا أنها بعد أن فكرت قليلاً زايلها بعض سرورها وقالت لها:

لكـــن أبو محمد وش رايه، ما يمكن يا بنتي إنك تخلين إختك تجي وتقعد عندك إلا بشوره، ولابد أنه يكون عنده خبر قبل.

فقال البنت:

(يـــا أمـــه، أبـــو محمد- الله يخليه لنا- يحب الخير، والبيت وسيع وعـــندنا حجـــرة لحالها منعزلة يصك دونها ودون البيت بباب وأنا أخدم أختي، وعندنا مرة تجي تساعدني على البيت).

واتفقـــتا علـــى أن تخبر زوجها بالأمر على صيغة الإخبار بالواقع، فإذا رأت منه ليناً واستجابة استشارته في استقبال أختها حتى انتهاء نفاسها.

وعندما جاء الزوج وأخبرته فرح بذلك فرحاً عظيماً وقال لها:

(يا (طرفة) حنا ندور أحد نتصدق عليه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ما نقص مالاً صدقة، بل تزده، بل تزده).

وهــذي أختك المعروف فيها بر وصلة، يكون صدقة ويكون صلة رحــم، ثــم أضــاف يقول دون أن يرى أن زوجته قد أغرورقت عيناها بالدموع وهي تدعو له بطول العمر والزيادة من الخير:

الدنيا ماهيب مامونة يا طرفة- اليوم لك وباكر ما يدري من هي له، فالذي يحسن إلى الناس في وقت القدرة يسخر الله الناس يحسنون إليه في وقت الحاجة.

ثم لاحظ دموع الفرح والتأثر في عيني زوجته فقال لها:

الله يهديك- يا طرفة- أنا ودي إنك قلت لمرة أبوك تجيبها بدون ما تشاوريني لأنك تعرفين اللي عندي.

فــازداد بكاؤها وهي تدعو بأن يجعله الله ذخراً وملجأ عند الحاجة، وأن يدفع عنه البلاء.

وهنا قال لها:

يــا- طــرفة- أنــت راعــية بيت ويجيك ناس وعيالك محتاجين لــك،وراك ما تستسمحين أخوك صالح وتخلين أمه تجي مع أختك تنفسها وتقعد عندها في بيتنا، الله يحييها البيت بيتها!

وكانت تعلم أن الأمر لا يستدعي الأذن من صالح، لأن ذلك يسره.

فلما عرضت الأمر على أمه وهي زوجة أبيها هيلة، فكرت قليلاً ثم قالت لها:

يـــا بنيتـــي، عقب معيشتي في بيت أبوي محشومة مكرمة ما لاحد علـــي مـــنة إلاّ ربي، ثم عند أبوك -أبوصالح- الله يغفر له- وهنا وقفت كلماتها في حلقها، وتساقطت دموعها وهي تقول: الله يرحمك يا أبوصالح ما عرفنا قدرك إلاّ عقب موتك.

فهدات البنت من روعها وقالت لها:

يا أمه، وذلك من باب التكريم، وإن لم تكن إبنتها لبطنها وإنما كانت ابنة زوجها.

هـــذا مـــا فيه منة، البيت بيتي ورجلي موافق فوافقت على أن تبقى عندها بعض الوقت.

ثم قالت الأم لابنها صالح بعد عودتها من أخته:

(يـــا صالح، الله ما يقطع من جانب إلا وياصل من الجانب الآخر، أختك (طرفة) تقول: خلوا سلمى تجي تولد عندي وشاورت رجلها ووافق، لكـــن ويـــن نودي وجيهنا من الناس؟ إن أختك تجنب بيت أخوها وتروح لبيت أختها؟)

فقـــال بدون مبالاة: كله واحد، والمهم أننا افتكينا منها تبي تقعد عند مرة تعرف للمرة.

فقالـــت: (يـــا صالح، أنا اللي ودي أنها تقعد عندنا، وأنا اللي أصير عندها وأنفّسها واقضي حاجاتها، أبوك الله يغفر له موصيني عليها، وعلى بـــناته كلهن يقول: فطّني صالح لهن، لأنه رَجّال يمكن أن بعض الأمور تخفاه، وأخاف من عقوبة من الله تلحقك أنت لأنك قصرت مع أختك، مثل

ما إني أخاف من ألسنة الناس عليك! فلم يرد عليها.

ولـــدت (سلمى) بالفعل في بيت أختها (طرفة) وحضرت (هيلة) أم صالح الولادة وأقامت عندها يومين لم تطاوعها نفسها على أن تزيد عليهما لئلا تتحمل منة لأحد لم تعتد على مثلها.

وقد قامت أختها بأمرها خير قيام، حتى المأكولات الخاصة للنفساء ومـــنها أن تأكل اللحم في كل يوم وأن يكون ذلك من فخذ خروف سمين، كان أبو محمد يحضر لها ذلك وإذا أرسل زوجها لها لحماً وهو يرسله كل جمعـــة، كما هي العادة عندهم فإنهم يأكلونه ويطعمونها اللحم الجيد الذي يحضرونه لها.

أمـــا صـــالح فقد غفل عنهم أو تغافل مما جعل ذلك سبباً في غضب أمه علـــيه، وتركها بيته ذاهبة إلى بيت والدها في قرية (الخضراء) ولم يكن في بيته إلا والدتهـــا وأخ لها صغير أما والدها فإنه كان قد مات وصارت أمها وأولادها يأكلون مما قد يصلهم من ديون متخلفة له على الناس.

وارتاحت نفسها للبقاء في بيت أبيها إلا أن قلب الأم لا يزال مشغولاً بـــأحوال ابـــنها، وزوجته وولديه، وشيء آخر وهو تقصيره تجاه أخواته اللاتـــي لـــيس لهن غيره، وقد أوصاها زوجها زيد بهن خيراً قبل وفاته، فحفظت له وصيته، وضيعها صالح.

وقـــد تدينـــت (هيلة) فصارت تقضي كثيراً من أوقاتها في نوافل الصلاة والاســـتغفار مما أرهف من إحساسها وجعلها محبة للخير! ولذلك نسيت ما كان بينها وبين بنات زوجها من مشاجرات ومخاصمات أيام شبابها.

وصـــار هدفها أن تفعل الخير ومن أهم ذلك أن تلاحظ أمور هؤلاء

البـــنات، وأن تحاول أن تحمل ابنها على القيام بواجبه نحوهن، لأنها رأت فـــي ذلك خيراً له في دينه ودنياه، لأن عاقبة البر بالأقارب هي أن يوفق الإنسان البار لمن يبره وأن يوسع الله في رزقه.

وحانـــت ســـاعة امتحان أخرى فقاربت ولادة البنت الثالثة لزيد بن مقرب المطية وهي (جوزا) وكان بيتها هادئاً وأم زوجها لا مانع لديها من بقائها في البيت وولادتها فيه، غير أن التقاليد المرعية عندهم أن تلد المرأة في بيت أهلها، ولذلك فائدة أخرى عندهم وهي ألا يرى الزوج زوجته بعد أن كانت تتجمل له على حالة من نقص الدم بسبب الولادة، والمظهر غير الجمـــيل في العين فضلاً عن الرائحة التي تكون عليها أثناء النفاس، فهم يريدون أن تخرج منه على حالة جميلة وتعود على مثلها.

لذلـــك ذهبـــت أم صـــالح والأخت الكبيرة (طرفة) إلى بيت أختها ورجـــت من أم زوجها أن تسمح لها بأن تلد في بيت أخيها صالح أو في بيـــت أختها وكانت الأم تعرف من أمر صالح ما تعرفه بقية الأسرة لذلك وافقـــت اســـتجابة لطلب المرأتين على أن تلد في بيت أختها الكبيرة كما كانت أختها سلمى قد فعلت من قبل.

هذا وقد عادت أم صالح إلى بيت ابنها بعد أن سعت أمها جدة صالح فـــي ذلـــك لدى الطرفين حذراً من عقوبة تلحق بصالح إذا استمرت أمه مغاضبة له؛ ولئلا يشمت الأعداء بها، ولأمر آخر سبق أن أشرنا إليه من قـــبل وهـــي رغبة (هيلة) أم صالح في أن تكون قريبة من بنات زوجها اللاتـــي وصاها بهن خيراً بعد مماته، ولم يعد لهن أقارب ولا من يهتمون بأمرهن غيرها وغير ابنها صالح الذي لم يبال بهن.

النتيجة التي لم يتوقعها زيد المطية:

والشـــيء الذي حدث لهذه الأسرة بعد ذلك ولم يكن يتوقعه زيد، بل كان منذ أن ولدت له أولى البنات وإلى حين وفاته يفكر في أن عكسه هو الذي سيحدث.

وذلـــك بـــأن زوج البنت الرابعة (سلمى) طلقها ومعها منه ولدان، فـــرفض أخوهـــا صـــالح أن تعيش مع ولديها عنده، بحجة أنه يجب على الحكومة أن لا تبيح له طلاق زوجته وإخراجها مع أولادها من بيته، ولأنه كـــان يجـــب أن تـــتعلم المرأة وأن تعمل، لأن كل شخص في المجتمع الفرنسي مسئول عن نفسه، سواء أكان ذكراً أم أنثى.

ولم يفكر في كون المرأة عندهم لا تعمل حتى لو أرادت ذلك، لأنه لا مكـــان لعمـــل المرأة إلا خادمة في بيت إحدى الأسر الغنية، وقد علق بنفسه على ذلك بقوله:

خلهـــا تشـــتغل ولـــو خادمة ولا تبلى الناس بنفسها، الخدمة عمل، والعمل شريف مهما كان.

والمهم أن أخته اتجهت مع ولديها إلى بيت أختهما الكبرى (طرفة) حيث بقيت تنتظر أن يرجعها زوجها، أو أن تتزوج غيره.

وقـــد رحبـــت الأخـــت بها ترحيباً بالغاً وعاشت في كنفها فترة من الزمن لم يعرف راوي القصة مقدارها، غير أنه يعرف أنه حلت بالأسرة خلال ذلك مصيبة أخرى،إذ مات زوج الأخت الثانية (قوت) وترك خلفه ثلاثـــة أولاد منها وكان سبيلها سبيل اختها الصغرى إذ اتجهت إلى بيت أخـــتها الكبرى (طرفة) فسكنت معها وكان عملها الوحيد أن تعاون أختها

في شئون المنزل ورعايته لأنه قد كبر وكثر الخير فيه.

ولـــم يذكـــر لنا راوي القصة ما حدث بالضبط للأختين بعد ذلك وإن يكـــن بلغنا من غيره أن البنت الصغرى قد صالحها زوجها وأن البنت الثالثة قـــد تقـــدم لخطبـــتها زوج كهـــل كانت قد ماتت زوجته، وتركت له أولاداً منها،فـــتزوجها لتضـــم أولاده إلى أولادها فيصبح الجميع أولاداً للاثنين، أما راوي القصـــة فإنه كان قد توقف عند وجود الأختين كلتيهما مع أولادهما في بيت أختهما بعيداً عن بيت أخيهما صالح، وحتى بعيداً عن بره وعنايته.

وكانت هذه النتيجة التي لم يتصورها زيد بن مقرب المطية لأنه كان يفكر طول حياته بعكسها، ولكنه مات قبل أن تحدث.

وكان هذا من حسن حظ زيد!

انتهت الرواية ،،

الفهرس

الفصـــل الأول : الزمان والمكان	٥
الفصل الثانـــي: الوالد	١١
الفصل الثالـــث: الزواج	١٣
الفصل الرابـــع: الزوجان الحبيبان	١٦
الفصل الخامس: مرض الطفل	٢٠
الفصل السادس: موت الطفل	٢٩
الفصل السابع : دفن الطفل	٤٠
الفصل الثامن : انتظار الولد	٥٥
الفصل التاسع : الحادث المؤلم	٥٨
الفصل العاشر: حادث للزوج	٦٦
الفصل الحادي عشر : إدارة البيت	٧٠
الفصل الثاني عشـــر: بنت ولكن	٧٥
الفصل الثالث عشـــر: الضيق بالبنت	٨٤
الفصل الرابع عشـــر: المشوهة	٩٢
الفصل الخامس عشر: الفرج	١٠١
الفصل السادس عشر: الصراع النفسي	١٠٣
الفصل السابع عشر : التفكير بالزواج الثاني	١٠٧
الفصل الثامن عشر : العزم على الزواج	١١١
الفصل التاسع عشر : البحث عن الزوجة الثانية	١١٧
الفصل العشـــــرون: الزواج الثاني	١٢٣
الفصل الحادي والعشرون: العروس	١٣٤
الفصل الثاني والعشرون : الزفاف	١٤٠
الفصل الثالث والعشرون : الضرتان	١٤٥
الفصل الرابع والعشرون : امتحان الزوجة الغريرة	١٥١
الفصل الخامس والعشرون: الأمل المنتظر	١٥٣

الفصل السادس العشرون: البشارة ١٥٧
القسم السابع والعشرون : الرباط الوثيق ١٦٤
الفصل الثامن والعشرون: صالح في المدرسة ١٦٦
الفصل التاسع والعشرون: المطوع ١٦٨
الفصل الثلاثون: الدكان ١٧٩
الفصل الحادي والثلاثون: العودة إلى التعلم ١٨٣
الفصل الثاني والثلاثون : التحول الكبير ١٨٧
الفصل الثالث والثلاثون : السفر ١٩٠
الفصل الرابع والثلاثون : البرزخ ١٩٣
الفصل الخامس والثلاثون: العالم الجديد ٢٠٥
الفصل السادس والثلاثون: عالم الآلام والأحلام ٢١٣
الفصل السابع والثلاثون : المنزل الجديد ٢١٥
الفصل الثامن والثلاثون : الحمام الإفرنجي ٢١٧
الفصل التاسع والثلاثون : رجوع الشيخ لطفولته ٢٢٠
الفصل الأربعون: العيش الرغيد ٢٢٣
الفصل الحادى والأربعون: جوزفين ٢٢٤
الفصل الثاني والأربعون: الغرام ٢٢٩
الفصل الثالث والأربعون: الانقلاب ٢٣٧
الفصل الرابع والأربعون: الصاحب السوء ٢٤٢
الفصل الخامس والأربعون: الغوص في الوحل ٢٤٧
الفصل السادس والأربعون: استمرار السقوط ٢٥٧
الفصل السابع والأربعون: الرجوع للوطن ٢٦٠
الفصل الثامن والأربعون: انطباع الشيخ ٢٦٣
الفصل التاسع والأربعون: التخلص من الماضي ٢٦٧
الفصل الخمسون: زيد بن مقرب المطية يودع الحياة ٢٦٨
الفصل الحادي والخمسون: بنات زيد بن مقرب المطية ٢٧٠
الفصل الثاني والخمسون : التنكر للأعراف الطيبة ٢٧٤
الفهرس ٢٨٤